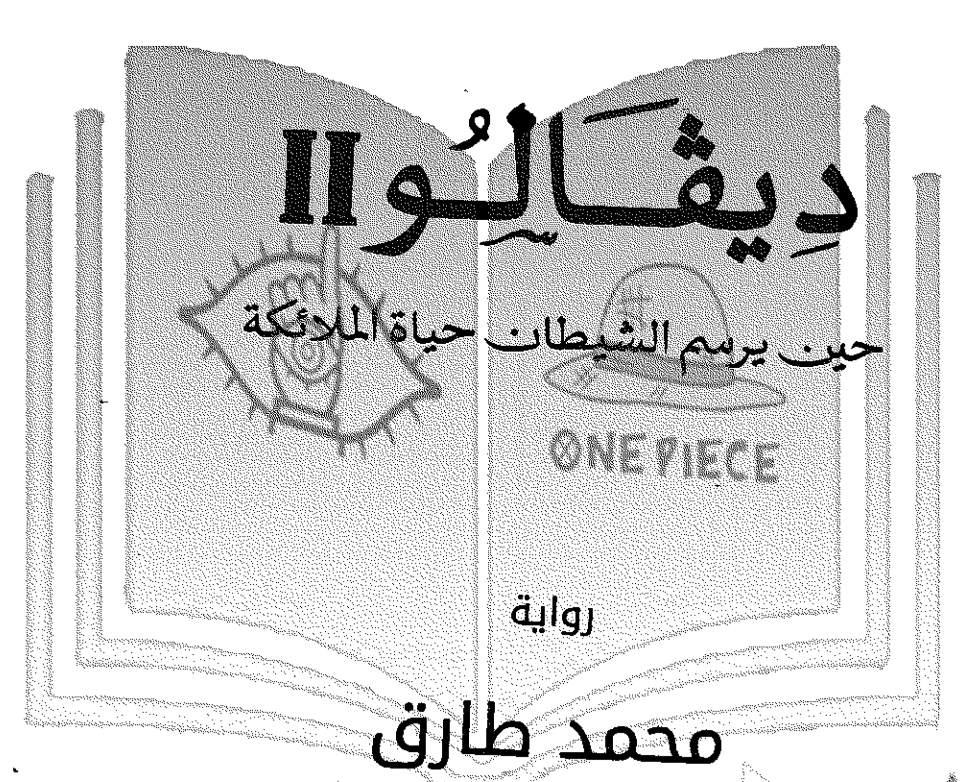
رواية

محمد طارق

دِيڤَالُو II

حين يرسم الشيطان حياة الملائكة

تشكيل للنشر والتوزيع



دِيڤَالُو II

حين يرسم الشيطان حياة الملائكة

رواية

محمد طارق

BOOKS

المقدمة

عزيزي القارئ..

أنت مُدعي، تحاول أن تكون لطيفًا مع العالم، بينما بداخلك سخط عظيم تجاه كل شيء، أنت منافق، تبتسم أمام أشخاص ربما لا ترغب في رؤيتهم من الأساس، وكثيرًا أخفضت رأسك للموجة العالية حتى لا تعود بك من حيث بدأت إلى نقطة الانطلاق، أو ربما تدرس في مجالٍ أجبرت عليه لتحقيق رغبات والديك، أو لأن مجموعك في الثانوية كان أقل من تحقيق هدفك، وأضعف الإيمان إنك لا تعترف بالنظام الدراسي من الأساس. ربما رغبتك كل يوم تكمن في عدم مغادرة فراشك، لكنك في النهاية تنهض وتبدأ طقوس يومك مرغمًا، ربما تذهب للعمل في مكانٍ لا يشبهك، تتعامل مع زملاءٍ سطحيين. وتبتسم في وجه مديرك حتى لا يخصم جزءًا من راتبك، لأن ثمة التزامات مادية أهم من رغبتك ومشاعرك الشخصية، حتى في العلاقات الاجتماعية، ثمة علاقات ترغب في إسدال الستار عليها، لكنك لا تملك قدرةً على نهايتها، لا تملك جرأة الرحيل عنها، لا تقدر على الهروب منها.

العالم لا يسير حسب أهوائنا الشخصية، لا يتوقف عندما يبكي، ولن يتعاطف مع هزائمك وانكساراتك، العالم يسير بطريقةٍ جنونية، لا يتعاطف، لا ينتظر، لا يتوقف لأجل أي شخص. العالمُ أكبر من حزنك يا صديقي..

لذلك لا بُدَّ أن نكون واقعيين مع أنفسنا، ونعترف أن ضريبة التعايش هو النفاق والخداع والكذب. إجبار نفسك على خوض معارك لا تشبهك، بهذه البساطة وهذا التعقيد وأنا مثلك تمامًا يا صديقي. لذلك..

أهلًا بك في الجزء الثاني من رواية ديڤالو، لنستمتع معًا في رحلةٍ طويلة من الكذب والنفاق والخداع والظلم.

1

المشهد الأول: ليلة رأس السنة.

«لا أحد ينام في برلين وإن غدا العالم في ثباتٍ طويل، ويبقى شخص واحد مُستيقظ، فهذا الشخص هو أنا، تُرى ما الذي يجعل عقولنا لا تنام: الكافيين، الكحوليات، آلام الرأس، آلام المفاصل؟ الإجابة لا، هنالك ثمة شبح مخيف يجعل عقولنا لا تنام، إنه الخوف، الخوف من الحاضر، الخوف من الماضي، الخوف من المستقبل، الفشل واليأس، أو الموت. وأنا خائفة، دائمًا خائفة، الخوف يقف أمامي، يعقد حاجبيه ثم يبتسم، يمسك بيده وردة وفي الأخرى مسدسًا، أنا خائفة، في يومي العادي أرى الموت حولي، للموت رائحة ذكية لا يمكن التغاضي عنها، للموت آثار واضحة ترافقك في كل خطوةٍ لا يمكنك الهروب منها. الخوف يأكل قلبي ويلتهمه، أشعر به، بمخالبه، بقبضته المميتة، إنه يلاحقني أينما ذهبت، يلاحقني في مدرستي فجعلني فتاة بائسة لا أصدقاء لها. ضيف دائم في تجمعاتنا العائلية، حتى أصبحت بالنسبة لعائلتي فتاة انطوائية وكئيبة، فأقرر العودة لغرفتي، وهنا أجده ينتظرني على

سريري ويبتسم، حتى حين أقرر الهروب بالنوم، يلاحقني بسيل كوابيس دموية مرعبة.

أنا خائفة وأحتاج لأطمئن، لكن لا أمل في هذا، لقد قرر أحدهم أن ينتقم من أبي بهذه الطريقة، أن تعيش ابنته في خوفٍ أبدي. أستقبل كل يوم رسائل التهديد بالقتل، فكرت كثيرًا في إخبار أبي، لكن وفي إحدى الرسائل أخبرني هذا الخوف، بأن قتل عائلتي بالكامل، هو ضريبة التحدث مع أي شخص عن هذا الأمر، حاولت التواصل مع هذا الخوف لكن لا أملك أيّ طريقة للتواصل معه، حاولت التخلص من نفسي لينتهي هذا الهراء لكنني أضعف من الانتحار، لذلك فأنا هنا مجبرة على الخضوع حتى يقرر هذا الشخص ميعاد الانتقام من أبي ويقتلني.

أشعر أن الوقت قد اقترب.

أشعر أن اللحظة المناسبة ليست بعيدة.

أشعر أنني في أيامي الأخيرة.

تمنيت أن أعيش حياتي.. لكن على عائلتي أن يتباهوا بي. لقد حافظت عليهم وعشت فترة طويلة في هذا الخوف حتى أضمن لهم الحياة التي قرر أحدهم أن يسلبها مني».

برلين.

كلارك كاستلو.



صوت خطواتٍ تقترب من الباب.. الأغنية الشهيرة «merry christmas».

الأغاني الجميلة في الظلام.. نذير شؤم.. هكذا تؤمن كلارك.

الصوت يقترب أكثر؛ كلارك ترتجف.

يتحرك مقبض الباب؛ كلارك تصرخ: «النجدة.. النجدة».

لا أحد يستجيب.

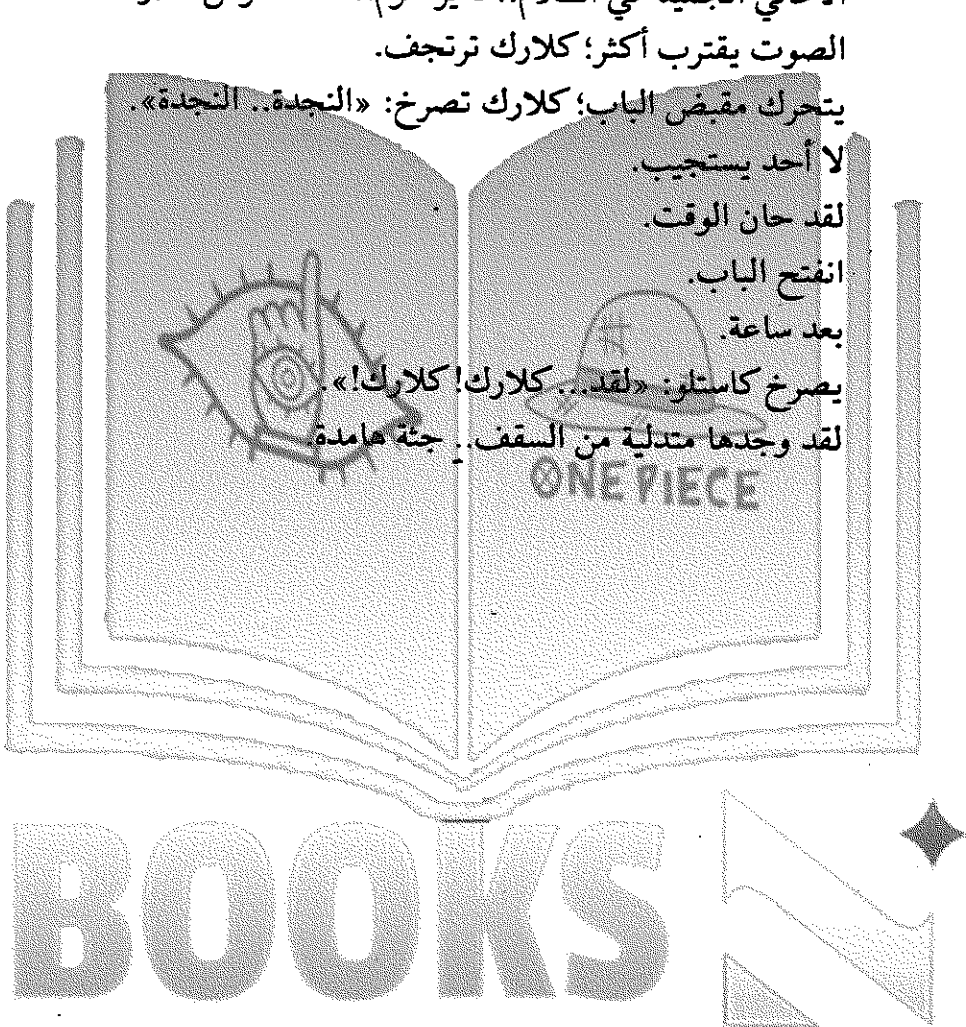
لقد حان الوقت.

انفتح الباب.

بعد ساعة.

يصرخ كاستلو: «لقد... كلارك! كلارك!».

لقد وجدها متدلية من السقف.. جثة هامدة.



المشهد الثاني: ميلانو/ إيطاليا.

مر ٩٠ يومًا على اغتيال صوفيا، الخبر الذي هز أركان المافيا الإيطالية هنا، كل الاتهامات تشير إلى جورج، لكن المسألة مُعقدة، فرغم وجود السكين المطبوع عليه العلامة التجارية لجورج إلا أن هذا الدليل غير كافٍ، فهو يملك الكثير من المدن السياحية هناك في اليونان.. ولأنني في سوقٍ جديد أقصد في أرض الخصم، ومتوقع أي ردة فعل من المنافسين تحديدًا صوفيا وبينتو، تعمدت أن أترك هذه العلامة التجارية على المعدات الخاصة بالمطاعم، حيث يمكن لأي شخص سرقتها واستعمالها الشخصي، وقد كان وأسقطت التُهم عني وأغلقت القضية.

حرك جورج الحصان من على رقعة الشطرنج قاصدًا الملك: «كش ملك سيد بيريتوف».

نهض السيد بيريتوف من مكانه وهو ينظر للرقعة بتأمل: «وانتهز بينتو انشغال الجميع واستولى على أملاك صوفيا، إذًا كل الشكوك تحوم حوله».

ضحك جورج: «هذا بالضبط ما أراده الجاني الحقيقي.. لقد استخدم فلسفة الإلهاء العظيم، حين ينشغل الجميع بأحد الفرائس بينما يخطط هو للفوز بالفريسة الأكبر.. لكن دعني أقول لك الحقيقة، بينتو أضعف من أن يخطو هذه الخطوة، لا يملك الذكاء الكافي لتنفيذ هذه العملية بمفرده. هذا لا ينفي الشكوك حوله، لكن في الكواليس ثمة شخص يتعاون معه».

حرك بيربتوف الملك ليحتمي بالفيل.. سرعان ما قطع جورج الطريق عليه: «كش ملك مرة أخرى لك.. ولديفيد شاهين».

ـ لا أعرف كيف يمكن لهذا الشاب أن يقوم بمثل هذه الأفعال؟ أنا أعرف ديفيد عن ظهر قلب، لم يكن عدوانيًا في بداية حياته، لا أصدق إنه قتل صديقته الوحيدة، الخيانة ليست من صفاته.

وهو ينظر لصورة جورج مع لورين: «لقد عانى الأمرين، خيانة الصديق والحبيبة».

أثارت هذه النظرة العابرة غضب جورج، لكن عدم تداركه أمام رئيس المجموعة قد يكلفه حياته، فواصل مدعي الهدوء: «ديفيد فيلسوف مُختل، يعيش حياته بمبادئ وقيم صنعها لنفسه، يؤمن بها ويحارب من أجلها، وبإمكانه إنهاء حياة أي أحدٍ يمس هذه الأفكار. هو يشعر بالخزي والعار لأنني أؤمن ببعض المبادئ التي صنعها، بل وطبقتها في حياتي أفضل منه، لقد ظن بعد زواجي من لورين أن المعركة انتهت، لأنها كانت جولته الأخيرة، لكن بالنسبة لي كانت البداية، وحين قرر التلاعب والمساس باستقرار عائلتي، لم يرَ مني إلا رد فعلٍ في غاية القسوة، لقد أنهيت حياة عائلته بالكامل، ثم ساد الهدوء من جديد، لكن في الوقت الذي عاش في حطامه يبكي على هزيمته، كنت أجهز للمعركة الجديدة لأنني أعرف أنه لن يهدأ إلا بعد أن ينتقم، لذلك قررت البدء من جديد، وقد كان حين انضممت إلى المجموعة، وأصبحت فردًا منكم، ثم بدأت منافستنا في السوق وهذا لم يتحمله أيضًا، لم يطِق وجودي الدائم أمامه يا سيدي. حين يراني يشعر بالهزيمة، يشعر بالضعف، وأنا أقدر هذا الشعور جيدًا،

صحيح توقعت أن يكون هناك رد فعل منه، لكن لم أتوقع أن تكون الضحية هي صديقته الوحيدة، هذا نذير الخطر، وأنت تعرف إنني لن أصبر حتى ينهي حياتي أو حياة عائلتي يا سيدي، سيكون لدي رد فعل وفي غاية القسوة».

تساءل بيريتوف في حيرة: «لا أعرف ما تنوي القيام به يا جورج، لكن أتمنى أن يسود السلام جماعتنا، لكن هل تظن أن له علاقة باغتيال كلارك؟».

- لا علاقة له باغتيال الفتاة، هو أضعف من خوض أكثر من معركة في وقت واحد، أما عن السلام فهذا ما نريده جميعًا، ولهذا علينا تطهير المجموعة أولًا حتى ننعم بالسلام».

رافضًا الاقتراح رد بيريتوف: «لا يمكننا طرد ديفيد من المجموعة».

ضحك جورج وهو يشعل غليونه: «لم أقل طردًا، هذه العقوبة لن تمنحنا السلام، على العَدس، قد يكون الخطأ الذي حدث في العملية الأخيرة متعمدًا حتى يتم محاسبته من المجموعة، ومن ثمَّ طرده حتى يذهب بعيدًا، يفكر ويخطط في هدوء وفي الخفاء دون أن يتابعه أحد، الطرد سيوفر له الاختفاء كيفما ووقتما يشاء، وهذا ما يحتاجه، أن تتعايش مع ثعبان في غرفة صغيرة أفضل من التعايش معه في غابة، لذلك علينا أن نضعه دائمًا تحت أعيننا، حتى يشعر بالخناق، ومن ثم تأتي اللحظة المناسبة لرد الفعل».

تساءل بيريتوف الذي غلب عليه التوتر: «إذن ماذا سنفعل؟».

رد جورج في هدوء تام: «لن نطرد ديفيد شاهين، سنقتله».

المشهد الثالث: كازينو أضواء المدينة/ القاهرة

العالم هنا مُختلف، الأموال والنساء ما أكثرهما، العلاقات المُحرمة والمشبوهة، أهم رجال الأعمال المصريين والعرب، أغلب صفقات السلاح والمخدرات تتم في هذا الكازينو، لا يمكن للسلطات المصرية إلقاء القبض على أي من زواره مهما كانت تهمته، لا يمكن حتى فرض أو محاولة مراقبته أو اقتحامه، هو أشبه بكازينو دبلوماسي كل شخص له سلطته وحصانته التي لا يمكن المساس بها، ومع ذلك فلأن هذا الكازينو صورة مصغرة من مجالس الشيوخ، فمثلما يوجد المؤيدون للنظام والحكام، وهم أول من يحصلون على مقاعدهم بأريحية، يوجد أيضًا المعارضون الذين وصلوا لهذا الكازينو بعد عناء، وهم أشبه بالمعارضة في شرقنا الأوسط، مجرد صورة كاذبة للمعارضة، يعارضون بالاتفاق مع المؤيدين حتى يثبتون وجودهم للرأي العام، وفي الكواليس يسعون بشتى الطرق لكسب رضاء صُناع القرار.

يقدمون التضحيات والتنازلات في سبيل البقاء في مقاعدهم، الفرق بين مجالس الشيوخ والكازينو هو إن الفقراء لهم وجود ملموس على طاولة البوكر، الغرف المشبوهة، وملذات المؤيدين والمعارضين، هم المنافسون الأشرس لأن دوافعهم في اللعب على طاولة البوكر لا تتوقف عند الفوز، بل الانتقام من أصحاب السلطة الأعلى، وهذا ما يجعلهم يلعبون وكأنهم يحاربون في ساحة حرب. الضغينة والانتقام كلها أشياء ترفع من لهيب حماسهم، خصوصًا إن الفتيات من هؤلاء حال هزيمتهن يعرضن أجسادهن مراهنة على

طاولة البوكر، ساعة واحدة مع الفائز في غرفته وتعود لتلعب بكل قوتها لتلعب من جديد وأشهرهن..

- لن ألعب في طاولة واحدة مع هذه الفتاة.

بهدوءٍ ولامبالاة وهي تنظر لأوراق اللعبة قالت: «حسنًا يا أخ، اترك مقعدك لشخص آخر لا وقت لدينا».

شعر الرجل بالإحراج أمام بقية اللاعبين، فاندفع وقال بصوتٍ عالٍ: «أنا المستشار علي الدمياطي، أنا من يقرر البقاء والرحيل عن الطاولة، إياكِ أن تنسي نفسك يا عاهرة!».

وقفت الفتاة وبنبرة صوتٍ حادة: «وأنا وصال نجاتي، ملاذ كل هؤلاء يا سيادة المستشار، أنا غايتهم للفوز بي، كل هؤلاء الذين تراهم يسعون لهزيمتي حتى يفوزون بجسدي، كلهم مثلك تمامًا في البداية يقودهم كبريائهم لكن...».

تركت حمالة الفستان تنزل من كتفها وواصلت: «حين ينسدل هذا الفستان قليلًا يسقط معه كبرياؤكم ومبادئكم، وتلهثون خلفي. اجلس يا علي، اجلس لا تقلق، الدار أمان، صحيح ليلة أمس لم تكن أفضل سهراتك معي، لكن كلهم يمرون بهذه اللحظات الصعبة».

نظر علي الدمياطي لبقية اللاعبين وكأنه ينتظر منهم أي رد فعل على هذه الإهانة القاسية في ذكوريتهم، لكن وكأنها كانت تتحدث عن رجالٍ آخرين؛ لم يرد أحد.

بعد الجولة الأولى من اللعبة أمسكت وصال رأسها، يبدو أنها شعرت بالدوار، ألقت بالأوراق في وجه «الموزع»، ثم غادرت الطاولة: «سهرة ملعونة مثل أصحابها».

2

المشهد الرابع: نابولي/ إيطاليا

على أنغام الأغنية الإيطالية «العبد والسيد»، وبعد عطلة دامت تسعين يومًا أعطاها لهم ديفيد شاهين، تجمع الأولاد من جديد في قصر رئيسهم، العناق، الرقص والغناء والشرب والترحيب الحار.

«تبدو أنيقًا يا ياسين».

كلمات قالتها دليدا التي لم تلتقِ به خلال العطلة. سرعان ما أفسد مروان هذه اللحظة الودودة بكلماته السخيفة: «لا تصدق كلماتها يا بائس يا مسكين، لقد اشترى هذه البدلة من سوق العتبة يا دليدا».

اللعنة! هذا الوغد لن يغير عاداته أبدًا.

يمنى رفقة ماري وتالا ومعهن الضيفة الجديدة «أوليفيا».

«كما توقعت، لقد نجح ديفيد في إقناعك بالانضمام لنا سريعًا».

كلمات افتتاحية بدأتها يمنى لأوليفيا التي قالت: «لست مُجرمة، انضممت لكم حفاظًا على حياتي».

ضحكت يمنى وهي تصُب لنفسها كأس نبيذ: «ونحن لسنا مجرمين، ربما لو كنتِ مُجرمة لما اختارك من الأساس، كلنا هنا لأسباب مُختلفة، في النهاية كلنا شركاء في الهدف، وأيدينا ملطخة بدماء الضحية».

واصلت بضحكةٍ خبيثة: «ثم إنني على الأقل لم أساعد في قتل عشيقي».

بغضب ردت أوليفيا: «الأفضل أن تكون هذه آخر كلماتك الموجهة لي بدلًا من أن تكون الأخيرة في حياتك».

اقتحم مروان مجلسهن ومد يده لأوليفيا: «أنا مروان، ضابط شرطة سابق، وألطف رجل عربي يمكنك مقابلته في حياتك».

ضحكت تالا: «ضابط شرطة مفصول».

ردت أوليفيا مُندهشة: «ضابط شرطة!».

دون أن تكترث لأمرها وكأنها تتحدث مع نفسها ردت يمنى: «هذه الغبية قلت لها إننا لسنا مجرمين ولم تصدقني، كل النساء مشككات».

«أهلًا بعودتكم يا أولاد».

كلمات قطع بها حوارهم ديفيد شاهين الذي كان يقف في الدور الثاني من القصر.

«الآن لنبدأ العمل».

اتجه الأولاد إلى غرفة الاجتماعات.. جلسوا في مقاعدهم المعتادة، بينما جلس ديفيد أمامهم وهو يتأملهم، ثم بدأ: «لقد أنجزنا المهمة الأولى بنجاح، انتقمت دليدا من عمها، وامتلكت ثروة كبيرة في اليونان. قتل صوفيا كان ضريبة لتحقيق هدفنا، وانضمام أوليفيا للمجموعة مكسب كبير لنا، كلها مكاسب مهمة ومفيدة لنا».

ردت يمنى: «لكن أُغلقت القضية دون إثبات التهمة على جورج كما أردت».

هز ديفيد رأسه: «هذا صحيح، قبل أن أضع الخطة كنت أملك هدفين، الهدف الأول هو الانتقام لدليدا، والهدف الثاني هو الانتقام من جورج، لكن فكرت ماذا لو استطاع جورج الهروب من هذا الفخ؟ هو يستطيع بالفعل الخروج من الأزمة بأبسط الطرق، غير أن انتقامي من هذا الرجل لن يرضيني القبض على جورج، أريد أن أسحقه بنفسي، لذلك قررت بدء اللعب معه، المعركة الطويلة بكل تفاصيلها، والآن لنبدأ الجولة الثانية».

صبت ماري كأس النبيذ لديفيد الذي بدأ على الفور: «الأجواء في إيطاليا مشحونة، لقد أتممنا مهمتنا بنجاح، وحققنا مرادنا، لكن في الوقت نفسه التحقيقات في برلين مستمرة لمعرفة المُتهم الحقيقي الذي أعدمها. الرسالة التي وجدوها على مكتبها تقول أن في أيامها الأخيرة كان هناك شخص يهددها بالقتل، هذا الشخص عرض حياتها مقابل حياة عائلتها حال الوشاية بهذه التهديدات. يقول كاستلو أنه لا يعرف شيئًا عن هذه التهديدات، لذلك لقد قتلها قبل أن تخبر أحدًا بأمر التهديدات».

وزعت مارتينا الرسالة على الأولاد الذين بدأوا في قراءتها، لتظهر عليهم علامات التأثر، خصوصًا يمنى التي أثارت هذه الرسالة فيض ذكرياتها، لكن سرعان ما تمالكت أعصابها. فور انتهائهم من القراءة واصل ديفيد شاهين: «الواقع والظروف المحيطة بنا تقول أننا لسنا طرفًا في هذه القضية، لكن الأمر لن يكون كذلك».

ظهرت علامات الاستفهام على الأولاد ونظروا لبعضهم البعض.

واصل ديفيد: «نحن نملك القوة الآن، الضربة الأولى كانت مفاجئة وصائبة، لذلك علينا أن نكون انتقاميين أكثر في الضربة الثانية، لكن مع المزيد من الحذر، لأن كل أفراد المجموعة في حالة تأهب واستعداد، ولربما سيبدأون في ضرباتٍ مختلفة لبعضهم البعض، بالمناسبة هذا ما نريده أيضًا، التشتت سيجعلنا ننفرد بكل شخص على جهة ونسود هذه المجموعة. كاستلو هو أخطر رجال المجموعة، يملك القوة والنفوذ، ويملك مُجرمين على استعدادٍ للتضحية بكل شيء من أجله. أنا أقدر وأعرف شعوره، وأعرف قدرته الانتقامية جيدًا، فور نهاية التحقيقات سيضرب ويشن الحرب على الجميع بما فيهم عائلتنا، لكن واقعيين نحن لسنا مُستعدين في هذا الوقت للوقوف أمامه، هو يملك أهم دافع انتقامي إنساني. الثأر من أجل ابنته، سيجعله كالمجنون، فإما الصمت وانتظار الحرب أو التحالف معه ومساعدته في معركته».

قاطعته دليدا: «لا تقل أنك تريد أن ننضم لعائلته من المُجرمين».

رد ديفيد شاهين: «لم أقل هذا، أمامنا فرصة ذهبية للنجاة من هذا الحرب لا بُدَّ من استغلالها، باختصار سنعمل لصالحنا، لكن بطريقة مُختلفة، سنطلب من كاستلو بعض الامتيازات. النفوذ، السلطة التي نحتاجها جميعًا لمواصلة طريقنا، في المقابل سنعرف الجاني، لن تلطَخ أيدينا بالدماء، سنضع الذخيرة جانبًا ونستخدم مهارتنا العقلية في هذه الجولة».

أشعل مروان سيجارة وهو يقول: «يا رجل كفاك مقدمات وخطب وكلام فلسفي لا أفهمه، قل ماذا سنفعل؟».

واصل ديفيد شاهين: «بحسب معلوماتنا فلكاستلو عدوان يمكنهما الانتقام منه بهذه الطريقة، ولكل رجلٍ منهم شخص مسؤول عن مثل هذه العمليات. علينا أن نقترب من هؤلاء الرجال، نعرفهم أكثر عن كثب، نكسب ثقتهم ومودتهم بأي طريقة ممكنة حتى نعرف من من هؤلاء نفذ هذه العملية».

رد ياسين: «ولماذا لا نفترض أن يكون القائم بهذه العملية هو رئيس أحدهم؟».

ردت عليه يمنى: «مثل هذه العمليات تحتاج لمتسلل وقاتل محترف خفيف الحركة، غير أن نسبة فشلها كبيرة، وهي مخاطرة لن يغامر شخص مسؤول عن عائلة القيام بها بنفسه».

هز ديفيد رأسه تأييدًا لكلام يمنى.

سادت حالة صمت طويلة قاطعتها دليدا: «في السنة الأولى كنا مُجرمين والآن محققين، أنا لا أفهم ما يحدث بالضبط».

رد ديفيد شاهين: «إن صدق التعبير، جواسيس يا دليدا، للمعارك الطويلة إستراتيجيات مختلفة. الاندفاع في المعركة دون تأمين خطوطك الخلفية قد يكلفك هزيمة قاسية. واحدة من أسباب قيام الحروب العالمية وقتل ملايين البشر كان بسبب وجود قائد بعقلية عسكرية بحتة لا يملك حسًا دبلوماسيًا في اتخاذ قراراته. القوة أن تملك جيشًا قويًا يمكنه تحقيق كل أهدافك بالسلاح، وتملك حكمة كافية للفوز بهذه المعارك دون إراقة الدماء. القوة الحقيقية في قدرتك على اتخاذ قرارات مصيرية مُختلفة بأكثر من طريقة. السلام فرصة ووقت إضافي لتشييد قوتك ودعمها بشكلٍ كافٍ يسمح لك بشن هجوم جديد على أعدائك. لا تنسوا، لم يكنَ

اختياركم صدفة، ولو كنت في حاجةٍ لعقليات انتقامية دموية لكنت اخترت محترفي الإجرام، لكن من ضمن أسباب اختياركم كانت عقليتكم القوية في الإدارة ومواهبكم المتعددة. معركتنا طويلة ونحن نحتاج لكل قوة لدينا سواء كانت عدوانية قتالية أو دبلوماسية حكيمة، هل فهمتم ما أقصده؟».

تابع ديفيد شاهين نظرات الأولاد لبعضهم، الذين بدأ عليهم الموافقة الإجبارية.

«على الأقل لن نسفك مزيدًا من الدماء يا شباب»، كلمات قالها ياسين إشارة للموافقة: «حسنًا موافقة بالإجماع».

تنهدت دليدا التي لم تشعر بالرضا عما يحدث حتى الآن.

«حسنًا إليكم الخطة: أصابع الاتهام تشير وتأكد أن مُنفذ العملية هو أحد رجال الأعمال في مصر، سواء كان انتقامًا لنفسه أو لأحد أعداء كاستلو، كلها افتراضات نريد التأكد منها، الأكيد أن القاتل ضمن زبائنه أو أحد عمال البار المملوك للرجل المصري. سراج يعمل في هذا البار، الفتاة التي نظن أنها منفذة العملية تدعى «وصال النجاتي»، امرأة ثلاثينية رغم أن وضعها ومكانتها يسمحان لها بالعيش كسيدة أعمال، لكنها اختارت أن تعيش كوضيعة وفتاة ليل في هذا البار، هذا يساعدها كثيرًا على التخفي، وهذا هو استهداف سراج الذي ينتظر من سنختاره ليساعده في الاقتراب منها، لذلك عليك يا ياسين أن تستعد مرة أخرى للعودة إلى مصر، ستكون مهمتك الاقتراب من هذه المرأة، معرفة أدق تفاصيل حياتها، جعلها تثق بك ثقة عمياء».

ساخرًا قال مروان: «ياسين الذي لم يمسك في حياته يد امرأة، سيكون عليه الاقتراب والتعامل مع فتاة ليل! يا للعجب!».

لم يكترث ديفيد لسخرية مروان وواصل: «حاول أن تُعلقها بك، أوهمها بالحب، فالنساء حين يقعن في الحب يخبرن رجالهن بأعمق أسرارهن. اعرف كل ما نحتاجه ثم ارحل عنها».

ردت دليدا: «الأمس حطمنا أجساد أعدائنا، اليوم سنحطم قلوبهم».

هزت ماري رأسها: «لكل معركة ضحايا».

«ماذا عني أنا ودليدا ومروان؟»، تساءلت يمنى.

فأجاب ديفيد: «قلت لكم إننا نحتاج لخط دفاع قوي، يمنى ستكون مستشارتنا القانونية، سترافقني في الفترة القادمة، دليدا أصبحت شخصية معروفة لا يمكن المخاطرة بها، غير إنها تحتاج لإدارة أعمالها الجديدة في اليونان، والفتاة الصغيرة تحتاج لرعايتها أيضًا، مروان هذه ليست جولتك، لكنك ستبقى معي لأن الأيام القادمة لن تمر مرورًا عابرًا، وقد نتفاجأ بأي هجوم في أي وقت، أنت خير من يدافع عن هذه المجموعة، لدينا أعمال أخرى سنقوم بها ونحتاج الجميع».

سألت أوليفيا هي الأخرى عن وضعها فأجاب ديفيد: «لا يمكن المخاطرة باثنين من مهندسيني في عملية واحدة، ستبقين معنا».

صمت غلب عليه الرضاء التام من الأولاد.

«ستبدأون فور الاتفاق مع كاستلو على كل شيء».

تساءلت يمنى: «ماذا لو لم يوافق؟».

رد ديفيد بثقة: «سيوافق، لن أترك له مجالًا للرفض».

المشهد الخامس: برلين/ ألمانيا

وسط الأجواء الباردة اتجهتُ إلى برلين في ظروفٍ صعبة، كاستلو رجل عدواني وحتمًا سيكون رد فعله على اغتيال ابنته في غاية القسوة، ولكن واقعيين، فالأولاد بالفعل ليسوا مُستعدين بعد للدخول في عالم المافيا، لذلك قرار البحث عن السلام هو الأفضل حتى بالنسبة لهم، فلم يظهر منهم أي معترض على هذا القرار. إنهم مُنهكين تمامًا، مُنهكين من قسوة الحياة وتفاصيلها، ذاك الإنهاك الذي جعلهم يوافقون دون أي تساؤل حقيقي. الخضوع والاستسلام تمامًا للواقع الذي فرض علينا، تقبله والتعايش معه، البحث عن أسلم وأقصر الطرق لتجنب صدامات جديدة. كلها أشياء تدل على صعوبة حياتهم والمأساة التي تعرضوا لها، واللحظة التي حولتهم الظروف من مُسالمين لعدوائيين، الظروف التي قتلت أجمل ما فيهم وشوهت براءتهم ومشاعرهم، الظروف التي وضعتهم في هذا المأزق حيث حولتهم من البراءة إلى الشراسة، اللين إلى العنف، الود إلى الكراهية. أصعب هزيمة تواجه المرء هي تلك التي تجعله شخصًا آخر.

وصلت إلى قصر السيد كاستلو، الحزن يخيم على المكان، الأسود حتى وإن كان لا يعكس الطلاء والأثاث الذهبي إلا أنك تجده حولك، أثره واضح في كل شيء. استقبلني السيد كاستلو بكبرياءٍ وغرور، أسد يرفض إظهار هزيمته وانكساره أمام باقي حيوانات الغابة. ادعاء القوة في مثل هذه المواقف يحتاج لشخص عنيد وصبور ينوي ويجهز للانتقام بكل قوته. لقد فقدت حبيبتيَ/

زوجتي/ ثم ابني، وكان علي مواصلة الثبات أيضًا، أنا أفهم وأقدر شعوره، لكن هذا ليس الوقت المناسب للمواساة والتضامن، فمن ترحيبه بي تشعر وكأنها زيارة عادية في إطار عملي، لربما لو يستطيع لأطلق النكات والسخرية ليثبت أنه في أفضل حالاته.

بقوة وهدوء بدأ: «أهلا سيد ديفيد، سعيد برؤيتك ووجودك هنا في برلين».

ـ أهلًا بك سيد كاستلو، أردت التحدث معك في أمرٍ لا يحتمل التأجيل.

شعرت لوهلة أنه لم يتوقع هذا الرد مني فقال: «أريد أولًا أن أعزيك في وفاة صوفيا، أعرف أنها كانت صديقتك المقربة».

كان هذا الرد بمثابة الاختبار؛ إما إنني جئت للحديث عن وفاة ابنته وصوفيا أو إنني بالفعل أنوي التحدث عن شيء آخر، فرددت: «الحديث عن الأموات لن يعيدهم للحياة، ولن يشفي غليل قلوبنا، لنتحدث عن الأهم، الانتقام من أجلنا وأجلهم».

صمت كاستلو فأدركت أنه ينتظر مني المزيد: «ليست المرة الأولى التي أعاني منها الفقدان، لكنني أعرف جيدًا المُدبر لهذه العمليات، وهذا يجعلني أتمهل كثيرًا في رد فعلي، الوضع معك يختلف تمامًا، فأنت لا تعرف من مُنفذ هذه العملية، وأظن أن انتقامك سيتأخر كثيرًا».

حاولت استفزاز قوته وقد كان فقال: «بإمكاني تدمير كل أفراد المجموعة».

ابتسمت وأنا أصب لنفسي كأس النبيذ: «أعرف هذا، لكنك لن تقوم بهذا».

ـ لماذا؟

ـ لأن الشخص الذي دبر هذه العملية واخترق منزلك بالتأكيد يعرف أنك تجهز لرد فعل في غاية القسوة، لذلك من البديهي أن يكون مستعدًا لك أفضل من طريقة الهجوم عليك، ثم يا صديقي البحث عن الجاني الحقيقي وسط هذا العدد من الرجال قد يضعف من قوتك الهجومية، دعني أسهل عليك العملية.

متسائلًا بعد وقتٍ كبير من التفكير: «ماذا تريد يا ديفيد؟».

ـ أريد أن أوفر عليك البحث، أعطني وقتًا وجيزًا وسأقول وأثبت لك من الجاني الحقيقي لهذه العملية، وعندها سأترك لك طريقة الانتقام منه.

كيف؟

ـ هذه مهمتي، كل ما أحتاجه ثلاثة أشهر فقط.

ـ وإن لم يحدث؟

ـ لن نفترض ما لن يحدث.

صمت لثوانٍ ثم قال: «لماذا تريد مساعدتي، ألأنك مررت بما أمر به؟».

لن أكذب على نفسي، واحد من الأسباب التي جعلتني أفكر في مساعدته كان شعوري الحقيقي تجاهه، لكن من السذاجة أن نعترف للآخرين بالحقائق التي نؤمن بها، خصوصًا على طاولة المفاوضات، لذلك أجبت: «في حياتنا لا مجال للتعاطف والمشاعر النبيلة، لن أغامر برجالي تعاطفًا معك هذا محال، أريد أن تتم الصفقة كالتالي،

سأخبرك بالقاتل، وبعدها ستتنازل لي عن ممتلكاتك في إسبانيا والمغرب».

- لا أملك ممتلكات كبيرة في المغرب، ثم لماذا المغرب تحديدًا؟
- بعد ثلاثة أشهر ستكون رأس القاتل أمام قصرك.
- وإن لم أوافق؟
- ستوافق لأنك لن ترضي غرورك وكبرياءك فقط، بل ستحصل على نسبة ٥٠٪ من ممتلكاته أيضًا.
- والنسبة المتبقية؟
- لعائلته، هذه عملية قانونية معقدة أنا المسؤول عنها، اتفقنا؟

رد بحزم: «اتفقنا»

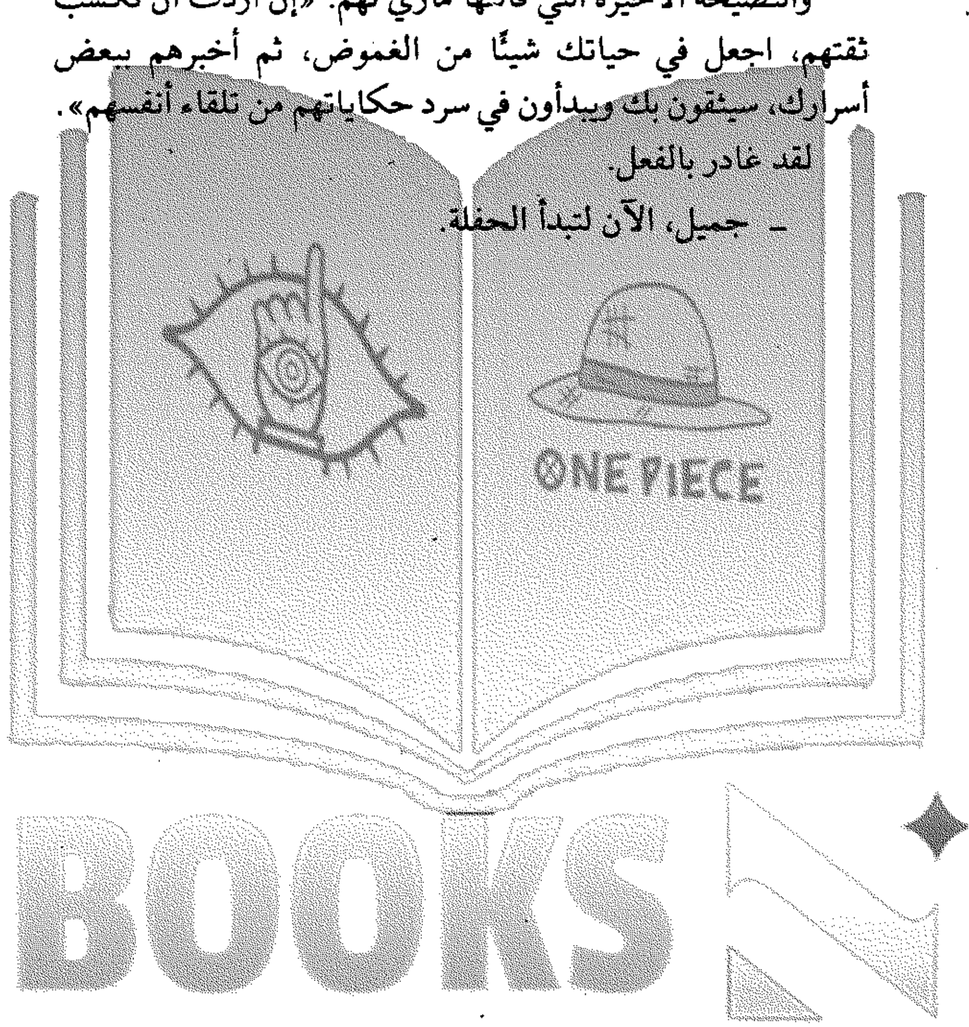
عُدت إلى نابولي بغنيمة الاتفاق على العرض، في المرة القادمة سيكون ليمنى نصيبًا في حضور هذه الاجتماعات، أنا لا أثق بها، لكنني أعرف وأقدر ذكاءها، لذلك عليّ اقحامها تدريجيًا بحذرٍ شديد حتى أستطيع الاستفادة منها وتجنب شرورها. أنا لا أثق في المحامين بشكلٍ عام، وأعرف أن ولاءهم لمن يقدم لهم امتيازات إضافية، ومثل هؤلاء يمكنهم تركك والتخلي عنك في أي وقت، تحديدًا فور أن يقدم لهم أكثر مما تعطيهم أنت. إنهم أشبه بالمرتزقة، ولاؤهم لما تقدمه لهم فقط لا غير.

فور العودة كانت ماري قد أعطت كل المعلومات لياسين، حيث البدء في الخطة في أقرب وقت بعدما بلغتها بموافقته على العرض.

والنصيحة الأخيرة التي قالتها ماري لهم: «إن أردت أن تكسب ثقتهم، اجعل في حياتك شيئًا من الغموض، ثم أخبرهم ببعض أسرارك، سيثقون بك ويبدأون في سرد حكاياتهم من تلقاء أنفسهم».

لقد غادر بالفعل.

ـ جميل، الآن لتبدأ الحفلة.



المشهد السادس: القاهرة/ الثانية ظهرًا

السادة الركاب، نود إعلامكم بأننا قد وصلنا الأراضي المصرية في رحلةٍ استغرقت ساعتين من مطار ميلانو إلى مطار القاهرة الدولي.

فور سماعي هذه الكلمات ابتسمت، في الجغرافيا لكل بلدة رسمة وحدود على الخريطة، وفي الحياة الأوطان حيث يسكن أحباؤنا، حيث نشأتنا، ذكرياتنا، هزائمنا وانكساراتنا، ولحظات المجد والفخر، الوطن هو مكانتنا في قلوب أحبائنا. خرجت من مصر وهي وطني وبلدتي، خرجت هربًا من اليأس والفقر والجوع، خال الجيوب حيث لا أملك إلا بضع نقود لا تكفي لشراء علبة سجائر، لكنني كنت قد تركت ما هو أسمى وأغلى من النقود، لقد تركت وطني وحياتي وقلبي وغادرت إلى إيطاليا، وحينما شاء القدر أن أعود إليها، عُدت وأنا أملك المال، السلطة والنفوذ والحلم، لكنني عُدت أفقر مما رحلت، فلا أحد ينتظرني في مصر، عُدت وكل الأماكن غريبة عني لا تعرفني ولا أعرفها، يتحدثون نفس اللغة، نفس الاهتمامات والعادات والتقاليد، لكن بيني وبينهم مسافات أقرب نقطة فيها أبعد من السماء للأرض، شعور الغربة الذي تملكني فور أن لامست قدماي أرض مصر. لقد غادرتك وأمي على قيد الحياة، وحبيبتي كانت تحتضن وسادتها وتبكي ألمًا واشتياقًا لعودتي، وعُدت وحبيبتي تنتظر عودة زوجها من العمل لتعد له الطعام، وتحدثه عن اشتياقها له بعد أن تطبع قبلة على جبينه، وأمي يحتضنها التراب لا تملك قوة ولا حيلة.

اتجهت إلى الشقة المُتفق عليها، حيث ستكون مكان إقامتي، شقة تبدو مألوفة، فوضوية بشكلٍ كبير، تليق بشابٍ أعزب وحيد. على الجدران الكثير من العباراتِ الشبابية أكثرهم إيضاحًا «هنا القاهرة»، تأملتها حتى ربت على كتفي سراج سقراط، هذا الشاب الغامض الذي لم أطِق وجوده معنا بلا أسباب واضحة، لا أحب هذا النوع من الشبان الذين يبدو عليهم التهذيب والأخلاق الحميدة فور رؤيتهم، في الغالب هؤلاء يخفون وراء هذا القناع أفعالًا شنيعة وأمراضًا نفسية لا تحصى.

ـ أهلًا بك يا ياسين.

ـ أهلًا سراج، أتمنى أن تكون ضيافتي خفيفة على قلبك.

ـ هي كذلك، أنا معتاد على استقبال الضيوف، تعرف يا ياسين لقد استقبلت الكثير من الناس بمختلف أفكارهم وعقائدهم وميولهم وانحرافتهم وحتى طبقاتهم الاجتماعية، كل شخص هنا كانت له قصة وحكاية مختلفة عن الآخر، لكنهم كانوا يجتمعون هنا كل ليلة، يتشاركون الشرب، اللعب، الرقص والغنا، ويربطهم رباط أصيل اسمه «رباط الحزن»، هذا ما يربط القلوب الحزينة المكسورة ببعضها، فيجعلهم كلهم ينتمون لبعضهم البعض، فإن كنت تشعر بالحزن هنا، فأنت لست وحدك، فهذه الشقة قد شهدت على الكثير والكثير من الذكريات والحكايات الحزينة.

ضحك وهو يقول: «أهلًا بك في القاهرة يا صديقي.. هنا لن ينتهي البؤس أبدًا».

أعجبني الترحيب، كان مُختلفًا ومطمئنًا.

واصل سراج: «لقد كانت هذه الشقة أكثر تنظيمًا، لكنني قد هاجرتها منذ فترة طويلة، حين تهجر الأماكن التي تحبها ثم تعود لها بعد فترة طويلة، تشعر بشيءٍ ما قد تغير فيها، شيء ما صار ينقصها، شيء ما رحل ولن يعود بعودتك، ربما لم تكن المشكلة في رحيلك من الأساس، بل كان في الأشياء التي كانت تؤنس وتزين هذه الشقة، وحين قررت الهجران ظلت تنتظرك حتى بهتت تمامًا وشوهها الزمن، أو ربما لم تعد أنت نفس الشخص. قلت لك نحن ننتمي للرقعة التي تجمعنا بأحبائنا وأصدقائنا، أنت تشبهني كثيرًا في شبابي يا ياسين، وهذا سبب كاف بأننا لن نجتمع مرة أخرى».

استغربت جملته الأخيرة فسألته: «لم أفهم، لن تبقى معي؟».

رد سراج الذي وقف في الشرفة يتأمل المارة: «في الحياة فترات مختلفة، نولد أطفالًا فيساعدنا من حولنا على الأكل، المشي، والجري، ثم تبدأ مرحلة المراهقة، حيث بداية الخروج من القفص المنزلي والاحتكاك البسيط مع العالم. في الغالب يقضيها المراهق ما بين العربدة والمشاغبات والتمرد أو الوقوع في غرام فتاة جميلة، ثم يبدأ الاحتكاك الحقيقي، حيث مرحلة الشباب، هنا يبدأ العالم في الظهور بقناعه الحقيقي، تبدأ الأزمات والتعثرات، تذوق لذة الحب وقسوة الهجر والحرمان، أمنيات تتحقق وأخرى لم يستجب لها القدر، تفهم أن بإمكان الشخص الذي أمّنته على سرك أن يزرع خنجرًا في ظهرك، وبإمكان الشخص الذي دافعت من أجله أن يلحق بك أول هزائمك في الحياة، تستوعب معنى الخيانة وتتعلم النفاق، فلم تعد ذلك الطفل الذي يعبث في وجه الذين لا يطيق وجودهم بجواره، تعرف معنى الغش والخداع وتمارس المجاملة

وتعاني من الواسطة والمحسوبية، تقص الحياة أجنحتك فلن تعود الطفل الذي يقف على الأريكة ثم يقفز لأعلى على أمل الطيران فيصطدم بالأرض وهو يضحك.

ستصبح هذه الرقعة التي تحملك صعبة المراد فيما بعد، فقد يضيق بك العالم، حتى إنه في بعض الأيام لن تقدر على التنفس بشكل طبيعي، وتصبح أحد أمنياتك في الحياة أن تنام بهدوء دون الخوض في عناء طويل مع التفكير أو صراعات جلد الذات التي ستنتظرك كل ليلة في فراشك، بعد مرور هذه المرحلة، ستودعها بكل ما فيها من حب وأسى، انتصار وهزيمة، مجد وخيبة، وسعادة وحزن، ومن ثمَّ سيكون أمامك عدة طرق حتمًا ولا بُدَّ أن تخوض وتسلك أحدهم، ربما تقرر مواصلة حياتك بعد كل الأشياء التي تعلمتها فتصبح أكثر نضجًا وذكاءً تمامًا كما قررت فريدة إحدى أصدقائي القدامى، أو الزهد في العالم كما حدث لدهب، ربما لن تستفيد من مرحلة الشباب، فتعيش حياتك تائهًا مشتتًا بلا هدف أو معنى حتى تنتهي أيامك كما حدث مع سوما، ومن حسن حظك إن انتشلك الحب من كل هذا البؤس، فتخلق لنفسك حياة جديدة مع شخص يحبك ويؤمن بك تمامًا كما حدث مع هاجر».

ـ أين هؤلاء الآن؟

ـ مضوا، واصلوا أيامهم، فرقتنا الدنيا وانشغل كل منهم في عالمه، ظاهريًا يحاول كل منا أن ينسى هذه الفترة، ينسى الأحداث التي اضطرته لأن يكون ضيفًا دائمًا في هذه الغرفة، لكن وفي أعماقهم أعرف أن كلًا منهم ننتمي لكل شيءٍ كان سببًا في هذا التجمع، فثمة ذكرى جيدة من بين

مئات الذكريات السيئة، لذلك لا يستدعي عليك الهروب من كل المواقف السيئة التي تحدث لك.

فتح سراج أحد الأدراج، أمسك بيديه ورقة وقرأها في صمت، ثم وضعها في جيبه وقال: «هذا صندوق مراسلاتنا، مفاتيح هذه الشقة يملكها خمسة أشخاص أنا واحد منهم، حال مجيء أحدنا يترك رسالة في هذا الدرج، ليقرأها من بعده، طريقة بدائية في التواصل لكنها تحافظ على الود».

سألته: «وأنت ماذا قررت في حياتك؟».

أجاب: «لقد قررت المضي في طريقٍ مُختلف، أريد أن أرى الصورة عن قرب، أبعد نقطة توضيحية لها، أريد أن أعرف الفكرة والفلسفة من هذه الحياة، لذلك بقائي معك لن يفيد، لن نساعد بعضنا، على العكس ستنقلب عليهم جميعًا، لذلك عليّ العودة إلى نابولي بعد ست ساعات لتحقيق مرادي، للتعمق أكثر في قوانين الحفلة، ومعرفة أدق تفاصيلها».

ـ أي حفلة تقصد؟

ـ الحياة.

ضحكت: «أنا أؤمن إنها لعبة وليست حفلة».

رد وهو يبتسم: «ألم أقل لك لن نساعد بعضنا البعض، في أيامي الأولى في مرحلة الشباب كنت أؤمن مثلك أيضًا أن الحياة لعبة لأنني كنت محاربًا على رقعتها، لكن مع مرور السنوات وبعدما أصبحت تريد فكرة تأسيسها أدركت أنها حفلة، الحياة لعبة حين تشارك في معركتها، وحفلة حين تكون أحد مشاهديها».

فتح سراج الباب، ثم تأمل اللوحة المعلقة على الباب المقابل لباب شقتنا، كان مكتوب عليها: «منزل الخالدة يوستانيا».

قطعت انتباهه وتأمله وسألته: «هل يوجد أحد في هذه الشقة؟».

رد وهو يواصل تأمل اللوحة: «لا».

ـ أين ذهبت؟

رد بابتسامة معتادة: «اختارت الطريق الوحيد الذي لا أتمنى لأي شخص أن يسلكه».

لم أفهم ماذا يقصد وهو لم يحاول توضيح ذلك، فقال وكأنه يتحدث إلى نفسه: «هي خالدة هنا في قلبي وذاكرتي».

أدركت أن الحديث عن شخص فارق الحياة، فحاولت التخفيف عنه بسؤال أخير: «ماذا سأفعل أنا؟».

قال بسخرية: «كعادة المصريين قد يجلسون في الشقة طوال اليوم يتسامرون، وما إن يقرر أحدهم فتح الباب والخروج حتى يبدأ حديث آخر، لا أحد يفهم سر هذه الفكرة، لكن كلنا نمارسها بشكلٍ طبيعيّ، على أي حال اطمئن، لقد بلغت مديري بوجودك، ستعملُ على إحدى طاولات البوكر، طلبت من وصال أن تساعدك، ستخبرك بكل شيءٍ عدا كيف تتعامل معها، المُهمة بسيطة، يمكنك إنجازها في أقرب وقت. فز بقلب وصال واكسب ثقتها حتى تستطيع معرفة كل شيءٍ عنها، أذناك هما رأس مالك، فاسمع باهتمام كل شخص مهما كان حديثه مُبهمًا أو تافهًا. الناس روايات فاقتنص روايةً تجعلك تفهم الحياة بشكل مختلف وصادق.. كن بخير يا ياسين».

ودعني سراج ورحل أمام ست ساعات لأستعد للقاء الأول بوصال في الملهى الليلي.



مساء الخير يا أصدقائي القدامى، كيف حالكم؟

لقد قادتني الظروف مرة أخرى لمنزلنا القديم، الظروف نفسها التي جمعتني بكم في الماضي. أثناء وجودي في الشقة تصفحتها بأدق التفاصيل، آثار وجودكم لا يزال يزين الشقة، سجائر فريدة، مناديل هاجر، سماعات أذن سوما، وزجاجات نبيذ دهب العتيقة، حتى الأوراق التي كنا نلعب بها، كل شيء في مكانه على أمل عودتنا من جديد، لم نكن أصدقاءً وحسب، بل كنا عائلة، صحيح لم نتبادل لحظات الود والتعاطف، ولم يعطِ لنا القدر فرصة للاعتراف بمشاعرنا، لكن كان بيننا ما هو أجمل من كل هذا، كنا قد اتفقنا ألا نفترق مهما حدث، صحيح إن هذا الاتفاق لم ينطقه أي منا، لكن كنا نترك بعض أشيائنا الخاصة في الشقة قبل أن نغادر، وكأننا متأكدين-كل التأكد-إننا سنعود مرة أخرى مهما افترقنا.

غريبة الدنيا، في اللقاء الأخير لم يتحدث أي منا عن نيته للمغادرة الأبدية، ترى لو كنا نعلم حقًا إن هذه النهاية ماذا كان سيحدث؟

هل كانت ستتنازل فريدة عن كبريائها وتعترف بأنها مُمتنة لهذا التجمع البائس؟ هل كانت ستتمرد هاجر على خجلها وتعترف بمشاعرها نحوها؟ وهل سيكف دهب عن نظرته لنا بأننا مجموعة من التافهين السطحيين ويخبرنا أنه تعلم أشياءً جديدة منا؟ صدقًا لا أعرف، لكن ما أعرفه أعز المعرفة أن كلًا منا قد اختار الطريق المناسب له. هاجر التي تزوجت وسمعت أنها تعيش حياةً هادئة مع زوجها، فريدة التي توجد في المستشفى النفسي، تلك التي كانت مثالًا للقوة والثبات، ودهب رحّال كعادته ما بين السيد البدوي في

طنطا والحسين في القاهرة، سوما الوحيدة التي لا أعرف طريقًا لها منذ يوم رحيل مريم حبيبتي وصديقتي وعلمي بأنها هاجرت، لا أريد التحدث عنها فثمة أشياءٍ أخجل من الاعتراف، بها لكنني ما زلت أكن لها الكثير من مشاعر الود والحب. أردت فقط أن أخبركم أنني سعيد بأن كلًا منكم قد وجد ضالته واختار طريقه وحياته الجديدة، كنت أتمنى أن ألحق بكم في قطار الرحلة والمحطة الأخيرة قبل الفناء، لكن مع الأسف فمحطتي الأخيرة لم تبدأ بعد.

«السادة الركاب نحن الآن داخل الأراضي الإيطالية».

أيقظني من شرودي صوت قائد الطائرة وهو يخبرنا بوصولنا إلى نابولي، وفور وصولي اتجهت إلى الساحل، ومن ثَمَّ إلى باخرة ديفيد شاهين حيث لقاءٍ انتظرته طويلًا. فوجئت فور وصولي بأن هناك شخصًا ما مع ديفيد في مكتبه، انتظرت دقائق حتى أذن لي ديفيد بالدخول، أشار إلى الكرسي الخاص بي، ثم عاد نظره للرجل الذي يبدو عليه الغضب، فبادلني هذه النظرات وباستجهانٍ قال: «ومن هذا الأحمق الذي أذنت له بالدخول؟».

رد ديفيد: «هذا أحد أبنائي الذين لا تعرفهم، دعك منه، لنواصل حديثنا في هدوءٍ أكثر من ذلك».

بصق نحوي في غضب.. كدتُ أن أتفوه وأعترض على هذه المعاملة القذرة، لكن أوقفني ديفيد بنظراته، فواصل الرجل الغاضب: «تقتل زوجتي وتطلب مني الهدوء! تفاوضني على دماء زوجتي، تتحدث وكأن لا علاقة لك بقتلها، تتحدث وكأنك بريء من دمائها!».

خلع ديفيد شاهين البالطو الرمادي، وضعه على حاملة الملابس، ثم نظر إلى الرجل الغاضب: «لو لم أقتلها لكانت قتلتني وقتلتك، إنها أفعى أرادت التخلص منا، ليس من المفترض أن تعاتبني، بل كنت أنتظر منك أن تشكرني على ما فعلت».

ارتفع صوت الرجل أكثر مما ينبغي حد إنني ظننت أن من في مصر سمعوا أصداء هذا الصوت: «أشكرك على قتل زوجتي! أنت قاتل، سفاح، أنت تستحق ما قام به جورج تجاهك، لو كنت مكانه لأمرت رجالي أن يغتصبوا زوجتك ألف مرة، ثم يلقوا بجثتها وجبة دسمة للكلاب الضالة، وقتها لن أخطف ابنك، بل سآمرهم باغتصابه أيضًا ليلقى مصير أمه».

كلمات قاسية ألقاها الرجل الغاضب، لم تظهر أثر هذه الكلمات المؤلمة على ملامح ديفيد الذي صمت لثوانٍ، ثم صفع بيده وجه الرجل الغاضب، ضربة قاسية تشعر وكأن أسنان الرجل قد سقطت من قوتها، وفي نبرة في غاية الهدوء والثبات قال: «أرجو ألا تنسى أنني أخوك الأكبر ولا ينبغي التحدث معي بهذه اللكنة».

بكى الرجل الغاضب ـأخوهـ وهو يردد: «لن أرحمك يا ديفيد، لن أرحمك، سأجعلك تتمنى الموت ولن تحصل عليه، سأجعل حياتك جحيمًا كما جعلت حياتنا كلها جحيمًا».

خرج الرجل وفي عينيه مزيج ما بين الحزن والرغبة الشيطانية في الانتقام من أخيه الأكبر ديفيد شاهين.

في الوقت نفسه كان ديفيد يقف أمام مكتبته دون أن ينطق كلمة واحدة، مرت دقائق ثقيلة أشبه بالساعات، الأسئلة تدور في رأسي، أخ يقتل زوجة أخيه الذي يتوعد بالرد والانتقام، مؤسف أن

يعيش الناس بهذه الرغبة وهذه الأحداث الانتقامية الدموية، مؤسف وجودنا في هذه الحياة من الأساس. قطع ديفيد سيل أفكاري وأسئلتي بكلماته: «هذا الغبي لا يفهم أنني أنقذت حياته، كان ينبغي أن يمتن لما قمت به بدلًا من معاتبتي».

كنت مترددًا في معارضته أو بدء مناقشة معه، لكنني أريد إثبات نفسي من اللحظة الأولى، لذلك قررت: «يمتن لك على قتل زوجته؟! لو أراد قتلها لقام بهذا الأمر بنفسه».

- نعم يمتن لهذا، هذه المرأة كانت أفعى بيننا، كانت تخطط لقتلي وقتله، كانت تريد الاستيلاء على ثروتنا.
- ولمَ انتظرت كل هذا الوقت؟
- لأنها جبانة ومترددة وطماعة، اليد المرتعشة لا تقوى على القتل، وحين تتردد في اتخاذ قرارك بالقتل لن تجني إلا رصاصة في قلبك تنهي حياتك.

قلت: «كان بإمكانك حل الأمور بطريقة أفضل وأبعد ما يكون عن الدم؟».

رد بثقة: «لم تترك لي رفاهية الاختيار، لقد تعاونت مع جورج علينا، وتأخرها عن التنفيذ كان من أجل ضمانات تنتظرها حال فشلها ومعرفتنا بالأمر، كانت تبحث عن فرصة أخرى للنجاة حال الوقوع بها، كان بإمكانها أن تعيش حياة رائعة، فلم يبخل أخي عليها بأي شيء، لكنه حب الذات، الطمع والجشع الذي قادها لهذا الطريق، ولأن لكل طريق في هذه الحياة ضريبة لا بُدَّ من دفعها، فلقد دفعت حياتها ضريبة لهذا التمرد والطمع».

تنهدت فمجاراة رجل يملك كل الأسباب لكل ما يقوم به أمر في غاية الصعوبة: «لست أنت من يقر ضريبة اختيار الناس لحياتهم سواء كانت سالمة أو عدوانية».

رد ديفيد شاهين: «نعم، هذا صحيح، لست أنا من أقرر طريقة عيش الأشخاص لحياتهم، فلكل شخص طريقته وأفكاره الخاصة، لكن حين تعتدي هذه الطريقة والأفكار على حياتي الخاصة فأنا من يقرر الضريبة».

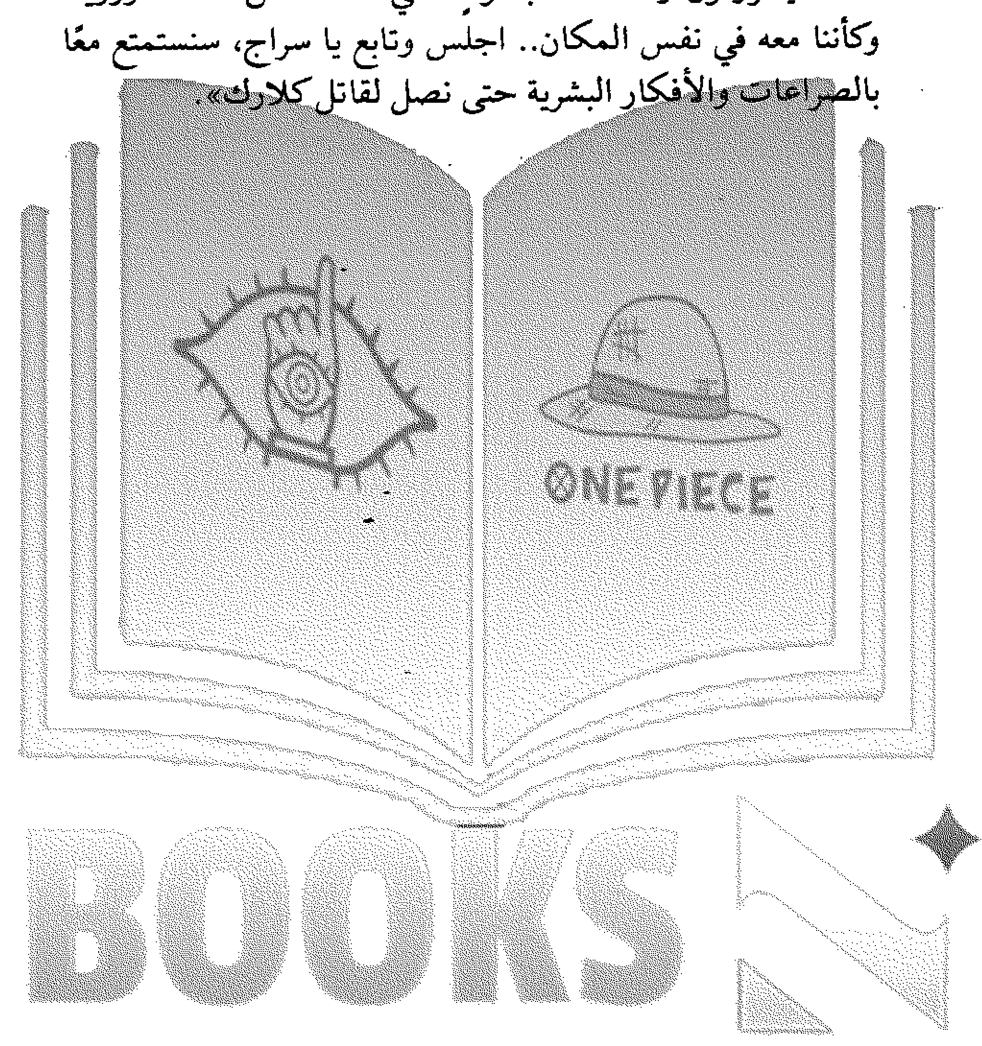
- إن صفعتك على وجهك لا يعني الحق لك في إطلاق رصاصة على قلبي».

ضحك ديفيد وهو يستعد لإنهاء المناقشة: «صفعتك على وجهي كانت أكثر ما تستطيع القيام به، وكانت أشد ألمًا في نفسي. لو كانت تملك قدرة على إعدامي بالرصاص لفعلت دون تردد، هذه النسبة والاحتمال الأكبر، أنا أملك هذه القدرة، لذلك يحق لي كما يحق لك استخدام قدرتي وقوتي على الرد».

- هذا سيخلق مجتمعًا عدوانيًا انتقاميًا. هذه غابة لن تصلح للبشر.

لم يرد ديفيد. خرجنا من الباخرة إلى السيارة، انطلق السائق باتجاه القصر، خلال طريقنا لم يتحدث ديفيد شاهين، كان يتأمل الشارع والمارة في صمت تام، يتأملهم وكأنه يراهم للمرة الأولى، بعد أن وصلنا اتجهنا إلى غرفته، لم يكن في القصر سوانا، جلس على مكتبه، ثم فتح شاشة العرض، أشعل البايب وأراح ظهره على الكرسي المتحرك وهو يقول: «الآن ليتزامن حديثنا ونحن نشاهد كيف سيتصرف ياسين في منزله، الكازينو، الغرفة الخاصة به، حتى

الأقلام التي يضعها في جيبه الصغير، كلها كاميرات عالية الجودة ذات ميكروفون وسماعات بصوتٍ نقي، تمكنا من سماعه ورؤيته وكأننا معه في نفس المكان.. اجلس وتابع يا سراج، سنستمتع معًا بالصراعات والأفكار البشرية حتى نصل لقاتل كلارك».



3

أهلًا بك..

لا بُدَّ أن تتحلى ببعض الأشياء حتى يمكنك التعايش معنا، هذه الأشياء ستساعدك على تجنب المخاطر أو الأزمات، وستضمن لك مكانك بيننا أيًا كانت فترة إقامتك. أولها الصبر، لا تتعجل في اتخاذ قرار أو رد فعل، واحذر أن تكون سريع الضجر والغضب، فالاستفزاز هنا خير مزاج الزبائن، مهما اشتدت السخرية والاستفزاز لا تتعجل ولا ترد وإلا سيتم طردك. تأكد أن الحياة ستعطي لك الفرصة المناسبة لرد الفعل، هؤلاء الحمقى أشبه بمحاربين على طاولاتهم، ولا بُدَّ أن تأتي لحظة للمحارب أن يهتز أو يفقد الثقة في نفسه حتى ينهزم، عندها سيكون الانتقام الأشد قسوة، عليه أن يرى هزيمته أو سخرية البعض منه في عينيك، هذه اللحظة لن ينساها أبدًا، وستبقى في ذاكرته للأبد، ثاني الأشياء التي لا بُدَّ أن تكون في شخصيتك هي المراوغة، أنت دائمًا في مواجهة المتقامرين، النصابين والاحتياليين، إن لم تكن على درجة قريبة من ذكائهم فحتمًا سيتم التضحية بك.

لا بُدَّ أن تكون واحدًا منهم، الفرق الوحيد بينك وبينهم أنك تملك زمام اللعبة، طرف محايد تتجانب مخاطرهم وتتركهم لصداماتهم مع بعضهم البعض. البقاء حيًا وسط الوحوش هو انتصار عظيم، آخر

الأشياء أن تكون في جعبتك ما يستحق إثارة فضول المحيطين بك، كالساحر لا بُدَّ أن يجذب الناظرين لحيله وإلا انصرفوا عنه، ومقابل ما تملك ستحصل على الكثير من الأشياء المهمة، ممتلكات، سلطة، نفوذ، مكانة مختلفة، لكن الأغلى من بين كل هذه الأشياء هي أسرارهم. الناس هناك على استعداد لدفع كل ثروتهم في مقابل سرٍ واحد عن حياة أعدائهم.

أنا وصال النجاتي.. أتمنى لك إقامة سعيدة.

في الكواليس انتابني بعض التوتر وأنا أراقب الزبائن والضيوف أصحاب المكانة العالية المرموقة في المجتمع العربي، بعد دقائق سأكون خادمًا لهم، على التحمل والصبر وإرضائهم بشتى الطرق، ولا أنسى أنني جئت إلى هنا لمعرفة قاتل كلارك الحقيقي. وصال هي البوابة الأولى للانخراط بينهم.

«لقد حان الوقت هيّا».

قالتها وصال بعدما أشارت إلى الطاولة التي سأديرها. جلست على الكرسي ثم بدأت في تنظيم الأوراق واللعب.

على الطاولة جلست فتاة وثلاثة شبان، لا يبدو عليهم الثراء الفاحش، لكن أحدهم ظهر مُتسلطًا وعدوانيًا، وقبل البدء تلفظ بكلمات لاستفزاز الخصوم، بالفعل نجحت خطته وفاز بالجولة الأولى، ثم الجولة الثانية. بدأ الحزن يسيطر على ملامح الفتاة، كانت تلعب وكأنها تقاتل من أجل حياتها، كنت على وشك المراوغة وتزييف الأوراق حتى تفوز في الجولة الأخيرة، لكن القرارت العشوائية في هذه المواقف قد تكلفني الكثير والكثير، لذلك التزمت

بإدارة اللعب النظيف، وبالفعل انتهت المعركة بفوز هذا الشاب المُتسلط بالثلاث جولات. ارتفعت المراهنات ففي هذه الطاولة يمكنك المراهنة بكل شيءٍ تملكه، كل شيءٍ حرفيًّا حتى لو كان..

وضعت الفتاة إحدى قطع ملابسها الداخلية.

نظرتُ إلى وصال التي أشارت إليّ بالاستمرار، صراحةً لم أتوقع أن تراهن هذه الفتاة على جسدها، صحيح أنها مخمورة وفي ملهى ليلي وبالطبع ملابسها لا تغطي إلا المناطق الصارخة في جسدها، لكن تشعر وكأنها في المكان الخاطئ. لا أريد أن أكون عاطفيًا، لذلك نفضت هذه الأفكار من رأسي، وبدأت في تنسيق الورق مرة أخرى حتى تبدأ معركة أخرى، بينما ارتفع حماس الرجال الثلاثة للفوز بهذه المعركة.

بدأت الجولة بينما رأسي مشغول فيما سيحدث حال هزيمة الفتاة. كانت المنافسة على أشدها، الفتاة قراراتها بطيئة وعشوائية، لم تكن مُستعدة لخوض هذا النزال من الأساس، الرجل المُتسلط في غاية التركيز، يلعب بكبرياء وقوة، انتهت الجولة الأولى والثانية وكالمتوقع فاز الرجل، الجولة الثالثة بدأتُ أتصبب عرقًا، بينما فاجأتني الفتاة بنظرات المساعدة والاحتياج، حال ملاحظة أحد الرجال لهذه النظرات حتمًا سيعترضون ويتم اتهامي بالانحياز لأحد الخصوم، وهذه التُهمة ضريبتها الطرد. لم تستمر الجولة طويلًا، فور إعلان فوز الرجل المُتسلط، أخذ قطعة الملابس الداخلية وهو يضحك ويقول: «انتظريني في الجراج». تنهدت الفتاة ثم تحركت وهي تواصل التحديق بي حتى اقتربت وقالت بصوت منكسر: «شكرًا لك».

«أنا آسف، لم أستطع مساعدتك».

اعتذار دفنته في صدري عسى يظهر على عينيّ، لكنها لم ولن تسمعه، ولن تميزه بملامحي المتجمدة الثابتة.

هذه كانت إدارتي الأولى والأخيرة في هذا اليوم، معركة واحدة فقط قررت وصال أن تعطيني إدارتها حتى أعتاد على الأجواء، في الكواليس حيث ترى الزبائن ولا ترى، ظلت كلمات ونظرات الفتاة المنكسرة تلاحقني، شعور غريب بجلد الذات، كان يمكنني مساعدتها على الأقل في المعركة الأخيرة، لقد كانت نظرتها لي تطلب هذه المساعدة، أشعلت سيجارتي وبدأت في جلد ذاتي، جلد ذاتي لأنني رفضت مساعدة عاهرة! لا أعرف كيف حدث هذا؟ لكنه يحدث الآن.

قاطعت تفكيري وصال التي أعجبتَ بطريقتي في إدارة اللعبة، وظلت تتحدث عن صعوبة العمل هنا لأنه يتطلب جهدًا نفسيًّا وعصبيًّا وتحكمًا كاملًا في العواطف والمشاعر.

«السيطرة على الناس لا تحتاج إلا لشخص يجيد السيطرة على مشاعره وانفعالاته، فما دمت تجيد سيطرتكَ على نفسك سيصبح السيطرة والتحكم في غيرك أمرًا في غاية السهولة».

الانطباع الأول عن وصال إنها ليست فتاة سيئة طائشة، بل أراها في غاية الهدوء والاتزان المصحوب بالثقة في النفس، تشعر من طريقتها أنها تدير هذا المكان، تعرف كل شيءٍ عنه وعن الزبائن وعن عائلتهم. هذا النوع الذي لا يعتلي مناصب القيادة لكنه كذلك بفطرته وطبيعته، كذلك لا أراها تتحدث بعشوائية، على العكس تتحدث دائمًا بالحكمة والمنطق، لذلك لا أفهم لماذا لم تحب

وجود سراج بجوارها، فهو يشبهها كثيرًا ويتحدث مثلها تمامًا. لم أجد الإجابة بين كلماتها ونصائحها التي لا تتوقف. هل يقودنا المنطق أحيانًا للقتل؟ سؤال آخر عالق في ذهني ينضم لقائمة الأسئلة التي تنتظر لقاءً مُختلفًا مع وصال بعيدًا عن ضجيج الكازينو وأساليبه وقوانينه التي تمنعنا من الوقوف معًا. خطرت على بالي فكرة قد تبدو مجنونة، لكن أحتاج للشجاعة حتى أخطو الخطوة الأولى.

استعددت للرحيل، ثم مددت يدي لها لأودعها وأنا أضع في كفيها مفتاح المنزل: «تعرفين العنوان، من الآن أصبحتِ شريكتي في السكن».

ابتسمت وهي تقول: «لو كنت رجلًا آخر لحطمت رأسك».

ابتسمت لها ثم عُدت للمنزل وأنا أدون ما حدث.. ارتميت على سريري وأنا أقول: «لقد تعبت، أحتاج لاستراحة».

4

نابولي/ قصر ديفيد شاهين.

«لقد انتهى يومه الأول».

رد ديفيد شاهين وهو يغلق شاشة العرض.

«وغدًا سيبدأ يومنا نحن، الآن اذهب للنوم، ففي الصباح تنتظرنا حفلة مهمة، لا تنسَ ارتداء الملابس الرسمية».

اتجهت للنوم دون أن أعقب على كلمات ديفيد، كنت مُرهقًا من سيل الأفكار والحنين الذي راودني حين عُدت للمنزل الذي شهد على أجمل وأصعب أيام حياتي. محظوظون أولئك الذين ما إن يضعوا رؤوسهم على وسادتهم يغلبهم النوم، أما عني فأنا لا أنام إلا بعد أن يحطم الصداع رأسي، بعد أن ينتهكني التفكير والحنين، ولحظات طويلة وقاسية جدًّا من اللوم وجلد الذات حتى على أشياء لم أقترفها.

في صباح اليوم التالي أيقظتني ماري، هذه العجوز اللطيفة التي أحببتها فور أن رأيتها، صدقًا لا أعرف سر هذا الشعور، لربما تذكرني طريقتها بيوستانيا، الهدوء والوقار والابتسامة، حتى الملامح الهادئة البسيطة.

«أخبرني ديفيد أنكِ إحدى أصدقائه القدامى، فرق العمر واضح وهذا عامل يتنافى تمامًا مع شخصية ديفيد، لكن بالتأكيد ثمة شيءٍ يربطكما للحد الذي يجعله يضعك في هذه المكانة المرموقة، أحب هذه العلاقات الغامضة، وأثق في اختيارات ديفيد».

- لذلك أنا هنا، حال احتجت لوجودي ستجدني دائمًا في انتظارك.

ابتسمت لها وهنأت نفسي لأن نظرتي لم تخِب حين قلت أنها تشبه يوستانيا.

لم أرد عليها ونهضت لأرتدي ملابسي الرسمية كما طلب مني ديفيد، وأكدت على طلبه ماري.

خرجت من الغرفة إلى صالة الاجتماعات.. كان مروان يجلس وحيدًا على غير عادته. لم أسأله عن سبب تواجده وحده، لكنه بادر بالإجابة عن السؤال الذي دار في رأسي: «لقد دعاني ديفيد للمجيء وحدي، هل تعرف السبب؟».

هززت رأسي مشيرًا لعدم معرفتي بهذا اللقاء.

بعد دقائق دخل ديفيد شاهين الغرفة ومعه يمنى، ثم بدأ موجهًا كلماته للضابط المفصول مروان: «اليوم أنا مدعو لحفلة خيرية في مدرسة من أكبر مدارس نابولي».

كالعادة يظهر مروان بتعليقاته: «سنقتل أطفالًا؟! هذا عمل إجرامي جديد يا بروف».

لم يبالِ ديفيد وواصل: «وجودك بجواري يمثل القوة الضاربة، سواء كنا أردنا الهجوم أو الدفاع، أنت قوي وسريع البديهة وخبرتك العسكرية كفيلة أن تكون خير درع لي أحتمي به وأهاجم به».

ابتسم مروان بتعالٍ؛ هذه الكلمات التي يريدها.

ـ سيحضر في هذه الحفلة كبار رجال الأعمال، التأمين قوي حتى يمر اليوم بسلام.

ردت يمنى: «تحتاج منا أن يؤمنك مروان في الحفل؟».

قال ديفيد موجهًا إجابته لمروان: «لا، أحتاج أن تؤمن جورج وعائلته، أحتاج أن تحافظوا عليه وعلى عائلته دون أن يشعر بوجودك».

ـ جورج! لا أفهم كيف تؤمن رجلًا قد يكون هو سبب افتعال حرب في هذه الحفلة، قد يكون حضوره من أجل الانتقام منك أنت شخصيًا، لا أفهم سر هذا التأمين.

أشعل ديفيد غليونه وظل صامتًا لثوانٍ.. ثم رد على سؤال يمنى: «صحيح أن واحدًا من أهم أسباب حضور جورج هو إثارة الفوضى ولا أستبعد الترصد وانتظار الفرصة المناسبة للفتك بي، لكن جورج يملك ما يمنعنا من إثارة فوضى وحرب في وجود عائلته، لذلك هو يثق أننا لن نفتعل أزمة، على العكس سنحاول بشتى الطرق تأمينه، وسنقوم بهذا على أكمل وجه».

ـ وما الذي يملكه جورج ليثق كل هذه الثقة بأننا لن نقوم بإثارة فوضى؟

في هدوءٍ وحزم كان يحتاجهما ديفيد ليوقف سلسلة مناقشات لا جدوى منها قال: «لقد تخطيتِ حد المعلومات المسموح لكِ بمعرفتها، الآن عليكِ التوجه إلى برلين ومراقبة تفاصيل قضية كلارك، أما عن مروان فأنت خير من يقوم بهذه العملية التأمينية، لا أجزم أن الحفل قد يتعرض للاستهداف لكن الاحتياط واجب، الآن علينا التحرك».

ركبت في المقعد الأمامي بجوار السائق، بينما جلس مروان بجوار ديفيد، أثناء الطريق قدم ديفيد مُسدسًا صغيرًا لمروان وهو يقول: «لا تنفعل، وحتى إن بدأت الفوضى لا ترد بإطلاق النيران، فقط اسعَ لخروج جورج وعائلته بسلام، ثم اختفِ عن الأنظار».

لم يرد مروان. ساد الصمت طوال الطريق، وهنا أدركت أن دوري قد انتهى، وأن ما يمر به الرجلان الآن هو حديث نفسي خالص.

5

«ديفيد شاهين»:

لورين..

ها نحن هنا الآن، في المدرسة التي لطالما أردنا أن يلتحق أولادنا بها، في نفس الأجواء الاحتفالية، المكانة الاجتماعية، والاحترام والهيبة، كل الأحلام التي حلمنا بها ها هي تتحقق أمامنا، لكننا لا نستطيع أن نلمسها أو حتى نبتسم لها، لأن كل منا على ضفة بعيدة جدًا عن الآخر، يمنعنا من تجاوزها الظروف، النصيب، الواقع، وشعور الكسرة حين تزوجتِ جورج الذي لم يكتف بتحطيم قلبي حين عقد صفقته الملعونة مع والدك ليتزوجك، بل رغبته في إراقة الدماء، ولذة الانتقام قادته أيضًا لرفض أن أعيش بما تبقى مني، فقتل زوجتي بعدما اغتصبها رجاله، وليبقى يرى الحرمان في عينيّ سرق مني ابني الوحيد. لقد فاز بالفتاة التي أحببتها، قتل الفتاة التي تزوجتها، وسرق ابني، وبدلًا من الانتقام منه، الآن أنا أضع أحد رجالي ليحمي ويحافظ عليه وعليكِ وعلى ابني، لا أعرف بماذا تشعرين حين تفكرين فيما حدث، لا أعرف كيف تتعاملين معه وكيف هي مشاعرك تجاه ابني. هل تحبينه، تعاملينه بود، ولطف، وكأنه ابنك؟ هذا صدقًا ما أتمناه، لأنني لا أتخيل أن تكوني أمًا قاسية يا لورين، لستِ لأنك امرأة طيبة أو حنونة، ليس لأن الرقة

واللين أهم صفاتك أو لأن أبسط كلماتك كفيلة أن تطيب سنوات وسنوات من الجرح، وبعناق واحد تطرد كل الأيام التي شعرت فيها بالغربة والوحدة ليعود الأمان والونس لقلبي.

لا أتخيل أن تكوني أمًا قاسية أبدًا يا لورين، لكن ليس لأنك امرأة حنونة وجميلة، بل لأن كل القسوة والجفاء اللذين كنت تملكينهما نفدا واستهلكا حين قسوت عليّ وقررتِ الرحيل عني، لأنكِ مارستِ معي القسوة بكل أشكالها، قسوة الانتظار، الرحيل، الردود الجافة الباردة، وحين وافقتِ على الزواج من رجل غيري، صحيح أنني غرقت بكل التفاصيل الجميلة، لكنني سُلختُ بكل ما تملكينه من قسوة. لا أتخيل أن تكوني أمًا قاسية يا لورين، حتى وإن حاولتِ لن تنجحي، فلقد استهلكتِ كل القسوة والقوة والجفاء في معاملتك لي بعد فراقنا.

«رجال مافيا فاسدون يجتمعون لتقديم مساعدات لمدارس وجمعيات خيرية.. هذا الحدث يذكرني بالسارق الذي وضع لوحة أمام شركته مكتوب عليها (هذا من فضل ربي)».

أيقظتني سخرية سراج من شرودي وتفكيري في أمر لورين، فأجبته: «أتفق معك، أغلب هؤلاء يبعدون أنظار مفتشي الضرائب والأموال العامة عن أعمالهم، يقدمون مثل هذه الهدايا للجمعيات الخيرية وأضعافها رشاوي وعمولات، يريدون أن يظهروا للعامة طهارة مكاسبهم وأموالهم الطائلة حتى لا تقوم الثورات عليهم، في الوقت نفسه تقوم الأنظمة الفاسدة بحماية هذه اللعبة ودعمها، وما دام الشعب يبتلع هذا الطُعم فلا مانع من تكراره، حتى يشعرون بالخطر فيبتكرون طُعمًا وحيلة جديدة».

رد سراج: «وأنت تشارك في هذه المسرحية المبتذلة».

قلت: «صحيح أنا أشارك في هذه المسرحية، لكنني لا أتبرأ منها، ربما هذا تحديدًا ما نفتقده، أن يكون الشخص مُخلصًا للأشياء التي يقوم بها مهما كانت سيئة، لذلك أنا أختلف عنهم لأنني صاحب مبدأ، لأنني وفي لما أقوم به».

- رجل عصابات وصاحب مبدأ؟

- نعم، هذا صحيح.. لنتحدث بصراحة، صحيح أن العمل الذي أقوم به يصنف كعمل إجرامي، لكن هناك ما هو أشد خطورة من حرب العصابات والمافيا، أقصى ما يمكن أن يقوم به مجرم بلا ضمير هو القتل، ربما تجارة المخدرات، السلاح، كلها أشياء تضر بالمجتمع وقد تتسبب في قتل مئات الأبرياء، لكن تخيل رجل دين بلا ضمير، سيخدع الجميع بأن الله يقف معه، سيضرب ثوابت العدل والرحمة، ويصنع ثوابت جديدة تتماشى مع أفكاره وتسيطر على الناس لتحقيق أهدافه، ربما سيصنع خرافات يتوارثها الأجيال، بل منهم من سيزرع أفكارًا متطرفة تخلق جيلًا كاملًا من الإرهابيين والمتطرفين سواء كان مُسلمًا أو مسيحيًا أو يهوديًا.

تخيل أن يكون إعلاميًا بلا ضمير، كم الإنجازات التي لا وجود لها سيتحدث عنها من أجل تابعيته للنظام، أو تدليس للحقيقة من أجل تحقيق أجندته الخاصة، كم المعلومات الكاذبة التي سيعلنها من أجل مصالحه الشخصية أو من يقوده. تخيل مؤرخًا بلا ضمير، كم حدث سيتم تزويره، كم شخص سيتم تشويهه من أجل إرضاء

شخص أو نظام تابع له، ثورات سيتم تشويهها ونكرانها، أفكار وحقائق، كل هؤلاء يتبعهم ملايين الملايين. تخيل كم حرب أهلية ـ لأسباب أيدلوجية أو دينية أو سياسية ـ ستقوم لأن أحدهم لا يملك ضميرًا حيًّا فيما يقوم به. تخيل أن حروبًا اشتعلت وأبرياءً قتلوا وغيرهم تشردوا، لأن شخصًا ما بلا ضمير كان من صناع القرار. الفكرة أشد خطورة من الرصاصة، ربما لو كان لكل شخص يملك مبدأ وضميرًا فيما يصنع لصلح جزء كبير من العالم، لكن العالم بلا ضمير، بلا مبدأ.

لم يجد سراج كلمات جديدة يواصل بها قدرته على المناقشة، وهذا من حسن حظي، فلقد ظهر جورج رفقة لورين وابنهما وابني. كعادتها لورين تبدو في غاية الأنوثة والجمال، فاتنة كفيلة أن تجذب كل الأنظار حولها رغم بساطتها وهدوئها، أيهما ابني لا أعرف، الطفلان متشابهان بشكلٍ كبير، لا يمكنني تحديد أحدهما، ما يطمئن قلبي أنني لا أجد في لورين تفرقة في معاملتهما، ربما لو كانت تفرق بينهما لميزت ابني عن ابنهما. جورج كان متحفزًا كعادته، يتابع الحضور بنظرات عدائية، ثم وما إن التقت نظراتنا حتى اقترب أكثر من لورين وداعب بيديه رأس الطفلين. هو يتلذذ بهذه الحركات الاستفزازية، يتلذذ حين يراني في هذا الموقف ولا أملك أي حيلة لرد الفعل. من بعيد كان مروان يرتدي ملابس رسمية ويتأخر عنهم بخطوة، هذا تمامًا ما أردته.

سألني سراج: «ماذا سيحدث الآن؟».

ـ سيبدأ المتبرعون بإلقاء كلماتهم.

بالفعل في هذه اللحظة صعد للمنصة أحد المتبرعين، فقلت لسراج: «هذا الرجل سيتحدث عن الاشتراكية والتكافل الاجتماعي. أنصت له جيدًا».

وقف الرجل ذو الشارب العريض، الملامح القمحية والشعر المجعد والصوت القوي ثم قال: «الأطفال جزء أصيل من المجتمع، هم الأساس وعليهم تُبنى الأمم، لن تنهض إيطاليا إلا بعرق هؤلاء الصغار، بتأسيسهم وبث الانتماء في قلوبهم من نشأتهم. مجانية التعليم أهم خطوة للنهوض بهذه الأمة، التعليم الحرفي هو ما سيساعدنا على النهوض، فما فائدة الطبيب إن لم يكن هناك مُزارع حرفي يوفر له الطعام؟ وما فائدة العالم إن لم يجد عاملًا يصنع له الآلات والمعدات؟ لا بُدَّ أن يتعلم هؤلاء الصغار الصناعة والحرفة، ثم التجنيد والدفاع عن كل ذرة تراب في هذه الدولة، ولا مانع أن ندافع عن الدول المجاورة، في النهاية نحن أبناء ساحل واحد، وقارة واحدة. لا بُدَّ أن تنغلق هذه المجتمعات على نفسها حتى ينهضوا، العمل طوال الوقت هو الحل الوحيد للرقي بهذه الأمة، لذلك أقدم لهذه المدرسة وهذا الصرح العظيم شيكًا خاصًا للبدء في إنشاء مدارس عُمالية صناعية، تساعد الأطفال على تعلم الصناعات المختلفة. أولادي الأعزاء أنتم الأمل، أنتم المستقبل».

صفق الحضور لهذا الخطاب الجميل، نوعية هذه الخطابات تثير الشعوب ويحبها الناس، حتى سراج نفسه بات متحمسًا لهذا الرجل فقال: «يبدو رجلًا شريفًا».

أجبت: «صحيح يبدو شريفًا، لكن هذا الرجل لن ينجح في إدارته، لأنه ببساطة يريد أن يجعل إيطاليا معزولة عن العالم، يكسب البعض بشعارات جميلة، لكنه متشكك لا يثق إلا في رجاله، هذا سيضعه في مأزق أيضًا، ثم إنه أشبه بكبير عُمال لا يملك الحنكة والخبرة الإدارية لتسيير الأمور، لذلك لا أستبعد أن يكون السجن هو ضريبة كل من يعارضه في الرأي، عدم خبرته ستجعله وحشًا مفترسًا يأكل كل من يشكك في قيادته. لا تظن أنه متسامح مع نفسه، لكن لو هو كذلك لاعترف أنه لا يصلح ليكون رجلًا إداريًا، لا مانع أن يكون قائدًا للجماهير، لكن يتوقف دوره عند هذا الحد».

لم يرد سراج الذي كان يتأمل صعود الرجل الثاني، صاحب الشارب المتوسط والأنف الكبير والصوت الذي يغلب عليه التدقيق والتوكيد بين الكلمة والأخرى. وقف الرجل بشموخ ثم قال: «أولادي الطلاب، بالعلم ترتقي الأمم، لكن المال ما سيساعد العلم على الرقي، ولنكون أحد الدول المتقدمة علينا الانفتاح، أن نعطي الحرية لكل صاحب مال أن يستثمر في دولتنا كيفما يشاء، بل علينا مساعدته وتوفير كل الإمكانيات له، حتى تعم الفائدة على البلاد جميعًا. لقد انتهى عصر الحروب والنزاعات ولم يعد العداء بيننا وبين الجيران كالسابق، الآن نحن في زمن التطور، لذلك علينا الاندماج واستقبال كل ما هو جديد، وإرسال الطلاب لبعثات خارجية تفيدهم وتفيد بلدتنا. لننسى الخرافات والعادات التي تسببت في تأخر هذه البلدة، لننسى العقائد والشرائع التي تعيقنا وتمنعنا من التطور، نريد أن يكون العلم والمال سلاحنا حتى نرتقي، من لم يجني المال ولم يتشبع بالعلم في هذه الأيام لن يجني ولن

يتعلم أبدًا، لذلك أتبرع لأوائل العام الدراسي ببعثات كاملة لمدة ٥ سنوات إلى لندن وباريس وألمانيا».

الخطاب المفضل للأثرياء ولأغلب الحاضرين، لذلك كان من البديهي أن تهتز القاعة بالتصفيق لهذا الرجل.

بتعجب هز رأسه سراج: «يبدو مُحقًا».

أجبت: «نعم هو كذلك، يميل أكثر للرأسمالية، لكن لهذه الخطوة مخاطرها، فثمة فاسدين لن تمتلئ قلوبهم إلا بطعام وشقاء الفقراء، بعض المكاسب تبدو من بعيد جميلة، لكن حال الاقتراب منها تكتشف أن ضريبتها أكبر من فائدتها. إن لم تتحلَ هذه الفكرة بالعدل والاتزان سيُصنع مجتمع طبقي جديد ما بين أثرياء يملكون كل شيء ومعدومي الدخل لا يملكون أي شيء. هذا الرجل رغم أن كلماته مُشجعة إلا أنه لو يملك القليل من التسامح مع النفس لاعترف بمخاطر هذه الخطوة وتحدث عنها بكل مصداقية، لن يقول أن المضحي الأكبر في هذه الخطوة هو العامل الفقير، لن يعترف بالحقيقة كاملة».

صعد الرجل الثالث.. من مظهره الخارجي يبدو عليه الالتزام الديني، بدأ كلماته سريعًا: «أبنائي الطلاب، في مثل أعماركم رُفع أبطال، وأبطال الصليب في كل مكان، خضنا معارك وأسسنا دولًا، وكنا ولا زلنا القوى الأعظم في العالم، لن تصلح الأمم إلا بالدين، نحن محظوظون بوجود الفاتيكان في بلدتنا، لكننا تعساء لأننا لم نستفد منه بالطريقة الصحيحة، اعتبرناه مزارًا سياحيًا، وانخرطنا في عالم الانفتاح، ونسينا قضيتنا وتعاليم المسيح، لذلك أتبرع ببناء أكبر كنيسة ومدرسة خاصة بتعليم الدين المسيحي».

هز سراج رأسه وهو يقول: «التقرب إلى الله، جميل».

رددت: «صحيح هذا جميل، لكنه في غاية الخطورة أن يحول لسياسة، إن لم تكن معنا فأنت ضدنا، هنا ستبدأ حربًا أهلية ما بين المؤمنين وغير المؤمنين. كلمات هذا الرجل تعتبر الأقرب لطبيعة الشعوب المتدينة، لكنها بعيدة كل البعد عن الواقع، حين تتحدث باسم الله تحتاج أن تكون في غاية الصدق والأمانة مع نفسك، تبعد المصالح والألاعيب والمغريات السياسية عن ذهنك، لأنك تدخل في صراع مع سياسيين، والساسة يا سراج يبيحون كل شيء في سبيل مصالحهم الخاصة، وهذا ما سيتنافى مع مبادئ وتعاليم المسيح. لو كان هذا الرجل صادقًا لحدثنا عن رأيه فيمن يخالفه الرأي، سواء الفكري أو الديني، سيحدثنا عن تقبله ورأيه فيما يقتلون الأبرياء باسم الله، كل هذه القضايا لن يتطرق لها لأنه سينكشف».

صعد الرجل الأخير إلى المنصة، وبدأ كلمته، حتى بدأ سيل من الرصاص في كل مكان، ضرب موجه تحديدًا ناحية.. لورين! جورج! ابني! عمت الفوضى في كل مكان، في هذه اللحظة الهروب هو الحل، أرغمني سراج على الهروب من الباب الخلفي، وأنا أسمع صوت الصراخ في كل مكان. ركبت السيارة وانطلق السائق بسرعة جنونية، بينما فقدت التواصل مع مروان في هذه اللحظة. جاءتني رسالة على الهاتف: «لقد فقد الشيطان ابنه الوحيد، الآن النتيجة تعادل».

6

القاهرة: «جريمة قتل»

مر أسبوع بالتمام والكمال على وظيفتي الجديدة، بدأت تدريجيًا في معرفة بعض خبايا الكازينو، اقتربت أكثر من وصال النجاتي للحد الذي يمكنني أن أقول بأننا أصبحنا صديقين، لكن لا تزال بعض المخاوف تعيق لقائها بي على انفراد، تقول دائمًا إن لقاءً واحدًا يجمعنا كفيل أن يطمئنها، لكن الوقت المناسب لم يأتِ بعد. الشيء الغريب إنني لم أرَ الفتاة الخجولة منذ آخر لقاء جمعني بها على طاولة القمار، راودني شعور القلق، لكنني لا أعرف حتى اسمها لأسأل عليها وصال. أعترف أن أمر هذه الفتاة شغلني كثيرًا، لكن وقبل أن أغرق في التساؤلات أذكر نفسي إنني في مهمة والوقت يداهمني، بعيدًا عن هذا خلال الأسبوع بدأ الحنين يراودني من جديد تجاه رقية، لقد تزوجت وعلمت أنها قد أنجبت فتاة جميلة.

بعد مرور فترة من الفراق واختفاء المشاعر الدرامية تدرك حقيقة العلاقة، وربما تعلم أن الفراق كان القرار الأنسب والأسلم، والآن يمكنني الاعتراف بأن نهاية علاقتنا كانت منطقية على الأقل

بالنسبة لي، رقَية لا تستحق أن تعاني مرة أخرى، يكفيها معاناتها الطويلة مع الفقر والجوع والذل، هذا ما لم تفهمه في البداية، لكن ورغم أنها أدركت فيما بعد واتفقت مع أن زواجنا سيكون سببًا في وجود جيل بائس آخر، إلا أنني تألمت أيضًا من رحيلها. ربما في هذه اللحظة انتفض قلبي وأعلن تمرده على عقلي، كل المحاولات التي قامت بها بمشاعرها لم تجد مني إلا سدودًا وحواجزَ منطقية حتى ظنت أنني بلا قلب، وكلها انهارت وتحولت إلى رماد حين وافقتني الرأي وقررت الرحيل عني.

هذا ليس الوقت المناسب لمثل هذه الأحاديث التي لا تسمن ولا تغني من جوع، لذلك اتجهت إلى الكازينو لأنجز المهمة التي أتيت من أجلها، أنا مثلي مثل كل شباب بلدتنا، أواصل حياتي وأنجز مهامي اليومية رغمًا عن كل ما أعاني منه، فقد أقضي ظلامي وأنا أسقط على الأرض من فرط الآلام والحزن، أتمنى لو تنتهي الحياة فلا شمس جديدة ولا يوم آخر في حياتي، لكن وما إن تبدأ الشمس في مداعبة السماء حتى تستعد لبدء يوم آخر رغمًا عن كل ما فيك من تعب وآلآم ومأساة. الأشد قسوة من ممارسة يومك بعد ليلة حزينة، هو ممارسة يومك وأنت تعاني، أن تصاحبك آلآم الظلام في تفاصيل يومك، فتشعر بثقل الساعات وكأن عقاربها تلدغ قلبك، صداع في رأسك يقودك لتضرب رأسك في الحائط، الآلام في روحك حتى أنك تتنفس بصعوبة، فقدان القدرة على التركيز، فقدان الشغف والطاقة، لكنك تواصل مهام يومك، الرغبة في العودة إلى سريرك والانعزال عن العالم لكنك تستمر في لقائك بالناس، تبتسم لهم وتتحدث معهم وكأنك على ما يرام، أن يبكي كل ما فيك إلا عينيك، هذا بالضبط ما أقصده.

وصلت الكازينو وهناك كانت الأقاويل عن جريمة قتلٍ حدثت لأحد الزبائن قبل أسبوع. لم أشغل رأسي كثيرًا، يكفي جدًّا كل الأحداث التي تدور في ذهني. اتجهت إلى غرفتي وبدأت في ارتداء ملابس العمل الرسمية حتى جاءت وصال.

- هل سمعت بجريمة القتل التي حدثت لأحد زبائننا؟

رددت وأنا لا أكترث للأمر: «لا».

وهي تداعب خصلات شعرها بأنوثة لا أفهمها قالت: «في أول يوم عمل لك كنت تدير طاولة عليها فتاة وثلاثة رجال، هل تتذكرهم؟».

تظاهرت بأن الأمر لا يشغلني لأحصل على المزيد من التفاصيل.. فواصلت: «أحد هؤلاء الرجال خرج من الكازينو مبكرًا».

- الرجل المُتسلط!

ردت: «إذن تتذكرهم! حسنًا هذا الرجل قد وجدوا جثته متعفنة في منزله، والطب الشرعي يقول إن هذا الرجل قد قتل قبل أسبوع بحد أقصى، وحتى الآن لم يتعرفوا على هوية القاتل».

صعقت مما سمعت. الفتاة الخجولة يبدو أنها انتقمت لنفسها، لا لا، لا يبدو عليها الجرأة الكافية لتقتل، تبدو أضعف بكثير من هذه الخطوة، قد تكتفي بالبصق عليه أو لكمه، لكن قتله! لا يمكنني تصديق هذا.

قالت وصال التي ومن حسن حظي أنها لم تسمع الكلمات التي دارت في ذهني: «لكن القاتل غبي، ثمة طرق أفضل وأضمن من هذه الطريقة ويصعب على المحققين العثور على هوية القاتل».

وأنا أستعد للخروج والبدء في العمل، ودون أن أكترث لكلمات وصال قلت: «لقد تأخرت كثيرًا، نلتقي بعد نهاية العمل».

خرجت إلى الصالة بعد أن أعطاني المدير رقم الطاولة التي سأديرها هذا المساء، اللعنة إنها نفس الطاولة التي شهدت على الأحداث بين الفتاة الخجولة والرجل المُتسلط! ترددت لثوانٍ حتى ناداني مدير الصالة: «هيًا يا ياسين طاولة ٨٧ في انتظارك».

اتجهت إلى هناك وفوجئت بوجود الفتاة نفسها، كانت تجلس في مقعد الرجل المُتسلط، ظلت تنظر لي نظرات طويلة، بينما فرض عليّ تبادل هذه النظرات مع الزبائن، لذلك واصلت تجاهلي لها رغمًا عن رغبتي في بدء حديث معها. بدأت اللعبة، كانت الفتاة الخجولة متحمسة جدًا، لكن سرعان ما انقلبت الآية حين ظهر أحد الرجال الخلايجة، يبدو زبونًا قديمًا هنا، فقد كان يعرف ماذا يستهدف بالضبط. كما توقعت يضع أموالًا طائلة دون انتظار النتيجة، هو يفوز وقتما يريد فقط. واصل الرجل اللعب بكل شراسة وثقة حتى انسحب الجميع عدا الفتاة، التي قررت وضع إحدى قطع ملابسها الداخلية على الطاولة، جريمة قتل جديدة، حتمًا هذه آخر مرة سأرى فيها هذا الرجل. تصببت عرقًا، ثم راودتني فكرة التلاعب بالأوراق لأمنع جريمة قتل وأنقذ حياة الرجل والفتاة، الرجل لديه خبرة بما يكفي ليعرف هذه الخدع، وحال الكشف عن هذا سيتم طردي من المكان، مر الوقت بسرعة جنونية وها نحن أمام اللعبة الأخيرة، تباطأت حركة يدي واهتزت، لكن ولحسن الحظ لم تلحظ الفتاة والرجل الخليجي هذه الرعشة.

الوقت يمر..

حسنًا سأتلاعب بالأوراق وليحدث ما يحدث.
لا يمكنك القيام بهذا ستفسد كل شيء.
التفكير والتردد.
Check
لقد فاز الرجل الخليجي.
أشار لها ناحية باب الخروج وهو يقول في مربع x ٦٥ فاتجهت مباشرة إلى الخارج.
دون أن أفكر كثيرًا قلت: «وصال من فضلك، أشعر بالدوار».
قالت: «لا يمكنك ترك الطاولة».
- أرجوك يا وصال لا أستطيع الوقوف على قدمي.
تنهدت ثم قالت: «لا تتأخر».
من الكواليس اتجهت إلى الجراج المُظلم، حتى وجدت مربع x٦٥، كانت هناك تقف أمام السيارة، ما إن رأتني حتى قالت: «لا تحاول التلاعب بالأوراق مرة أخرى، الآن اغرب عن وجهي».
- لا أريد مزيدًا من الدماء.
- هذا لا يعنيك، ارحل الآن فإن رآك أحد سيتم طردك كالكلاب.
ظهر الرجل الخليجي من بعيد، في لمح البصر وبين السيارات عُدت للكواليس وأنا حقًا أشعر بالدوار وغصة في قلبي تُأكد تمزقه. مر اليوم وأنا أتخيل ما يحدث بين الرجل الخليجي والفتاة، في ظهر اليوم التالي استيقظت على صوت الهاتف.
- صباح الخير.
- صباح النور يا وصال.

ـ ياسين تعال فورًا إلى الكازينو.

ـ ما الأمر؟

ردت: «ستعرف كل شيء حين تصل».

وصلت بالفعل إلى الكازينو، وهناك فوجئت بوجود المدير رفقة رجل يرتدي بذلة، له هيبة ووقار.

قال الرجل بلطف: «نعتذر عن مجيئكم مبكرًا، ليلة أمس تم العثور على جثة رجل خليجي مطعون بالسكين وملقى على الطريق، الغريب أن السيارة ومحتوياتها حتى الأموال الخاصة بالرجل لم تسرق».

احمر وجهي، فاقترب مني الرجل وظل ينظر لعيني نظرات رجال التحقيقات المعتادة: «حسب معلوماتنا فهذا الرجل ضيف دائم عندكم، نريد أن نسألكم عنه».

نفى كل العمال معرفتهم بهذا الرجل بما فيهم أنا.

ظل الرجل يتابعني بنظراته حتى انتهى التحقيق، وعاد كل منا إلى غرفته، كنت في غاية التوتر، لاحظت وصال التي تبعتني إلى الغرفة، صببت لنفسي كأس نبيذ وحاولت تمالك أعصابي

ـ هل تعرف شيئًا عن الحادث؟

ـ لا، بالطبع لا.

ردت وصال وهي تربت على كتفي: «يمكنني مساعدتك يا ياسين».

ـ مساعدتي؟

تذكرت كلمات مروان حين قال إنني أضعف من الاقتراب من فتاة عادية، فما بالك بفتاة لها خبرة طويلة مع الحياة، بدلًا من معرفة أسرارها ها هي تعرض عليّ مساعدتها وحكي أسراري، اللعنة!

لم أرد عليها فسألتني: «حسنًا أين ستذهب الآن؟».

كنت مُتعبًا جدًا، فقلت لها سأعود إلى المنزل، فاليوم يوم راحتي. ما إن خرجت من باب الكازينو حتى وقفت سيارة أمامي.

ـ بسرعة.

تلصمت في مكاني.. فشدتني ناحية الباب: «قلت لك بسرعة يا أحمق».

انطلقت السيارة بسرعة جنونية.

لا أفهم ما سيحدث بالضبط، الفتاة الخجولة تنطلق بين شوارع القاهرة حتى وصلنا إلى حي المقطم، وقفت أمام أحد المنازل الفخمة هناك، ونزلت من السيارة: «اتبعني».

الفتاة الهادئة صاحبة الصوت الرقيق تخلع معطفها وتلقي به في وجه عامل السفرة الذي كان يجر طاولة صغيرة عليها زجاجات النبيذ والثلج، فتيات يرقصن ويضحكن بصوتٍ أنثويٍّ عالٍ، ورجال يجلسون بثقة يتفحصون أجساد الفتيات بأيديهم قبل أعينهم، امرأة من بعيدة تجلس وتتابع ما يحدث.

أشارت المرأة التي يبدو أنها صاحبة هذا المنزل للفتاة الخجولة، ونحن نقترب منها قالت بصوت هادئ لا يسمعه أحد سواي: «قل أنك لن تتزوجني إلا بعد قضاء ليلة معي».

اقتربنا من المرأة فقالت بلكنة شعبية: «(يا ما جاب الغراب لأمه يا عليا!)».

ردت الفتاة التي لم تعد خجولة، بل أصبحت عليا الجريئة: «أنا مُتعبة ومزاجي مُتعكر، ماذا تريدين مني؟».

ضحكت المرأة: «(سلامة مزاجك يا عينيا!، يا اللي قاعدين يكفيكم شر الجايين)».

من قدميَّ لرأسي، ومن رأسي لقدميَّ نظرت إليَّ المرأة، ثم سألت عليا: «من هذا الرجل؟».

قالت عليا: «يريد الزواج مني، لكن هناك شرطًا واحدًا».

نظرت عليا إليَّ ففهمت أنه حان دوري، فقلت: «لن أكتب عليها إلا بعد قضاء ليلة واحدة معها».

تفاجأت المرأة من كلماتي، ثم قالت لعليا بنبرة لوم: «(اللي اختشوا ماتوا!) زنا يا عليا! تطلبين مني الموافقة على الزنا؟! (يا عيب الشوم)، يا عليا نحن نستيقظ كل يوم ونقول: (يا حيطة داريني)، وأنتِ تطلبين مني الموافقة على الزنا والفجور».

نظرت حولي، النساء العاريات اللائي يرقصن، زجاجات الويسكي والنبيذ، القبلات الحارة، الرجال الذين يتبادلون ويتفحصون النساء، وأنا لا أفهم شيئًا.

الأكثر غرابة هو جدية الحديث بينهما الذي استمرت فيه عليا: «لا تقلقي، لن أسمح له بالمعاشرة الكاملة».

ردت السيدة: «وإن حدث، تعرفين عقوبة الزنا جيدًا».

سحبتني عليا من يدي ودخلنا إحدى الغرف: «تصرف بطبيعتك، وكأننا متزوجان».

ظللت في مكاني فقالت عليا التي كانت بدأت في خلع ملابسها: «هذه المرة الأولى التي تجتمع فيها مع أنثى في غرفة مغلقة! لا يهم،

لا تقلق لن يحدث بيننا شيء، فقط تعالَ وداعبني حتى لا تشك في أمرنا، هي تراقبنا الآن».

اقتربت مني، ثم بدأت بخلع قميصي بدلال، كانت رائحتها جميلة ومثيرة، هي لم تكذب، هذه المرة الأولى التي أجتمع مع فتاة في غرفة واحدة. اقتربت من رقبتي وبدأت يمتزج أنفاسها بجسدي، ثم همست: «لا يمكنني فعل المزيد، من المفترض أنها تكون رغبتك أنت»، فهمت ما تقصده، ثم بدأت مبادلتها الإثارة والرغبة، بعد مرور دقائق شعرت حقًّا بالإثارة والنشوة، لكن أنا لست هنا لممارسة الحب. تمالكت شهوتي بعدما دفعتني ناحية السرير ونحن نتبادل القبلات الحارة، شدت غطاء السرير، ها قد حانت اللحظة التي وعدت السيدة ألا نصل لها.. فجأة دفعتني بعيدًا عنها ثم قالت: «لن ترانا الآن، لكن لا تتحدث بصوتٍ عالٍ فقد تتنصت علينا».

مؤلم أن تبدأ في مناقشات وأنت في كامل شهوتك، استعدت رشدي وسألتها: «أنا لا أفهم شيئًا، كيف تعثرت بي؟ وأين نحن؟ ومن هذه السيدة؟».

قالت: «سأقول لك كل شيء حين نخرج من هنا، سنغادر بعد دقائق، حين تسألك المرأة عما سيحدث، قل إنني نلت إعجابك، وإنك ستتقدم لزواجي بعد ١٠ أيام حيث تنتهي شهور العدة».

- شهور العدة؟

ردت ونحن نستعد للخروج: «سأقول لك كل شيء فيما بعد».

خرجنا وهي تمسك يدي، كانت المرأة غليظة اللسان تنتظرنا: «(سبع ولّا ضبع)»؟

قلت بلكنة أحبتها: «(جمل عايزة الجمال)».

ضحكت وهنا فهمت أنني كسبت جزءًا من مودتها: «ومتى سيعقد الجمّال قرانه على الجمل؟».

قلت: «بعد نهاية فترة العدة».

قالت: «من عادات الخطبة أن يأتي الخاطب بهدية فخمة».

- خطبة!

ردت: «نعم، وأنت لم تأت بما يسر لا عدو ولا حبيب».

فهمت ما تقصده، فأعطيت لها مبلغًا من المال، فقالت: «أنت سريع البديهة».

وبصوتٍ عالٍ نادت الحضور: «يا أوباش، فلتقرأوا الفاتحة، لقد تمت خطبة عليا».

بمنتهى الجدية والعبث قرأ الجميع الفاتحة، وبدأت الفتيات في تهنئة عليا، ونحن في طريقنا للخروج قالت المرأة: «عليا.. مر عام على وفاة «آدم»، الله يرحمه».

تعكر مزاج عليا فجأة، شدتني وخرجنا من المنزل وهي تقول: «الآن سنعود لمنزلك، أين يقع؟».

أخبرتها بالعنوان وبعد نصف ساعة من الصمت قالت: «جميل مذاقك، مميز ومثير».

- أريد تفسيرًا لكل ما حدث.

- لا تستعجل، فقد تندم طوال حياتك بسبب هذا الفضول.

وصلنا بالفعل، وما إن وصلت حتى قالت: «هذا المنزل مألوف وغريب، أشعر براحة كبيرة بين أركانه».

اتجهت للبار ثم واصلت: «لماذا لم تُوشَ بي؟».

قلت وكأنني لا أفهم سؤالها: «ماذا تقصدين؟».

ردت: «أنت تعرف ما أقصده، لماذا لم تخبر المحقق بأنني قتلت الرجل الخليجي؟».

لم أرد، فواصلت: «كان بإمكانك أن تخبره بما تعرفه، فتتم معاقبتي وينتهي كل شيء، لكنك لم تفعل، لهذا أنا من سأعاقبك».

ضحكت ساخرًا: «هذه ضريبة التستر عليك؟!».

ردت بحزم: «أنت لم تتستر عليّ، أنت قررت أن تجعلني أواصل هذه المأساة بالطريقة التي يريدونها مني، كان بإمكانك إنقاذي».

لا أحب هذه الطريقة الاستعطافية، لذلك وأنا أشير للباب: «حسنًا، بإمكانك إنهاء كل هذا وتسليم نفسك للعدالة».

لم ترد بكلمة واحدة، ظلت صامتة ثم قالت: «لو كان بإمكاني لما ترددت لحظة واحدة، ماذا تريد مني يا أنت؟».

ـ ياسين، اسمي ياسين.

ـ حسنًا، ماذا تريد مني يا ياسين؟

ـ مقابلًا لأتستر عليكِ.

ابتسمت بانهزامية: «حسنًا تعالَ لنمارس الجنس، أيكفيك أن نكون معًا كل يوم لمدة ٣ أشهر؟!».

رددت وأنا أصب لنفسي كأس نبيذ: «هذا المقابل لا يثيرني، أنا أعرف ماذا أريد بالضبط.. أريد معرفة أسباب ودوافع قتلك لرجلين في شهر واحد».

ردت: «وإن لم أوافق؟».

فكرت كثيرًا قبل أن أرد، لا أريد أن تستمر نظرتها عني بأنني شخص خجول، لذلك كان عليّ المقايضة بطريقة أكثر عنفًا: «طبيعة عملي حساسة ولا أريد أي شكوك حولي، سيكون عليّ إخبار المحقق بكل ما أعرفه لأنقذ نفسي».

ردت بغضب: «ربما سأقتل الرجل الثالث الآن».

كلمات تهديد بلا جدوى أحفظها عن ظهر قلب في المناطق الشعبية، فضحكت وسألتها: «اتفقنا؟».

ردت بسؤال آخر: «وماذا ستستفيد من سماع قصتي؟».

فأجبت: «لنعتبره فضولًا أو ربما بإمكاني مساعدتك».

ردت ساخرة: «هذه الكلمات عوقب عليها أحدهم عقابًا أبديًا».

ـ اتفقنا؟

تنهدت ثم قالت:

ـ اتفقنا. لا أنكر أنني قاتلة. قتلت الكثير من الرجال، القتل نفسه جريمة في غاية التعقيد، الخائن يُقتل، المرتد يُقتل، والقاتل يُقتل، كل هذه دوافع قانونية ودينية مسموح فيها القتل، لذلك رغم إقراري إنني قاتلة لكنني لا أشعر بأنني أقترف ذنبًا لا يُغتفر، حتى لو كانت أسبابًا لن يعترف بها القانون وسيعاقبني عليها، فقد كنت أملك أسبابي الخاصة دائمًا وهذا يكفيني. بدأت المسألة بعد وفاة أبي، تزوجت أمي التي احتفظت بجمالها رغم كل شقاء السنين من رجلٍ ثري ليعولنا أنا وأخواتي البنات، بدأت علاقته لطيفة مع أخواتي، رغم صغر سني وقتها لكنني

لم أشعر يومًا بالراحة في وجوده، خصوصًا بعدما انتقلنا للعيش معه في المقطم. زيارة أصدقائه لنا كانت مريبة، نسمع ضحكاتهم وأحاديثهم حول النساء، وأحيانًا كان يقتحم بعض أصدقائه غرفنا الخاصة، وحين نصرخ تأتي أمي لتنقذنا منه، اعترضنا مرارًا من هذه الطريقة، وأسلوب حياتنا الجديد ذاك الذي فكك رباط مبادئنا وأخلاقنا وعاداتنا التي زرعها بداخلنا أبي. مع تكرار الزيارات التي أصبحت مصحوبة بالنساء، تناقشنا مع أمي وطلبنا منها الرحيل عن هذا المنزل لأنه لا يناسبنا، كانت حجة أمي صريحة: «لا أريد العودة للفقر والجوع، هذا منزله يفعل به ما يشاء، الأهم ألا يمسنا سوء».

اعترضت أختاي الاثنتان ورفضتا حجة أمي ومبررها، أنا وحدي من شعرت بها لأكون صادقة أكثر، لم أتعاطف معها، بل فرض عليّ التعاطف لأنني أكبر أختيّ، هنا كانت مسؤولية في غاية القسوة، فلقد طلبت مني أمي إقناعهما بأن نستمتع بالرفاهية التي نعيشها، وحين يحل الظلام نسجن أنفسنا في غرفنا على وعد أنها لن تسمح لأي شخص أن يتعرض لنا، فجأة أصبح عليّ إقناع نفسي بأن ما يحدث أمرًا عاديًا، بل وإقناع أختيّ بالأمر. مر عام تلو آخر حتى أصبحنا في سن الزواج، في هذا الوقت كان منزلنا تحول لشبه بيت مشبوه للطبقة الراقية، ظهر السن وتوابعه على أمي، فلم تعد قادرة على خوض مزيد من المناقشات مع أختيّ، حتى بعدما تطور الأمر وبدأت المضايقات تصل حد إن زوج أمي جلس معنا وقال: «لقد أصبحتن في سن الزواج، ولقد تقدم أحد أصدقائي لخطبت إحداكن»، لم نرد عليه

ولم نتناقش، كان العرض أشبه بالأمر وأمي صامتة. بالفعل خرجت إحداهما لهذا الرجل، كانت المرة الأولى التي نرى عن قرب ما يحدث، وقفت أختي أمام مجموعة من الرجال، في مشهد قذر ودنيء يدققون بأعينهم في كل تفاصيل جسدها، بل ولم تسلم من كلمات المزاح الساقطة المؤلمة. كانت ليلة كابوسية، فبينما توقعنا جميعًا أن يوقف زوج أمي هذا المشهد السخيف، تشارك معهم، بل بدأ في وصف تفاصيل جسد أمي وهو يقول: «هي أجملهن، تشبه أمها كثيرًا». كلمات أثارت غضبنا حتى عادت أختي من هذا الكابوس وبدأت الفوضى، أدركنا أننا نعيش في سجن مع رجل ديوث، بل كان أشد قسوة مما نظن، فبعدما عرض علينا التشارك والجلوس مع أصدقائه، ولم يجد منا إلا الرفض والتطاول؛ قرر معاقبتنا جميعًا بالحرمان، كان الحرمان المادي هو نقطة ضعف أمي.

تحملنا وتحملنا، لكن فجأة بدأت أعراض غريبة تظهر على أمي، الضعف والهذيان والصداع والغضب طوال الوقت، ثم تخرج من الغرفة لتعود بعد ذلك في حالة هدوء مريبة، ثم تأتي عليها أيام في غاية الغضب وهكذا، بات هدفنا واحدًا وواضحًا؛ الهروب من هذا السجن مهما كلفنا الثمن، أصبحنا ننام وبجوارنا السكاكين لربما يتسلل أحد أصدقائه لغرفة نومنا ويحاول الاعتداء علينا فينال منا ما يستحقه، ظل خصام طويل بيننا وبين أمي، وذات يوم قررت التحدث معي، كانت نبرتها ولكنتها غريبة، وملامحها أشد غرابة، التجاعيد، الأطراف المرتعشة، والهالات السوداء تغطي عينيها، ورأسها شبه خالٍ من الشعر. أمي الفاتنة الجميلة التي كانت حلمًا لكل الرجال، أصبحت عجوزًا مثيرة للاشمئزاز والشفقة، قالت وهي

تبتلع ريقها بصعوبة: «علياء، أعرف أن ما يحدث لا تتقبله أختاكِ، لكنكِ أقربهما لقلبي، عليك إقناعهما بقبول الزواج من أصدقاء زوجي، هذا الحل الأمثل للحفاظ على حياتنا».

رغم حالها المثير للشفقة، انفجرت في وجهها: «حياتنا؟ حياتنا كانت في طفولتنا مع أبي، كل ما حدث بعد وفاته لا يمت لحياتنا بصلة، تريدين منا القبول على سوق النخاسة هذا؟! إن كنتِ قد قبلتِ الزواج من هذا الديوث فنحن لن نقبل أن نعيش حياتنا بهذه الطريقة».

فجأة صفعتني أمي على وجهي: «أولًا هو ليس رجلًا ديوثًا، لقد أراد أن تتزوجن على سنة الله ورسوله، ثانيًا عليكِ احترامه، إنه زوجي يعني في مقام والدك».

وأنا أبكي رددت: «لا تشبهي أبي بهذا الوغد، أبي كان رجلًا شريفًا، لم يقبل يومًا أن يمسنا سوء».

ردت وهي تسخر: «كان فقيرًا، قضينا معه سنوات طويلة جدًا جدًا من الجوع والفقر والحرمان، انظري حولك، انظري لملابسك، طعامنا، رفاهيتنا، كل الطلبات المجابة حتى قبل أن تطلبيها، ترفضين كل هذا وتتمردين عليه؟!».

رددتُ: «نعم، ما قيمة كل هذا إن لم نشعر بالشرف؟».

قالت: «الشرف لن يشبع بطونكن، لن يجيب طلباتكن، لن يؤمن لكن مستقبلكن، كل اللائي قلن إن أسمى وأغنى ما يملكنه هو الشرف كن لا يملكن غيره، وفي أنفسهن كن ينتظرن فرصة مناسبة لوضعه على طاولة المزاد وبيعه».

رددتُ: «هكذا تفكر العاهرات».

شعرت بغصة في قلبي وأنا أقول هذا لكنها الحقيقة.

ردت أمي بنبرة في غاية الحزن: «أريدك أن تنقذيني يا عليا، تستطعين القيام بهذا للحفاظ على حياتي، من أجلي يا عليا».

اقتربت منها وكدت أعانقها: «لن يمسك سوء يا أمي، لن أسمح لأحد أن يمسك بسوء».

بكت أمي ولعابها يسيل: «أريدك أن توافقي ليعطيني مزيدًا من الجرعات».

ـ أي جرعات؟

ردت وهي تبكي: «الهيروين يا علياء، الهيروين».

تلصمت في مكاني، أمي مُدمنة هيروين!

واصلت وهي تبكي: «ألا تريدين إنقاذ حياة أمك التي ضحت بكل شيء من أجلكن؟».

قلت بخيبة أمل: «يمكننا الذهاب للمصحة لتتعافي من هذا الملعون».

ردت: «فات وقت التعافي، الآن لأنجوا بحياتي لا بُدَّ أن توافقن».

الخيبة وقلة الحيلة والحسرة، كل الأفكار في رأسي تراودني وأنا أرى أمي تلهث وترتجف وتحتاج مني إنقاذها في مقابل تدمير حياة أختيَ وحياتي.

توقفت عليا عن الحكي ونظرت إليّ ثم سألتني: «لو كنت مكاني يا ياسين ماذا ستختار؟ تضحي بوالدتك من أجل الحفاظ على شرفك وشرف أخواتك أم تضحي بشرفهن وشرفك من أجل الحفاظ على حياة والدتك؟».

وقفت عاجزًا أمام سؤال علياء، أخشى الاعتراف بأن عليها أن تحافظ على شرفها مهما كانت التضحيات، وأخشى الاعتراف بأن عليها التضحية من أجل الحفاظ على حياة أمها، وهذا سيجعلني أشعر بالذنب أكثر مما فعلته بميادة أختي، فقد كانت تملك نفس الأسباب التي جعلتها تتخلى عن تربيتها وشرفها من أجل إنقاذ أمنا من الجوع والفقر.

راودتني من جديد كلمات العجوز ماري التي قالت حين كنا نتحدث عن المجرمين: «منظور الحياة مُختلف، فالأفعال التي تسخر منها اليوم قد تقوم بها غدًا، الأسباب التافهة التي تقود الناس لارتكاب حماقات قد تقودك أنت أيضًا لأفعال أشد سخافة وحماقة، المعنى يكمن في تجاربنا الخاصة، ما دمت لم تتعرض لموقف يستدعي منك أن تكون عدوانيًا فلا تتباهى بكونك شخصًا مُسالمًا، ما دمت لم يعرض عليك أحدهم الرشوة فلا تجعل كلمات الأمانة مجرى حديثك الدائم، ما دمت لم تتألم معدتك من الجوع والخواء فإياك أن تسخر من السارق، ربما من الأساس أنت لست صالحًا لكنك مستور، هذا لا يعني تبرير الأفعال الشنيعة، لكن على الأقل يعني ألا نرتدي عباءة الفضيلة والشرف، ونجلد كل من أذنب أو أخطأ، لندع أصحاب الحكم لأهله، فلربما وضعته الحياة في هذا الطريق رغمًا عنه، فلم يكن يملك رفاهية الاختيار».

عُدت من غفوة كلمات ماري التي قيلت لي منذ فترة، بتكرار سؤال عليا.

فأجبت: «لست مكانك ولا يمكنني الإجابة عن هذا السؤال».

فردت:

ـ هذا بالضبط ما كنت أعاني منه، الاختيار بين أمرين، المطرقة والسندال، أرفض مساعدة أمي وأنجو بي أنا وأختاي لأعيش ما تبقى من حياتي في عذاب أبدي لأنني رفضت مساعدة أمي، أو أن أضحي وأعيش بنخاستي وعهري، اختياران أصعب من بعضهما البعض، لكن حتى رفاهية الوقت كنت لا أملكها، فالأيام تمر وحالة أمي تزداد سوءًا، وتمرد أختيّ يشتعل أكثر وأكثر، حتى بدأ التمرد يتحول لقرار مصيري، حين عرضتا عليّ خطة للهروب، سألتهما عن مصير أمهما، فقالا إن ما يحدث يزعجها وإن عرضا عليها الهروب فقد تشي بهما. رأيت في أعينهما نظرة عن أمي لم أرد تصديقها، أمكما ليست ساقطة، هي قليلة الحيلة فقط، لم يصدقا، بل اتهماني بالتواطؤ معهم. فجأة أصبحتُ ساقطة عاهرة لأنني لا أريد الهروب وترك أمي العجوز المريضة وحدها في هذا السجن الكبير، سمعت عن مسؤولية الأخ الأكبر الذي تحتم عليه أحيانًا التخلي عن سعادته لإرضاء إخوته الأصغر منه، لكن الحياة وضعتني في الاختيار الأصعب، إما التخلي عن أمي من أجل حياتي أو التخلي عن حياتي من أجل أمي، في لحظة قررت الانضمام لهما، صحيح أن أمي تراني كما رأى يعقوب ابنه يوسف، لكن يعقوب كان رسولًا، وأمي ساقطة، وأنا لست في وفاء يوسف. استسلمت لرغبتي الحقيقية في الهروب من هذا المأزق، وفي مساء

هذا اليوم وبعدما انتهت السهرة وانطفأت الأنوار وعادت السكينة لمنزلنا، بدأنا في التسلل على أطراف أقدامنا حتى وصلنا للباب، أخيرًا سأودع هذه الحياة البائسة إلى النور، لا يهم أين سنذهب، الأهم أن نهرب من هذا السجن، إن كنت لا تعرف وجهتك فكل الطرق ستفي بالغرض. فجأة سمعت صوت أمي وهي تسعل، كان صوتها قويًا تشعر وكأن رئتيها سيخرجان من قفصها الصدري، وقفت في مكاني: «أمكما مريضة».

قالت إحداهما: «لتمت بعهرها ونجاستها».

رد قاسٍ جعلني أتوتر أكثر وأكثر.

ظل سعال أمي عاليًا.. نجحت خطة الهروب فأصبحنا بالخارج، الحياة ها هي أمامنا من جديد.

«آسفة لن أستطيع ترك أمي في هذه الحالة».

«تعالي يا عاهرة» قالتها أختي الصغيرة.

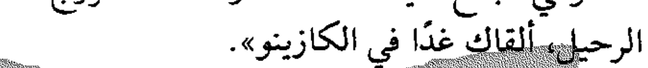
لم أستجب لندائهما: «أمي تحتاجني أكثر من احتياجي للحياة. وداعًا يا أختيّ وللأبد».

عُدت لأمي وبدأ فصل جديد في حياتي.

توقفت عليا عن الحكي ثم نظرت إلي: «لا يمكنك إطلاق أحكام عليّ، لقد تغير جزء من نظرتك عني بكل تأكيد، ربما كان انطباعك الأول عني أنني عاهرة، والآن قد أكون عاهرة، لكن لدي قصة، لا أعلم انطباعك حين أنتهي من سرد قصتي، لكن أيًا كان انطباعك فلن ينال الحقيقة الكاملة، فنحن حين نحكي للناس

الأشياء التي هزمتنا ندفن أشياءً أخرى ربما كانت أشد مرارة من الهزيمة».

وهي تجمع أشياءها الخاصة وتستعد للخروج: «الآن حان وقت


الرحيل، ألقاك غدًا في الكازينو».

ـ لم تخبريني بالقصة التي أريد سماعها من الأساس.

ردت: «لا تقلق، الأيام بيننا».

7

نابولي / اجتماع مؤسسي المجموعة.

«سراج سقراط»:
أسبوع مضى، في الوقت الذي ظننت أن ديفيد سيختفي عن الأنظار، فوجئت بأنه شكل بالفعل مجموعته القتالية، لم يخبر أحدًا عن أسباب هذا القرار المفاجئ، خصوصًا أن تكوين مجموعة من القتاليين الإجراميين ضد أفكاره، لكن يبدو أن شيئًا ما يحدث في الكواليس، مما جعله يتخلى عن بعض هذه الأفكار، والآن نحن في طريقنا للاجتماع الأول بعد الحادث المروع في المدرسة الكاثوليكية. لا توجد أنباء حول مرتكب هذا الحادث، الحكومة لا تلقي أي تصريحات، ولم تعلن حتى الآن في بيان رسمي عن أسماء الضحايا، تكتم الحكومة الإيطالية لهدفٍ سياسيٍّ بحت، فنابولي تستعد لموسم الزيارات السياحية، وحادث مثل هذا قد يؤثر على حركتها الموسمية، لذلك فلقد استدعت بشكل غير رسمي وينوبها السيد «فليب كونتي» ورجال المجموعة في اجتماع مفاجئ.

كان في الاجتماع السيد بيربتوف رئيس المجموعة، إيفانوفيتش مورد الأسلحة للحكومة الإيطالية، كاستلو صاحب شركة الأغذية، ويوهان عزرا وزير الصناعة الإسرائيلي، بينما لم يحضر أحد من عائلة جورج.

بدأ فيليب كونتي بكلمات القاسية: «خلال الأشهر الأخيرة اغتيلت صوفيا، ثم اغتيلت كلارك ابنة السيد كاستلو، والآن وفي حادث تتوجه أنظار العالم عليه، تم إطلاق النيران على الحضور، وأغلب القتلى من السياح، لقد صمتنا طويلًا تقديرًا لجهودكم الاقتصادية، وسعيكم لرفع شأن بلدتنا الصغيرة، لكن فاض الكيل، فحين يتعارض الأمن القومي مع الاقتصاد، فانهيار الاقتصاد أفضل قرار للحفاظ على قبضتنا الأمنية، والآن نحن بصدد اتخاذ قرارت صارمة ضدكم، إن لم يعلن أحدكم مسؤوليته عن الحادث».

كلمات أثارت غضب رجال المجموعة، الأمر الذي استدعى رئيسهم بيربتوف للتحدث نيابة عنهم: «الاتهامات المنسوبة لمجموعتنا عارية تمامًا من الصحة، نحن جماعة مُتحدة نعمل على نمو اقتصاد البلدة وتوفير الحماية المطلوبة للرخاء والازدهار، ولن نقبل التشكيك في نزاهتنا وولائنا لنابولي، حتى الأجنبي منا له مصالح ضخمة هنا، ومسألة الأمن بالنسبة له حياة أو موت، لذلك لا داعي لإلقاء الاتهامات دون دليل».

رد كونتي بثقة وكأنه كان قد أعد الرد مسبقًا: «حسنًا، أنتم لستم مجموعة مُتحدة كما زعمت يا بيربتوف، لقد علمنا بنية ديفيد اقتحام السوق اليوناني، لكن لم يعطِ له السيد جورج فرصة مناسبة لذلك، فاضطر للاتفاق مع بينتو على اغتيال صوفيا، وفي هذه الأثناء وبينما

ظن الجميع أن جورج هو المُتهم، ارتفعت ثورة ديفيد بشكلٍ غريب، ولأنه لا يزال يؤمن بالخرافة التي ابتدعها ضد جورج، فلقد انتظر الوقت المناسب ليقتل أحد أبنائه، وقد كان، وأثناء الحفل الخيري شن هجومه الشرس بلا رحمة، فقتل العشرات من بينهم الصغير جوفاني ابن السيد جورج ضحية هذه الصراعات الشخصية».

توجهت الأنظار الصادمة ناحية ديفيد الذي خلع بذلته وعلى وجهه علامات الخيبة: «لا يمكنني إنكار جزء كبير مما قلته، صحيح لقد ساعدني بينتو في اغتيال صوفيا، لكن لا علاقة لي بما حدث في المدرسة الكاثوليكية، لا يمكنني شن حرب وابني في ساحتها، لا يمكنني إطلاق رصاصة واحدة في مكان يتواجد به أطفال، لا مدنين، لا أطفال، هذه مبادئي، وربما ما يميزني عنكم جميعًا أنني لست شخصًا دنيًا بلا مبادئ، أنا ما زلت محتفظًا ببعض أفكاري في الحب والحرية والسلام. سيد كونتي ليس بإمكانك إلقاء القبض عليّ، فالقضية قد أغلقت بالفعل، وبالطبع أنت الآن توفر الحماية الكافية للسيد بينتو في اليونان؛ تحسبًا لأي رد فعل، وهذا ما لن يحدث على المدى القريب».

كلمات أثارت صدمة الحضور جميعًا، اعترافه كان كفيلًا أن يقرر السيد بيريتوف: «من الآن وحسب أنت خارج مجموعتنا، وأفعالك تخصك وحدك يا ديفيد، ونحن نتبرأ منك أمام السيد كونتي وأمام الحكومة الإيطالية».

ظل ديفيد في مكانه، ابتسم ثم قال: «لا أعرف من المسؤول عن هذه اللعبة، لكن أريد أن أبلغه تحياتي، لقد أجاد الخطة بالشكل المثالي، ولتبدأ المعركة».

خرجنا من الاجتماع، كان الغضب مسيطرًا تمامًا على ملامح ديفيد، لم ينطق كلمة واحدة طوال الطريق، حاولت استفزازه فقلت: «تحتاج لبعض الراحة».

لم يرد عليّ، اتصل بمارتينا وطلب منها تجهيز صالة الاجتماعات، فهمت أنه ينوي الرد سريعًا، فالتزمت الصمت، لقد انقلبت الآية، وبعدما كان يعد ديفيد انتصاراته أصبح يتحاشى المزيد من الخسائر.

فور أن عُدنا للقصر، دخل مباشرة إلى غرفة العجوز ماري التي كانت تعد قهوتها، رحبت بنا بحفاوة ثم سألت ديفيد عما حدث في الاجتماع.

«العجوز ماري»:

ما إن رأيت ديفيد شعرت بأن سوءًا ما قد أصابه، أنا أعرف هذا الرجل، ابني الذي لم أنجبه، وحبيبي الذي لم أتزوجه، أحفظ تفاصيله، وأعرف حالته المزاجية من نبرة صوته. جلس ديفيد على كرسيه المفضل في غرفتي ثم قال: «لقد تحالفوا ضدي، الحكومة وبيريتوف، لقد كشفوا خطتنا عن طريق الخائن بينتو».

قلت له: «هذه نتيجة التعامل مع رجل خائن، حذرتك من التعامل معه لكنك لم تسمعني، كان عليك التخلص منه بعد العملية مباشرة».

رد ديفيد: «تعرفين أنني لا أحب سفك مزيد من الدماء».

تنهدت وفي داخلي أعرف أن ديفيد لم يكن شخصًا عدوانيًا من الأساس فقلت: «في الحياة يا ديفيد ثمة معارك، نختار بعضها ونجبر على البعض الآخر، المعارك التي نختارها تكون أقل قسوة حتى لو كانت أحداثها عنيفة وقوية، لكنها تحدث بإرادتك أنت،

فكما يمكنك مواصلة القتال والنزال تستطيع أيضًا الانسحاب أو حتى الاستسلام. أما المعارك التي نجبر عليها فنحن هنا لا نحارب أعداءنا فقط، لكننا نحارب ونقاوم أشياءً بداخلنا أيضًا. إن كنت في ساحة الأسود فلا بُدّ أن تصبح أسدًا مثلهم لتقاومهم وتحافظ على نفسك، وتنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليهم وإلا ستصبح فريسة سهلة الصيد والافتراس. أعرف أنك رد فعل دائمًا، لكن ربما حان دور أن تكون فعلًا، حان الوقت ليرتعد أعداؤك من سماع اسمك. لو أن الأشياء التي قمت بها قد قام بها جورج أو رجل آخر من المجموعة، لفكر بيريتوف كثيرًا قبل اتخاذ هذا القرار، لكنه لم يشعر بالخطر نحوك وهذا ما تحتاجه».

ـ أشعر بالهزيمة يا ماري، لأول مرة أشعر بالهزيمة.

تنهدتُ وأنا أتحرك نحوه: «لا، لم ولن تهزم، شخص مثلك مر بكل الأشياء التي دفعته للانهيار ولم يَنْهر، استطعت تجاوز مواقف كفيلة أن توقف حياتك، كفيلة أن تدمرها وتجعل منك شخصًا رخوًا ومهترئًا، لكنك تجاوزتها وواصلت صراعك مع الحياة، لم تُهزم حين فقدت أشخاصًا ظننت أنهم لن يرحلوا عنك، حين خطف الموت أحباءك، وحين أصابتك مكائد أعدائك، لم تُهزم حين تحطمت كل أحلامك وتكالبت عليك الخسائر والمصائب، لم تُهزم رغم كل العواقب والسدود التي وضعت أمامك، رغم كل الصعاب كنت أقوى، تجاوزت وقاومت وأبحرت في قلب المحيط ولم تغرق، كنت أقوى وبينما ظن الجميع أنك أضعف من ورقة في قلب العاصفة، كنت كالنخل؛ ظللت في مكانك بجذورك التي تمتد لأعماق الأرض وعنقك التي عانقت السماء. لا تقل إنك انهزمت،

قل إنك مُتعب، فكل المحاربين يشعرون بالتعب، قل إنك مللت من المعركة وتحتاج لهدنة، فالهدنة مجرد استراحة لترتيب أفكارك. أنت عنيد جدًا يا ديفيد، لن تسمح لنفسك أن تشعر بالهزيمة، أنت عنيد ولم تخشَ كلمات الناس حين قالوا إن الحياة تذل كل من يعاند في وجهها، أنت عنيد وصلب لا يمكن كسرك بسهولة، لا يمكن كسرك من الأساس، أنا أثق بك ستعود أقوى، ستعود وتحتفل بإنجازات جديدة أمام أعين خصومك، ستضحك وأنت ترى غضبهم من عنادك وانتصارك، كلما غفلت أعينهم وظنوا أنهم ارتاحوا من أذاك؛ أيقظتهم على كابوس إنجاز جديد لك، أنا أثق بك يا ديفيد، أثق في قدرتك على التجاوز، أثق أنك ستعود أقوى ويعود اسمك يرجف ويرعب كل أعدائك».

لم يرد ديفيد، ظل صامتًا، لكنني في الوقت ذاته لم أشعر بالقلق عليه لأنني لم أرَ في عينيه نظرة القلق، لم أرَ منه الحزن أو حتى الخوف من المستقبل، كانت عيناه شاردتين باردتين تمامًا، لم تكن أولى هزائمه، فشخص مثله انهزم مرات ومرات حتى انتفض من هزيمته، فقرر معاقبة الجميع. كان أهون عليه أن يخوض كل هذه المعارك من أجل مطامع شخصية، الرغبة في السلطة، الرغبة في القوة، الرغبة في الثراء. كانت الرغبة ستجبره على المواصلة والركض نحو هدفه، لكن أن يخوض المرء كل معاركه من أجل حقوقه، أن يواصل الركض ولا يعطي لنفسه فرصة للحزن، فرصة ليمارس عزلته، فرصة ليواجه مأساته، أن يواصل الركض دون أن يبال لأطرافه المتآكلة من الانتظار، دون أن يكترث لبكاء قلبه أو ينظر لكل الأمنيات والأهداف التي انزلقت من بين يديه، هذا يعني أنه

يدفع من عمره ضريبة لهذه المعركة، ألا يتصالح مع سقوطه يعني أن انهياره سيكون مفاجئًا وبلا رجعة.

خرج ديفيد شاهين فرافقته إلى الاجتماع، هناك كان مروان ويمنى وأوليفيا وتالا في انتظارنا. لم يضِع ديفيد وقتًا في رد الفعل، فبدأ أوامره سريعًا: «الآن إليكم الخطة. بعد أسبوع، سينعقد اجتماع المستثمرين الأوروبيين في نابولي، مما يجعل مدينتنا تحت أنظار العالم، كل وسائل الإعلام العالمية ستوجه عدستها إلينا، هذه فرصة للحكومة الإيطالية لتثبت للعالم تعافيها السريع من حادث المدرسة، ستزرع رجالها في كل مكان، ولن يرحموا أي شخص يحاول العبث بسلام اليوم، لا أخفي عليكم خبرًا، لقد اختلفنا مع المجموعة الاقتصادية التي نعمل معها، كذلك انتهت اتفاقية السلام بيننا وبين الحكومة، لذلك هم ينتظرون منا رد فعل يعبر عن غضبنا، ويزعزع قوتهم أمام العالم، في منطق الأفلام والروايات فمن المنطقي أن نتجنب أي رد فعل في هذا اليوم، أولًا لأنهم مُستعدين بكل قوتهم، ثانيًا لأنهم ينتظرون منا رد الفعل، لكننا لسنا في رواية لنتفق مع هذا المنطق السخيف، سنفعل كما المتوقع تمامًا، لكن بطريقة مُختلفة».

بدأت التساؤلات والأفكار تظهر على ملامح الأولاد، فواصل ديفيد شاهين بعدما ظهرت صورة كونتي على السبورة الضوئية المعلقة خلفه: «هذا الرجل يدعى «كونتي» مسؤول الأمن العام في نابولي، لهذا الرجل أرصدة وتعاملات أجنبية مشبوهة أضرت بمصلحة الطليان في الشمال والجنوب، وهو واحد من أهم المسؤولين عن الانهيار الاقتصادي في إيطاليا أو بمعنى أدق «الكساد الدائم». خلال الأسبوع الماضي كانت تعمل أوليفيا على اختراق كل الأجهزة المُسجل عليها هذه الأرصدة والحسابات، وقد نجحت بالفعل».

نظر ديفيد إلى أوليفيا ثم قال بابتسامة جميلة: «أنا فخور بكِ يا أوليفيا».

ربما هذه من الأشياء التي أحبها في ديفيد، إنه يقدر رجاله ويحترمهم، يؤمن أن قوته من قوتهم، وأن تقديرهم على الأشياء البسيطة تجعلهم يظهرون أفضل ما فيهم، لذلك هو يسعى دائمًا لرفع ثقتهم المعنوية، وإعطاء كل شخص أهميته ومكانته حتى يستمر في الإبداع والعطاء.

واصل بعدما ابتسمت أوليفيا له: «خطتنا واضحة، نريد أن نعلن عن أنفسنا أمام العالم، وكشف الفاسدين وكسب ود وتقدير فقراء الشعب الإيطالي، هذه هي الطريقة المثالية للإعلان عن مجموعتنا، لذلك سنخطف أنظار العالم من نابولي إلى روما، بعد غد وفي العاشرة صباحًا سيبدأ مروان ورجاله بالتجول في ميلانو بإحدى السيارات المسروقة، ثم توزيع منشورات على العامة، في المنشور خطاب صغير مكتوب فيه: «نهاية ميلانو الشمالية على يد غجر نابولي الجنوبية.. اليوم في الثامنة مساءً.. انتظرونا»، كذلك ستقوم تالا بنفس المهمة، لكن في الجنوب تحديدًا في مدينة باري الجنوبية، حيث ستتجول بسيارة مسروقة أيضًا، وتوزيع نفس المنشور باختلاف الصيغ، حيث سنكتب: «اليوم سنسترد حقوقنا من انتهازيين الشمال في ميلانو.. انتظرونا»، وفي تمام الثامنة مساءً في نفس ميعاد انطلاق المؤتمر المزعوم في نابولي، سنخترق كل شاشات الدعاية في روما وميلانو وباري، ثم ستظهر لوحة مكتوب عليها: «ديڤالو يحكم»، وتبدأ مارتينا بالكشف عن المستندات، مع إخفاء تفاصيل وجهها في لقاء مدته خمس دقائق بالتمام والكمال، ثم يعود كل شيءٍ لطبيعته.. هل هناك أي أسئلة؟».

ردت تالا: «نعم، لماذا سنوزع هذه المنشورات؟ وكيف سنضمن عودتنا بالسلامة إلى نابولي؟».

أجاب ديفيد: «هذه المنشورات ما هي إلا للإلهاء وبث مزيد من الاحتياطات الأمنية في نابولي، بث الغضب في نفس الشعب، والخوف من انطلاق مظاهرات تندد بالانفصال أو الانقلاب، كذلك سيعطي بعض الثوار الفرصة للتعبير عن رفضهم وسخطهم على الحكومة، أما عن عودتكم فلا تقلقوا منها، ستعودون ولن تتم مطاردتكم إن أنجزتم مهامكم خلال ساعة واحدة، وإن تمت المطاردة فنحن نملك خططًا بديلة لإلهاء القوة العسكرية في باري وميلانو».

سألت مارتينا: «من أين سنبث البيان؟».

ـ من باخرتنا في ساحل نابولي.

من خلال أحد برامج التواصل الاجتماعي التي اضطرت دليدا لاستخدامها حتى تحضر الاجتماع المفاجئ عبّرت قائلة: «أرى أننا نسير في الطريق الصحيح، لكن أظن أن وجودك في نابولي بعد هذه العملية سيجعلنا جميعًا في وجه المدفع».

رد ديفيد شاهين: «سنضع في الخطاب بعض الرسائل التي تحمينا وتهددهم في نفس الوقت.

أي أسئلة أخرى؟».

لم يرد أحد وانتهى الاجتماع بجملة قالها ديفيد شاهين: «لنجعل ضجيج الفقراء صداع في رأس الأغنياء».

بعد نهاية الاجتماع اتجهت مع ديفيد وسراج إلى المكتب، كان ديفيد يشرب النبيذ بشراهة، في مثل هذه الحالة لا يمكنني طرح أي أسئلة تعكر صفو مزاجه، فساد الصمت الطويل حتى قطعه موجهًا

حديثه لنفسه: «ماذا لو لم ألتقِ بجورج؟ حينها كنت سأتزوج لورين، وأنجب منها طفلًا جميلًا يشبهها، أعيش بالراتب الذي أتقاضيه من إحدى الشركات التي سأتوظف فيها، نسافر مع نهاية كل عام إلى لندن أو باريس نقضي عطلة جميلة ننسى بها شقاء الروتين اليومي، ثم نعود لأعمالنا، أربي طفلي في بيئة مناسبة طبيعية، أعلمه كيف يحب الناس ويتقبلهم، يخاف الله ويحبه ويقوم بكل الأعمال الصالحة التي ترضيه، وتجعله من الصالحين، كنت سأعيش حياة هادئة جميلة حتى مماتي. في الماضي كنت أسخر من كل شخص يقول أن رحيل أو وفاة شخص عنك قد يقلب الحياة رأسًا على عقب، كنت أتهمهم بالضعف وأراهم صغارًا لا يقدرون على تحمل الحياة، لكن حين فقدت شخصًا عزيزًا على قلبي أدركت أن رحيل شخص عنك كفيل بتغيير حياتك، تغيير مسار الطرق، الأهداف، الطموحات، والتصرفات.

الفكرة لا تكمن في الشخص وحده، إنما في كم الأحلام التي حلمنا بها وتحطمت، كم الأمنيات التي تمنيناها، كم الأشياء التي كنا ننتظر تحقيقها، وفجأة أصبح علينا نسيانها. لا أشك في تدابير القدر، لكنني أتعجب من قدرتنا نحن على التكيف في حياة جديدة لا تشبهنا ولا نتمناها، أتعجب كيف للحب أن يجعل من الوحش شخصًا مُسالمًا مُحبًا للحياة وللعالم، وكيف للفراق أن يجعل من شخص مُسالم مُحب للحياة شخصًا سوداويًا انتقاميًا يريد التخلص منها. هل نحن من صنع أقدارنا، من صنع الأشخاص الذين مروا علينا؟ في حياة كل شخص لحظة واحدة تتغير كل الأقدار، عندها قد تتغير للأفضل أو للأسوأ، الحقيقة الواحدة إنها لا تعود كما كانت من قبل».

خرج ديفيد من غرفة المكتب واتجه إلى غرفة نومه، لقد شرب حد الثمالة، وربما حان الآن وقت الهروب إلى حلم قد يكون أقل قسوة مما يعيشه في الواقع.

لنجعل ضجيج الفقراء صداع في رأس الأغنياء.

صباح مُختلف، لا أظن أن أحدًا من الأولاد قد ذاق النوم في هذه الليلة، لم أجتمع بهم، فهم في حاجة لترتيب أفكارهم، لأكون صادقًا أنا أكثر من في حاجة لترتيب أفكاري، لا أعرف أين اختفى جورج، وهذا الاختفاء لا يطمئنني، لا أظن أن الحادث أثر عليه لهذه الدرجة التي أجبرته على الاختفاء، هل يخشى انتقامي؟ ترى أي انتقام يخشاه؟ زواجه من حبيبتي؟ قتله لزوجتي بعد اغتصابها؟ أم خطفه لجوفاني ابني الوحيد حتى لقيَ مصرعه في حادث المدرسة؟ كلها أشياء ارتكبها، وكلها أشياء هو يعلم كل العلم بأنني لن أتنازل عن انتقامي منه، لكن هذا الاختفاء يبعثر أوراقي، لا أشعر بالقلق، فأنا لم أعد أملك شيئًا أخشى عليه من الأذى، وهو يعلم أن الذين لا يملكون شيئًا يبكون على خسارته، يصبحون أشد شراسة وقوة. ألهذا السبب قرر الاختفاء؟ في هذه المرحلة الحرجة وتغييرات القوة، قرار الاختفاء يعني الاعتزال أو تدبير خطة للعودة بكل قوة من جديد إلى الساحة. هو لم يفقد قوته من الأساس، إذن لماذا قرر الاختفاء؟ كلها أسئلة لا إجابة لها.

قلت لنفسي: «لندع أمر جورج جانبًا ولنركز على ما سيحدث اليوم».

وصلت تالا إلى باري، ومروان إلى ميلانو، وأوليفيا سيطرت على لوحات الإعلانات وتنتظر الوقت المناسب لبث الإعلان، سراج كان يتابع أثر المنشورات الثورية على مواقع التواصل الاجتماعي. نجح التحرك الأول، فلقد شغل أمر المنشورات تريندات مواقع التواصل الاجتماعي، حالة من الترقب والثورة والاحتدام بين سكان الشمال وسكان الجنوب، وكل منهم يتوعد الآخر بالجحيم. الشعب الإيطالي يملك في ضغينته آثار حروب أهلية طبقية قديمة لا ينساها أبدًا، الحكومة لم تعلن حتى الآن أي تحرك رسمي ضد هذه المنشورات، يعرفون أن الاعتراف بهذه الزوبعة في هذا اليوم تحديدًا قد يكلفهم الكثير والكثير، تحركات أمنية واسعة في باري وفي ميلانو، ناهيك عن الأعداد المهولة لرجال الأمن في نابولي، مارتينا في الباخرة من مساء أمس تستعد نفسيًا لإطلاق البيان، كل شيء مُحتدم والشعب ينتظر الثامنة مساءً.

السابعة مساءً

عادت تالا إلى الباخرة بعدما أنجزت مهمتها بنجاح، لحقت بها ماري وأوليفيا، بينما أمرت مروان أن يأتي معي رفقة سراج.

«إلى أين؟».

- ستعرف كل شيء ونحن في الطريق.

خرجنا إلى الشارع، الأجواء ملتهبة والحكومة والناس في حالة احتقان وترقب، «ها قد سيطرنا على اللوحات الإعلانية في باري ونابولي وميلانو وروما، ونجحنا في سرقة الأضواء من المؤتمر المزعوم. الحكومة تفرض قوتها على الشارع» كلمات قالها سراج.

فرد مروان الذي كان يقود السيارة: «لن ينجحوا في السيطرة عليه بعد أن نطلق البيان».

ظللنا نتفقد أجواء الشارع الملتهبة، كل شيء يشير أننا على موعد مع حدث غامض يهز أركان إيطاليا.

حان الوقت..

خرجنا من السيارة وانضممنا إلى الحشود المتواجدة في الميدان العام، وها قد بدأ بث المؤتمر: «لنبدأ الآن يا مارتينا».

بعد عشر ثوانٍ انقطع البث، ثم ظهرت على لوحة الإعلانات عبارة «ديڤالو يحكم».

«سيداتي آنساتي سادتي..

الفقراء والمهمشون والأثرياء، الثوار والمؤيدون والمعارضون وأصحاب السلطة والقرار..

إلى جموع الشعب الإيطالي في أقصى الشمال: بولونيا، بارما، ميلانو، وترينتو.

وفي أقصى الجنوب: نابولي، باري، فودجا، وكالابريا.. وسكان العاصمة روما.

لقد قضينا أعوامًا وأعوامًا من الظلام والبؤس والجوع، بينما كان يطل علينا السياسيون يشحذون بنا أمام دول العالم، يشتكون من التكدس والانهيار الاقتصادي والزيادة السكانية وانهيار مواسم السياحة، وضريبة لهذا ارتفعت نسبة البطالة والعشوائيات، وغياب الأمن والأمان في بعض الدول، كانت الثروات الخاصة لهؤلاء الساسة تزداد وتزداد، كانوا يطالبوننا بالتقشف، بينما يترفهون بأموال طائلة من عرق العمال الكادحين، وها نحن نعاني، لكنهم لا يعانون معنا، فلقد تركونا وحدنا في المعاناة، وذهبوا ليستمتعوا بالنعيم والثراء في باريس ولندن وأمريكا. لقد وصل الفساد عناء السماء حد أنهم يقيمون اليوم مؤتمر المستثمرين الأوربيين ليتسلوا باسم إيطاليا أمام العالم، إيطاليا مهد الحضارات، إيطاليا العراقة والتاريخ، يشحذون باسمها أمام دول بلا تاريخ، بلا اسم، لهذا قررنا اليوم أن نفضح الرجال المسؤولين عن هذا الفساد.

السيد كونتي المسؤول الأمني عن مدينة نابولي، وأحد صناع القرار في إيطاليا يملك المليارات في بنوك سويسرا وباريس ولندن، عقد صفقات استثمارية لا وجود لها على أرض الوطن، تحالف مع زعماء المافيا ليبث الفوضى في أنحاء إيطاليا، ثم يخرج إلينا ليحدثنا أننا نجب أن نتكاتف من أجل صد عمليات المافيا

التخريبية، ولم تكتفِ مكائده عند هذا الحد، بل تحالف مع دول عظمى من مصلحتها تدمير وهدم وطننا الكبير.

جموع الشعب الإيطالي..

نحن لا نسعى للسلطة ولا نملك أهدافًا سياسية، لا نملك زعيمًا أو رئيسًا، ولا نمثل حزبًا أو جماعة أو حتى حركة ثورية، لا نملك أي توجه سياسي أو اقتصادي. نحن مجموعة من البسطاء الفقراء، العمال الكادحين، والأطباء الذين لا يملكون قوت يومهم، نحن من نسل الباعة الجائلين، وأولئك الموظفين ضحية العمل الروتيني والمرتبات التي لا تكفي أبسط الاحتياجات اليومية. خطابنا هذا خرج من المقاهي، العشوائيات، المصانع، المزارع، والشوارع التي شهدت على خيباتنا وعجزنا. نحن مجموعة من الفقراء الذين تسللوا حتى وصلوا لمقرات صناع القرار ونجحوا في الإيقاع بهم. لا نطلب منكم الثورة، ولا نحثكم على التخريب، دورنا هو فضحهم وتوعيتكم ضد الفاسدين الذين يحكموننا.

سنعرض الآن كل المستندات و الأرصدة والمعاملات القذرة التي تثبت إدانة السيد كونتي.. وللحديث بقية».

«ديڤالو يحكم».

انتهى الخطاب، ثم بدأت في عرض المستندات وسط ذهول جموع الشعب الذين خرجوا للشارع تنديدًا بالفساد الاقتصادي. عاد البث المباشر للمؤتمر وعلى ملامح الحضور الصدمة والترقب، الشارع ينفجر غضبًا، الأمن يفرض سيطرته، والشعب لا يزال ينتظر تحركًا واحدًا. كنت أسير وسط الحشود، أرى السيد كونتي في

الشاشة متوترًا يتعرق ويراقب ما ينتظره. انقطع البث وبدأت الفوضى في الشارع.

عدنا إلى الباخرة لمتابعة الأخبار، للبيان صدى واسع في كل أنحاء العالم، إلغاء المؤتمر، ملاحقة شعبية لكونتي والمطالبة بالقبض عليه، لقد نجحت الخطة، وتم كل شيء على ما يرام.

«أحسنتم يا أولاد..

مارتينا أحسنتِ إلقاء الخطاب..

أوليفيا الفضل لعبقريتك في فك شفرات الحماية والسيطرة على لوحات الإعلانات..

تالا أشكرك على مجهودك».

سألتني ماري: «أين مروان؟».

فقلت: «ينفذ الحركة الأخيرة في لعبتنا».

ـ أي حركة؟

رددت: «ستعرفون كل شيء بعد قليل».

مرت ساعة وبينما يتابع الأولاد الأحداث عبر التلفاز، رن الهاتف: «مروان، كيف تسير الأمور معك؟».

ـ سيدي، أنا بالفعل في أعلى المباني المقابلة لغرفة مكتب السيد بيربتوف، أنا أراه بوضوح ويمكنني قنص رأسه، لكن هناك شيئًا ما لا بُد أن أخبرك به.

سألته في تعجب: «ماذا هناك؟!».

رد مروان: «السيد (كارتزوني) أخوك الأصغر، يجلس مع السيد بيربتوف».

8

القاهرة

بعد ليلة روتينية معتادة في صالة الكازينو، أسبوع مر أبطأ من إشارة مرور محطة العتبة، وصال التي وقعت في فخ صداقتنا وأصبحت قريبة جدًا مني، وعليا التي تتعمد اللعب بعيدًا عن الطاولات التي أديرها لتتجنب الشكوك حولنا، وبعدما حضرت الاجتماع الإلكتروني مع السيد ديفيد شاهين ليخبرني بأحدث المستجدات، اليوم إجازة ولا ينتظرني إلا الجلوس مع عليا. غدوت في نوم عميق حتى استيقظت على صوت الهاتف.

«صباح الخير يا ياسين».

ـ دليدا، كيف حالك؟

ـ اشتقت لك يا ياسين، اشتقت لك كثيرًا.

ـ كيف تسير الأمور معكِ يا صديقتي؟

ـ لست في أفضل أحوالي، هل لديك وقت لنتناقش؟

ـ كل الوقت.

قالت: «ما زلت لا أفهم نية ديفيد شاهين، قبل ٦ أشهر كنا مجموعة من المجرمين القتلى الذين يبحثون عن الانتقام لدوافعهم الشخصية، ثم أصبحنا الآن مجموعة من الإصلاحيين نيتهم فضح الأنظمة الفاسدة، صدى الأحداث في إيطاليا بإمكانك سماعه في اليونان، ولا أتوقع أن ينضم العالم لنا ويساندنا، فالأنظمة السياسية عتيقة مُلطخة بالفساد، لن يسمحوا لنا في مواصلة أهدافنا النبيلة، ربما سيتحدون علينا للنيل منا، وفي الأساس نحن لسنا صالحين لنرفع راية الصلاح أمام العالم».

- جميل أن يستيقظ المرء يوم إجازته على هذه الأفكار المعقدة يا دليدا، يسعد صباحك.

ضحكت دليدا: «أنا آسفة، لكنني لم أنم حتى الآن، أتمنى لو أكون مثلك يمكنني أن أضع رأسك على الوسادة فأنام مهما كانت مشكلاتي وأزماتي، لكنني ما إن أضع رأسي وأستعد للنوم حتى تطاردني أفكاري، تظهر أمامي كفيلم سينمائي بأدق التفاصيل، أصارع من أجل التغافل عنها، أراجع كل أحداث اليوم وكأنني أكرره في مكاني، أراجع الكلمات، أتذكر الأحداث، أعاتب نفسي حين أخطئ وأشعر بآلام جديدة كلما تذكرت كلمات مسمومة أفسدت قلبي. أنا مُتعبة من أفكاري ومخاوفي يا ياسين، بينما أبدو في غاية الهدوء، تركض غزلان في رأسي لا تتوقف لا تهدأ، تضرب رأسي بأقدامها حتى يصبح أشبه بالبركان، وحين يهدأ كل شيء وأغدو في النوم، تطاردني هذه الأفكار في كوابيسي لأبدأ فصلًا جديدًا من المعاناة في عقلي الباطن».

قلت لنفسي معقبًا على كلمات دليدا: «لا تملك ثمن شراء علبة سجائر، ثم يأتي أحمق ليحسدك على ما تملك.

حسنًا يا دليدا، شخصيًّا لا يهمني ما يقوم به ديفيد شاهين، أنا لا أملك ما يمكنني البكاء عليه، أرى هذا الرجل يراوغ المافيا والثوار والسياسين، ولنكن صادقين مع أنفسنا، لا توجد أهداف نبيلة في هذا العالم، في الماضي خرج علينا بعض الشباب الثوري ينددون بأهداف نبيلة، تعاطفنا وانضممنا لهم، ثم ماذا حدث؟

انقلب عليهم فصيل آخر، ثم بدأت التفرقة الثورية، الرغبة في السلطة، الرغبة في مواصلة التطهير الثوري، الرغبة في تحقيق أهداف وأفكار خاصة. تفرقوا وأصبح وجودهم كالأشباح.

ثم أين ذهبت الثورة؟

في الصور، في الفيديوهات والأغاني، ذكرى جميلة نتذكرها ونبتسم.

ومن دفع ضريبة هذه الثورة؟

الفقراء أمثالنا يا دليدا، نحن وحدنا من دفعنا ضريبة كل هذا، ضريبة التفريق والتقسيم والأطماع السياسية والاتفاقيات والخطط، نحن من دفعنا ضريبة الإصلاحات الجديدة، ونحن من دفعنا ضريبة كل الخراب الذي حدث طيلة هذه السنوات، وما دُمنا دفعنا في الماضي فلماذا نرفض الفرصة حين نصبح الطرف المُستفيد من اللعبة؟».

ردت دليدا: «ماذا تقصد يا ياسين؟».

أجبت: «ما دام العالم لن يسقط فوق رؤوسنا فليسقط العالم يا دليدا».

تنهدت داليدا، لقد استسلمت لكلماتي فشعرت أن لا جدوى من مواصلة هذا النقاش، فسألتني: «ألم تفتقدني؟».

منذ فترة وأنا أشعر أن دليدا تحاول الاقتراب مني بطريقة مُختلفة، أنا أعرف حالتها وأعرف الاضطراب الذي تعاني منه، لذلك أقترب للحد الذي يجعلها تطمئن وأبتعد للحد الذي يجعلها تراني لكن لا تعانقني.

رددت عليها ببرود متعمد: «نعم أفتقدك، سعيد بمكالمتك وأتمنى أن تتكرر، كوني بخير».

حاولت معاودة النوم لكن دون فائدة، حسنًا لتبدأ مهام اليوم، اللعنة على كل شخص يوقظك مبكرًا في يوم العطلة.

اتصلت بعليا فطلبت مني المجيء إليها في مدينة الرحاب، بعد ساعتين من السب واللعن في المارة وأصحاب السيارات والباعة الجائلين؛ وصلت إلى مدينة الرحاب، وهناك كانت عليا تنتظرني في إحدى الشقق الفارهة. كانت عليا جميلة وفاتنة، قوامها ممشوق كفرسٍ جامح، يعانق قدميها خلخال فضي، وشعرها اللامع المنسدل على ظهرها يزين اللوحة جمالًا وإثارة، خصوصًا بعدما أعدت لي فنجان القهوة. سألتها: «لماذا دعيتيني إلى هنا؟».

ردت وهي تنظف الشقة: «لترى بعض ذكرياتي».

اتجهت نحو المذياع، ثم وضعت أحد شرائط الكاسيت لمحمد منير، وبدأت في الدندنة: «في دايرة الرحلة درونا تحلى.. آه يا حبيبي عمري..

وصحبتي وقمري..

عيون مرة تبعد..

خطاوي مرة تعاند..
حنين جوانا يبكي..
وشوق جوانا يبكي..
والدمع زي الكبت..
ليه يا سنين العمر..
ترضي لنا بالمر؟
دا لولا فينا الصبر لهان علينا العمر».

واصلت وهي تدندن: «المشكلة يا ياسين أنني بعدما قررت التراجع عن فكرة الهروب مع أختي، واخترت البقاء مع أمي، كنت أعلم علم اليقين أن القادم أسوأ، لقد كان بقائي يعني الموافقة على كل ما يحدث فلم يعد لدي حق الاعتراض أو الرفض، ربما هذا كان أصعب ما في القرار، فالاعتراض أحيانًا رسالة لنفسك أنك ما زلت تقاوم وترفض الوضع حتى لو كان الاعتراض شفويًا لا توابع له، لكن الخضوع والقبول يهزمك على المدى البعيد، ويجبرك على التأقلم تحت أي وضع، وقد كان، ظللت مع أمي التي انكسر قلبها بعدما علمت بهروب أختيّ، لكن كان مفعول الهيروين يجعلها تنسى كل المأساة التي نعيشها، يجعلها تنسى حتى وجودي معها، مرت أيام وأيام وأصبحت أمي مريضة حبيسة الفراش، ضعيفة وهزيلة ومثيرة للشفقة، فكان من الطبيعي أن يبحث زوج أمي عن سيدة أخرى، وقد كان وتزوج من بهية، وهنا كانت نقطة فارقة، لم يعجب بهية بقائي مع أمي، بل أصرت على انضمامي للفتيات، لا أعرف سر هذا الإصرار، لست محللة نفسية ولا أعرف السبب الحقيقي وراء هذا الإصرار، فأنا لست أجملهن، ولست أفضلهن، ولا أملك أي خبرة

للتعامل مع الرجال، ربما كان إصرارها هو الغيرة من بقائي مع أمي، فكانت تقول لأمي من وقتٍ لآخر أنها محظوظة بوجودي معها، التي لم تعترض حتى على إصرار وطريقة بهية القاسية في التعامل معي، تملك الإدمان والهذيان منها وها هي تنتظر الموت.

أتذكر ذات يوم سألتني بهية: «هل أنت جاهزة للزواج؟».

قلت لها: «لا، ما زلت أهتم بعناية أمي، لا يمكنني الابتعاد عنها».

ردت بهية: «الحي أبقى من الميت، وأمك قد ماتت بالفعل ولم يتبقَ منها إلا أنفاس معدودة، يكفيها، لا للمزيد من جرعات الهيروين، المنطق يقول أن نبدأ فيما سيحدث بعد وفاتها».

رددت وأنا أسخر منها: «وفاة أمي يعني نهاية الشيء الوحيد الذي يربطني بهذا المكان».

قالت بثقة: «نجوم السماء أقرب لكِ، في الحقيقة ستبقين معنا حتى بعد وفاة أمك، لقد أصبحتِ جزءًا منا ونحن لا نتخلى عن شركائنا».

قلت لها: «لن أبقى مهما كلفني الأمر».

ردت وهي تضحك: «لو كان ما نقوم به يزعجك لانضممت لأختيكِ وهربتِ معهما، لكنك أصررت على البقاء معنا، أنت تحبين عملنا وتخجلين الاعتراف بهذا».

ـ لم أهرب معهما لأنني أردت الحفاظ على حياة أمي.

أعطتني وقتها ردًا لن أنساه أبدًا: «الناس لن يتذكروا تضحياتك من أجلهم، ولن ينسوا أخطاءكِ أيضًا».

هذه الجملة ظلت في أذني طوال الوقت.. الناس لن يتذكروا تضحياتك من أجلهم، لا أحد منهم سيقول لقد أعطى الكثير لنا وقدم أشياء ثمينة، الناس لن يقابلوا تضحياتك بالمعروف ولن يبادلوك العطاء، بل سيظنون أن عطاءك لهم هو فرض أنت مجبر عليه. لن تحتفظ قلوبهم بالمعروف، لكنهم سيحتفظون بكل أخطائك وينتظرون الوقت المناسب للنيل منك بها.

ماتت أمي وكانت وفاتها رحمة من عند الله لينقذها من الإدمان، وأصبحت أنا العروس المنتظر في السجن الكبير».

توقفت عليا عن الحديث، واتجهت لغرفة النوم، فتحت دولابها، ثم أخرجت من باطنه شنطة كبيرة وواصلت: «هنا كل عقود زواجي، أكبر مدة زواج كانت أسبوعين».

قلت لها بسخرية: «عقود زواج! ما فائدتها؟».

ردت: «الموضوع أشبه بمُسكن للضمير سواء لبهية وزوجها أو لزبائنها، التحايل على الحرام بأقذر الطرق وأسوأها (نحن لا نزني، فالزنا محرم في كل الأديان، نحن نتزوج على سنة الله ورسوله) هكذا كانت تقول بهية للفتيات ولزبائنها».

سألتها: «زواج عرفي؟».

أجابت: «صنفه كيفما تريد: زواج رسمي، إشهار، زواج عرفي، زواج مُتعة، أيًا كان، في النهاية كل المسميات في وضعنا هذا كاذبة ومتلونة، فنحن أشبه بسوق الجواري، بإمكان أي رجل فحص أعضائنا بيديه قبل عينيه، وبهية تصنفنا لفئات، الجميلة الشقراء مهرها مُختلف عن الجميلة السمراء، الممشوقة تختلف عن البدينة، حتى فتيات المُدن تختلف أسعارهن عن فتيات الريف. السادية لها

مهرها الخاص، الخاضعة لها مهر مُختلف، من تجيد الرقص مهرها أغلى من العادية، والتي تحب الخمر والحشيش لا تشبه التي لا تشرب، الدقة في التصنيف بطريقة مُذهلة، فالأمر يستحق، فزبائنها لهم ثقل ووزن، لا يختلفون كثيرًا عن زبائن الكازينو. تزوجت سبع مرات يا ياسين، المرة الأولى لا تُنسى، فقد كان يوم فقدت عذريتي، أتذكر شعوري وقتها، كنت أريد الانتحار والخلاص من هذا العبث.

الطفلة التي رسمت مستقبلها بألوان وردية جميلة، تخيلت أن تقضي حياتها مع شخص تُحبه ويحبها في منزل هادئ ولطيف، فجأة تحولت لامرأة تتزوج كل يوم، والعطاء مشروط بالمقابل. الطفلة التي كانت تخجل من مشهد رومانسي في فيلم عربي، الآن تبذل قصارى جهدها لإسعاد زوجها العابر الذي يريد التمتع بها تعويضًا عن المقابل الذي دفعه.

رجال باختلاف أشكالهم وصفاتهم وميولهم يشتبهون في القذارة والدناءة، أصبحت عروسًا مُتحركة لا أملك خطوط حياتي، أوافق على كل ما يطلب مني دون إبداء حتى رأيي، ومع نهاية مُدة زواجي من كل شخص، تزداد رغبتي أكثر في قتلهم، أصبحت عدوانية بطريقة غريبة، لا أطيق رؤية هذا الصنف الملعون، الذي دمر وحطم حياتي، كنت أبتسم أمامهم، وفي نفسي أتمنى لو أقطع أجسادهم وأقدمها وجبة دسمة للكلاب».

تحركت عليا ناحية المكتب، وأخرجت كتابًا صغيرًا، ثم أخرجت منه عقدًا آخر وظلت تتأمله بعينيها.. واصلت وهي تتحدث برقة لم أرها منها من قبل: «آدم.. العقد الوحيد الذي أحتفظ به بعيدًا عن كل عقود الزواج التي وقعت عليها مع رجال آخرين، هذا

العقد مُختلف تمامًا كاختلافه عن كل الرجال الذين تزوجتهم، كان يوم عادي ككل الأيام الباردة التعيسة التي نقدم فيها كل طاقتنا ولا ننتظر المقابل».

قاطعتها وأنا أشعر بالملل: «أرجوك يا عليا، أنا لست هنا لسماع قصتكِ الرومانسية، حتى الآن لم تجيبي لماذا قتلتِ كل هذا العدد من الرجال؟».

ردت في هدوءٍ تام: «لأنهم تسببوا في كل هذه المأساة التي أعيشها، زواجي من آدم كان مُختلفًا يا ياسين، لقد دفع أكثر من المهر المعتاد لبهية، شرط أن نسافر ونقضي الثلاثة أشهر هنا».

رددت: «جميل، ها قد حانت فرصتك للهرب».

ابتسمت: «هكذا ظننت، خصوصًا بعدما وافقت بهية سريعًا، كانت أطول فترة أقضيها خارج المنزل، كانت تصرفات آدم غريبة، أظن أنه لم يتحدث معي ولو لمرة واحدة، كان يبتسم في وجهي ثم يسألني: هل كل شيء على ما يرام؟ فأقول له: نعم، فيرد: إن احتجت لأي شيء ستجديني دائمًا بجوارك. كنا نكتفي بهذه الكلمات كل صباح، ثم يغادر ويعود في المساء، ظل الوضع شهرًا كاملًا، يخرج في الصباح ثم يعود في المساء ينام وهكذا، الجميل أنه لم يأتِ يومًا إلا ومعه هدية يتركها لي على باب الغرفة، لقد شعرت ولأول مرة بأنني أنثى يمكن مهاداتي بالهدايا والكلمات اللطيفة، بالطمأنينة، بأنني لن أستيقظ على رجل قد قرر الزواج مني وعليّ طاعته وإسعاده، شعرت بأنني فتاة لديها مشاعر وقلب وتسعدها الأشياء البسيطة، لكنني وفي الوقت نفسه بدأت أشعر بالملل لأنني لا أعرف ماذا سيحدث، وقد كنت نويت الهروب بالفعل والبحث عن أختيّ، لكنني لا أعرف نية

آدم رغم اللطف الذي هو عليه، فقررت التحدث معه، وذات مساء استقبلته بعشاء رومانسي، نظر إلى الطاولة باستغراب ثم ابتسم وقال: «هل هناك مناسبة؟ ما هذا العشاء الجميل؟».

رددت: «أنت تستحق أن أعاملك بلطف يا آدم».

ضحك آدم ثم قال: «الكثير من الأسئلة تدور في ذهنك منذ قرابة شهر.. أليس كذلك؟».

هززت رأسي: «نعم، وأحتاج إجابة منك على كل هذه الأسئلة».

وهو يأكل رد: «حسنًا، لك كل الحرية والوقت».

_ لماذا تذهب لهذا المنزل؟ تبدو عليك الأخلاق النبيلة.

قال: «مشكلة الرجال أنهم منقسمون لقسمين، القسم الأول هو المهذب الجميل، الذي كان يذهب مبكرًا لمدرسته، يجلس في الصفوف الأمامية، يحبه المدرسون، ينافس كل عام في أوائل الطلبة، يعامل الجميع بلطف وود، هم كذلك أولئك الذين يحصلون على أعلى الدرجات في الثانوية العامة، ثم يلتحقون بكليات القمة، ويتوظفون ثم يتروجون فتاة رأتها أمهم، ويواصلون حياتهم على هذا النهج. القسم الثاني هو من احترف طريق الضياع منذ طفولته، المُشاغب، المُتحرش، البلطجي، الفاشل، السارق، السيكوباتي، والمُدمن، كل هذه الطرق البائسة. بين القسمين قسم آخر هو الأذكى بين الطرفين، المشاغب الذي تراه في قمة الهدوء، الذي يجلس في الصفوف الأخيرة، لكنه على علاقة بزميلته في الصفوف الأمامية فتساعده في تجاوز الامتحانات، الذكي الذي يحافظ على مظهره العام، لكنه لا يخسر على طاولة القمار، الموظف المُتأخر عن العمل، لكن وقت الأزمة تجده أفضل من يعطيك حلولًا سحرية للخروج

منها، وهو ذاك الذي يملك مكانة اجتماعية مرموقة، ومعروف عنه الأدب والأخلاق، لكنه زبون دائم في مكانٍ مشبوه، وهو نفسه الذي يجلس أمامك الآن».

بعفوية رددت عليه: «يعني باختصار أنت شخص مُنافق».

أجاب وهو يضحك: «النفاق أن أتحايل على الحلال وأتظاهر به أمام الناس وأنا عربيد وسيكوباتي، أنا لا أتظاهر ولا أدعو الناس لترك المعاصي والتوبة إلى الله، هذا ليس عملي من الأساس، كل ما في الأمر أنني شخص بطبعي هادئ ومُتزن، ولا أحب مشاركة تفاصيلي الخاصة لأي شخص مهما كان. صحيح والدتك كانت محقة حين قالت أنك تملكين لسانًا قد يقيم حربًا عالمية».

باستغراب قلت: «أمي! هل تعرفها؟».

وهو ينهي طعامه أجاب: «أمك كانت سيدة جميلة، من أطيب النساء اللائي عرفتهن وأجملهن».

قاطعته: «أرجوك لا أريد منك أن تحدثني عن روعة وأنوثة أمي».

رد: «لوالدتك فضل كبير في تغيير شخصيتي، لقد صححت كل أخطاء حياتي».

ضحكت وأنا أقول لنفسي: «وهي نفسها التي دمرت وحطمت حياتي وحياة أختيَ».

رد وهو يتجه للحمام: «أنتِ قاسية عليها رغم بقائك معها وتفضيلها عن الجميع، والدتك لم تكن سعيدة بما يحدث، لكنها كانت مريضة بُعقدة الحرمان، لقد عانت كثيرًا من الفقر والجوع لسنواتٍ طويلة، وحين سنحت الفرصة لحياة الرفاهية كان كابوسها

الوحيد أن تعود لحياتها القديمة، حتى أنها كانت على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيل ألا تشعر بالجوع والحرمان مرة أخرى، الكابوس الذي يجعل الناس يقبلون بالإهانة، والذل، يقبلون بأي وضع مهما كان وضيعًا ودنيئًا ما دام يمنعهم عن الفقر».

استقبلت كلماته في صمتٍ تام وأنا أتساءل: «صحيح أنها كانت تخشى علينا من الفقر والجوع، لكن ألم تخشَ علينا من الدعارة؟ ألم تخشَ على أجسادنا من مخالب وأنياب الرجال؟».

خرج من الحمام، ثم مدد جسده على الأريكة وطلب مني كوب شاي. أعددت له ولنفسي ثم جلست على الكرسي المقابل له، بعد دقائق واصل: «والآن تسألينني: لقد كانت تخشى عليكن من الفقر لكنها لم تفكر في أمر حياتكن في منزلكن البائس، فما قيمة الثراء إن كنت تعيشين حياة قذرة من النجاسة والعهر، صحيح؟».

رددت: «نعم، فلا يوجد فرق بين رجل ثري يعاشرك بالإكراه، ورجل فقير يقوم بنفس العمل».

رد: «صحيح هذا ما نعرفه جميعًا، لكن والدتك كانت مصابة بأوبوروفوبيا، وهي فوبيا التعامل بقسوة وقرف مع الفقراء خوفًا من ضياع ما تملكه من ثراء، هي ترى كل شخص فقير قنبلة موقوتة تنتظر اللحظة المناسبة للانفجار في وجهها، هذا ما يجعلها ترى أن الدعارة مع رجل ثري لا تهدد استقرارك المادي والاجتماعي، لكن الدعارة مع رجل فقير قد تصيبك بلعنة الفقر، والدتك كانت مريضة نفسية يا عليا».

لم أجد كلمات مناسبة للرد عليه، كانت مشاعري متضاربة، بين السخط والرفض لكل تصرفات أمي وبين التعاطف معها،

أحيانًا ألقي كل اللوم عليها فيما حدث لنا، وأحيانًا أتخيل كيف كان صراعها الداخلي وهي تخشى علينا من الفقر. كل إجابات آدم تثير أحاديثي الداخلية، لكن لا يزال سؤال أخير لم يجِب عنه فسألته: «ولماذا نحن هنا الآن؟».

أجاب: «لتنفيذ وصيتها».

- أي وصية؟

- في أيامها الأخيرة، طلبت مني الحفاظ عليك وحمايتك من بطش بهية وزوجها.

ضحكت ساخرة: «لقد أتيت في الوقت المناسب، لقد تزوجت ٦ مرات فقط!».

رد: «ربما تأخرتِ فعلًا، لكن كان هذا لسبب وجيه أيضًا».

- وما الذي حدث جعلك تتأخر كل هذه المدة؟

قال: «لا يهم، على أي حال سأحاول الهروب بك، لكن علينا العودة أولًا».

- الآن نحن معًا بعيدًا عن بهية وزوجها، ساعدني في العثور على أختي أو حتى أي طريقة لأغادر مصرًا.

قال: «العودة أمر ضروري وحتمي، موافقة بهية على سفرنا وقضاء شهر العسل معًا في مكان بعيد عن المنزل ليس كرمًا منها، هي بالطبع تعرف أنكِ ستحاولين الهرب، لذلك لقد اتخذت احتياطاتها مسبقًا».

- لا أفهم، أي احتياطات تقصد؟

- ربما لا تعرفين أنها تضع كاميرات مراقبة في كل غرفة.

رددت على الفور: «لا يهم لا يهم، فلتكن الفضيحة، لا أحد يعرفني من الأساس».

رد: «أنا أملك عائلة وحياة اجتماعية وعملية جديرة بالاحترام، ولن أسمح أن تهتز هذه المكانة».

ـ هذه مشكلتك أنت يا آدم.

رد آدم: «أنا أحاول مساعدتك وقد أُعرض حياتي للخطر، وأنتِ لا تفكرين إلا في إنقاذ نفسك! حسنًا استعدي للعودة إلى المنزل وانسي كل ما قلته».

كان عليّ الموافقة حتى لا أخسر الأمل الوحيد في الخروج من هذا السجن. اتفقنا على العودة إلى المنزل ومحاولة إقناع بهية بزواجنا بطريقة شرعية، لكن سرعان ما قوبل اقتراح آدم بالرفض رغم عرضه المالي القوي، كان رفضها لسبب وجيه ومُقنع، فلماذا تبيع سلعة لمُستهلك واحد ينتفع بها للأبد، ما دام بالإمكان أن تؤجر السلعة لكل مُستهلك يرغب فيها؟ وهنا تصبح المكاسب أكبر. بهية كانت امرأة ذات عقلية اقتصادية فذة، صحيح أنها لم تستكمل دراستها، لكنها كانت «معلمة»، خبرتها في الحياة كانت كافية لإدارة شؤون هذا المنزل، ولخبرتها الكبيرة ورغم رفضها لعرض آدم، لكنها لم تمنعني عنه، ولم تحاول حتى مناقشتي عما دار بيني وبينه طوال الفترة الماضية، الغريب أنها كانت تعاملني بلطف، والأغرب شعوري تجاه آدم، كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالود، الردود اللينة واللطيفة. اعتدت أن ينفجر بركان الغضب في صدري في صمت تام، لكن في وجوده كان يجاهد حتى أشاركه لحظات غضبي ويهدأ من ثورتي بكلمات رقيقة، الحزن والضيق ذاك الذي قضيت

أيامي أعاني منه وحدي، كان يحاول أن يهون عليّ ويبتكر الأشياء الجميلة لإسعادي، حتى شغفي الذي انتهى تجاه الأيام فلم أعد أبالي بمرورها، أصبحت أنتظر نهاية اليوم حتى أتحدث معه، أخبره بكل الأشياء التي حدثت، مخاوفي التي ظلت تتصارع في رأسي كان يضع لها حدًا بكلمات الطمأنينة، فلطالما كان يسعى ألا أحمل أعباء الحياة. مجرد محاولاته لإسعادي نفسها كانت تسعدني.

أن يحبك أحدهم، يهتم لأمرك الذي تهمله، يفكر في رضائك وبطمئنك، يعرف خطورة البقاء معك ومع ذلك يصر عليه، يضحي بكل ما يملكه ولا ينتظر منك إلا أن تبقى بجواره.

هل رأى الحب سكارى؟ سكارى مثلنا.

آه يا ياسين لو تعرف حالة الحب التي كنت أعيشها، لقد اقتحم حياتي وزينها بأدق التفاصيل، فتاة مثلي ولدت في شقاء وعاشت في شقاء وتحملت المسؤولية مبكرًا، حملت هم أمها وأختيها، والآن أصبح هناك من يحمل همي ومسؤوليتي، كان -بكل صدق- إحساسًا جميلًا ومُختلفًا، كانت الحياة في هذه الأيام أشبه بحلم جميل في منامك تتمنى لو تقضي أيامك كلها هناك».

ضحكت عليا وهي تقول: «لكن الحياة ليست وردية والحلم مهما بدأ جميلًا في النهاية هو حلم يحتاج تحقيقه لمعجزة، وكانت معجزتي شبه مُستحيلة بعدما وافقت بهية على زواجي بطريقة شرعية، لكن ليس من آدم، بل كان من أحد الرجال العرب الأثرياء. أخبرت آدم بما سمعته فانفجر غضبًا وبدأ يتفوه بكلمات انتقامية، في هذه اللحظة أدركت أن القادم أسوأ. استمر هذا الوضع أسبوعًا حتى تناقشت مع بهية التي كانت صادقة معي بطريقة مؤلمة.

بهدوء قالت: «أعرف أنكِ تحبين آدم يا عليا، الحب أجمل شعور سيمر عليكِ، لهذا أنتِ لا تتقبلين الزواج من رجل آخر، أنا أحب هذه القصص، لكنني لا أقبل باستمرارها طويلًا، ليس كرهًا في سعادة الآخرين، لكن خوفًا عليهم من الواقع، وواقعك لن يسمح لك باستمرار هذه العلاقة، أنتِ لا تملكين قرار نفسك يا عليا».

رددت: «لكنكِ رفضتِ زواجي الشرعي من آدم رغم العرض المالي الذي عرضه عليكِ، والآن توافقين على هذا الرجل؟».

قالت: «هو يريد الزواج الشرعي منكِ لأن حكومة بلدته تُحرّم وتُجرّم الزواج العرفي، ثم إن حياتك لن تتغير كثيرًا، ستذهبين إعارة إلى هناك، ثم تعودين إلينا مرة أخرى، الرجل جُن بجمالك ويريد إشباع رغبته بكِ، ثم الاستفادة منكِ».

رددت عليها بعصبية: «أنا لستُ قطعة أرض، أريد أن أتحرر من هذا السجن».

ضحكت من عصبيتي وقالت: «أنتِ أرخص من ذرة تراب في الأرض، قلت لكِ لا تملكين قرار نفسك».

في هذا اليوم جاء آدم للتحدث مع بهية وزوجها، كان النقاش حادًا أشبه بمعركة. كانت بهية في غاية الهدوء رغم انفعال آدم وتوعده بالانتقام منها، حتى قررت بهية أن تبتكر لعبة شيطانية: «أنا مُقدرة انفعالك، لكن هذا الانفعال لن يجعلنا نوافق على زواجك من عليا، لذلك لدي فكرة ربما تعجبك وتوافق عليها، ستلعب على طاولة البوكر ضد الرجل العربي، ويبدأ الرهان بالمبلغ الذي وضعته، حال هزيمتك سيصبح بإمكاننا التصرف كيفما نشاء حتى في الفيديوهات الخاصة بكما، لكن إن فزت فهنيئًا لك عليا».

رد آدم الذي لم يفكر طويلًا: «والفيديوهات؟».
قالت: «كلمة شرف لن تخرج من مكتبنا».
أمسكت بيد آدم وقلت: «هل أنا رخيصة لهذا الحد يا آدم؟».
رد بكلماته اللينة المعتادة: «لا، بل أنتِ جميلة تستحقين أن يتصارع الجميع للفوز بكِ».
قضينا معًا يومًا كاملًا، لا أعرف هل كنا نستعد للحياة الأبدية معًا أم كنا نودع بعضنا البعض، أنا لا أستحق أن يضحي أي شخص من أجلي حتى لو كان زبونًا معتادًا في هذه الأماكن المشبوهة، لا أملك ما يجعل أي شخص يدافع ويقاتل من أجلي حتى ولو بأبسط الأشياء، ولن أستطيع رد أي معروف قُدم لي مهما كان، هذه الحقيقة التي أعرفها ولا يمكن التملص منها.
ـ لماذا وافقت على هذا الرهان يا آدم؟
ـ لا يمكنني التنازل عنكِ يا عليا.
تنهدت: «آدم، إياك أن تنسى مكان لقائنا، إياك أن تنسى ماذا أكون أنا».
كانت في عينيه كلمات قاسية، شعرت بها قبل أن ينطقها، ضغطت عليه حتى يقول ما في خاطره وقد كان فقال: «يضعنا القدر أحيانًا أمام المسؤولية، إما أن نتحملها وإما أن نهرب منها ونعيش في عذاب ضمير لن ينتهي، لقد وعدت والدتك أن أحاول الهروب بك من هذا السجن، وعاهدتك أن أحافظ عليكِ ولم يكن في حسباني أن تصل الأمور لهذا الحد، لكنها أصبحت أكبر وأكثر تعقيدًا مما توقعت، الآن يجب عليّ مواصلة ما بدأته».

في نفسي أدركت أن ما في قلبه ليس حبًا كما ظننت، رغم كل ما قام به من أجلي، إن لم يكن الحب هو السبب الوحيد للتضحية فما الشيء الذي يجعل المرء يضحي من أجله؟ كلها أسئلة قطعها وأجاب عليها آدم حين قال: «أعتذر عما سأقوله، لكنني اعتدت أن أكون صادقًا مع نفسي، قد أكون رجلًا سيئًا، لكنني لم أقطف وردة، لم أعتدِ على حيوان، لم أترك أمي تبكي ألمًا بسبب تصرفاتي، وحين أرى فتاة لا زالت بريئة أحميها من عربدتي وبؤسي، ولم أسمح لأحد أن يظن عني بما ليس فيّ من حُسن وحب، لذلك ما يجمعني بكِ ليس حبًا كما تظنين، أنتِ جميلة تستحقين الحب، لكنني لا أصلح لكِ، ما يربطني بكِ هي المسؤولية تجاهك. أحيانًا تكون المسؤولية أشد رباطًا من الحب، وأحيانًا تجعلنا نقدم عطاءات وتضحيات أكثر مما يقدمه الحب. لا يمكنني إنكار أن ثمة مشاعر راودتني في علاقتي بكِ، لكنني كنت أدفنها في صدري وأتصرف تجاهك بعقلانية أكثر، بسجيتي التي بدأت بها معكِ. أنا هنا لأساعدك على الهروب من هذا السجن، إن تزوجنا فلن يحدث إلا مرور فترة وجيزة ثم تصبحين حرة، وهنا سأكون أنهيت دوري ووفيت بوعدي الذي قطعته على نفسي مع والدتك، وإن لم نتزوج سأحاول مرة أخرى حتى لا أعيش عذابًا أبديًا من تأنيب الضمير بأنني لم أحاول».

ظللت صامتة أمامه، كانت الحقيقة مؤلمة، لكنها صادقة، ولا أعرف أيهما أفضل على قلبٍ مُنكسر، أيظل في الوهم يبني أحلامًا وخيالات لا وجود لها، يُسكّن آلامه بأمنيات لن تتحقق، ويزيّف صدق مشاعر الأشخاص حوله، أم يصطدم بالحقيقة ويتقبلها، يتعذب بالآلام حتى يستفيق ويتقبل كل الأفكار التي كان يأمل

في تجنبها؟ لا أعرف بالضبط ماذا كنت أحتاج في هذا الوقت، لكنني أتذكر ما قاله حين اقترب مني وهو ينظر لعيني: «وإن حدث مكروه يا عليا وانتهينا للأبد.. إياكِ أن تنسي شخصًا قدم لكِ معروفًا مهما كان بسيطًا، فمن ينسى الأشخاص الذين قدموا مساعدة له لا يؤتمن، ناكر للجميل وللمعروف لا أصل له. إياكِ أن تتبرأي من ذكريات جميلة صنعتيها مع شخص رحل عنكِ، وإياكِ أن تُفشي أسراركما حتى بعد نهاية علاقتكما، لا تندمي على عطائك، ولا تتحدثي عنه، فهذه من صفات الضعفاء. الحب أجمل ما يشعر به الإنسان، لكن اللعنة أن تُحب وأنت لست مُستعدًا للحب، ستظلمين الطرف الآخر وتظلمين نفسك، ربما في البداية ستعيشين أيامًا جميلة، لكن مع الوقت ستتحول أزهار الحب الجميلة إلى أشواك جذورها في قلبك، لأنك لن تعودي قادرة على العطاء، ولن تشعري بقيمة ما يقدم لكِ، سيتبلد قلبك، وتنطفئ رغبتك في مواصلة هذا الحب، ويصبح حملًا وعبأً عليكِ، واحلمي يا عليا، الحلم يجعلنا نتقبل قسوة الحياة، الأحلام خلقت لتدفعنا للأمام، لتجعلنا أقوياء نستطيع تحمل وتجاوز الأشياء الصعبة.

القوة في الحلم، فكلما كنتِ قوية وعنيدة أمام الحياة كلما تحققت أحلامك، فالأحلام في بلدتنا يلزمها قوة وعند، ومهما تغيرت الأشياء حولك، الأفكار، العادات والمبادئ؛ انتشر الظلم والقبح، وخسرتِ كل الصراعات التي تخوضينها في حياتك، إياكِ أن تخسري نفسك، فكل الأشياء التي رحلت عنكِ يمكن أن تستبدل وتعوض إلا نفسك، هي الوحيدة التي إن رحلت عنكِ لن تعود أبدًا».

شخص مثل آدم لم أفهمه يا ياسين، لكنني أحببته حتى وإن كان لم يحبني، كان قاسيًا في مواجهتي، لكنه كان يملك كل اللين في تطييب خاطري. سمعت في إحدى الأغاني جملة: «كان طبعه قاسي لكنه بردو كان جدع».

مر اليوم وقد حانت لحظة المبارزة.. كان المنزل خاليًا من الزبائن، لا أحد إلا أنا وآدم وبهية وزوجها والرجل العربي، يلعبون على الفوز بي، مجرد التفكير في هذه المسألة، جعلني أشعر بالاشمئزاز من نفسي، لكن ما باليد حيلة يا ياسين، لا أملك إلا الموافقة والخضوع كالعادة، فمنذ نعومة أظافري وأنا لا أملك خيارات أخرى.

بدأت اللعبة التي أدارتها بهية بكلمات تعمدت إيذاء قلبي بها: «الفائز اليوم لن يحصل على مقابل ماديّ، بل سيحصل على الدجاجة التي تبيض الذهب، سيحصل على كنز من الإثارة والمتعة يجعل كل الرجال يتهافتون عليه بالأموال حتى ينالوا ليلة واحدة لمضاجعتها، يا حسن حظ الفائز ويا سوء حظ المهزوم، فبعيدًا عن الأموال التي سيخسرها سيكون لنا حق في مزيد من المتطلبات».

شعر آدم بأذى الكلمات في قلبي فقال: «لا داعي لهذه المقدمات المُبتذلة، لنبدأ اللعب».

بدأت الجولة الأولى وانتصر آدم.. الجولة الثانية كذلك.

راودني الأمل، خطوة واحد تفصلني عن الخروج من السجن الكبير، سأعود فتاة عادية حُرة بإمكانها أن تهرب، أن تنعزل أو حتى تصبح اجتماعية، سأضحك لأنني أريد الضحك ليس من أجل إسعاد زبونها، ستتزين لنفسها لا لإثارة الزبائن، ستختار هي بنفسها الرجل الذي تريد أن تعيش حياتها معه، لن تهرب من الضجيج، ولن

يرعبها الظلام، ولن يوقظها أحد من نومها حتى تستعد لمقابلة أحد، سأصبح حرة ولم يتبقَ على الحرية إلا خطوة واحدة.
الجولة الأخيرة، كنت أنا وآدم نتبادل نظرات السعادة، في الوقت الذي بدأ الغضب يسيطر على الرجل العربي.. وبينما يستعد آدم للرهان الأخير وفي لمح البصر.. أخرج الرجل العربي مسدسه.. وأطلق النيران.. فسقط آدم متأثرًا بجراحه».

توقفت عليا عن الحكي، كانت لحظات خاصة بالنسبة لها، لم أستطع مقاطعتها، انهمرت في البكاء الصامت، ذاك الذي لا ترى منه إلا الصمت والهدوء، بينما الصراخ هناك يضرب قلبك ويرعد أعصابك، لا أحد يسمع صوت صراخك إلا أنت، لا أحد يشعر بسكاكين الآلام إلا قلبك، لا أحد يشعر بك، أنت وحدك تمامًا تعاني وتتألم وتبتسم، وربما تواصل مهام يومك رغمًا عن حطام قلبك ومأساته.

واصلت عليا: «في مشهدٍ سينمائيّ، ووسط صمت الجميع، توقفت كل عقارب الساعة، وبات التقاط أنفاسي يحتاج لثبات ومعجزة حقيقية، تلك اللحظة التي لا تشعر بقدميك وهما تحملانك، عدم استيعابك للموقف، صدمتك وشعورك بأن روحك تخرج من جسدك بكل الآلام التي مرت عليك طوال حياتك، لم أرَ ولم أبالِ إلا بوجوده. هرولت نحوه يا ياسين، هرولت نحوه وعانقته وهو غارق في دمائه، لا ينطق، لا يتنفس، لا يشعر بما حوله، سقط بجراحه وبكل آمالي في الخروج من هذا السجن.

- آدم، انهض أرجوك! انهض يا آدم، لن تتركني وحدي، لقد عاهدت أمي وعاهدتني، ألم تقل إنك لن تتخلى عني وأيًا كان ما سيحدث سنبقى معًا؟! انهض يا آدم، أنا أعرف أنك لا تحبني، لكنني أحبك. ألم تخبرني أنك لن تسمح للحياة أن تؤذيني مرة أخرى؟ أستحلفك بالله أن ترد عليّ، لنخرج من هنا، أليس هذا هدفك يا آدم؟ لن يعترض طريقنا أحد، وإن حدث سأقتله، انهض فلك في الحياة عملك وأصدقائك وعائلتك، وأنا، ألا أستحق أن تعيش من أجلي كما تحملت كل الصعاب من أجلك؟

كنت أرتجف يا ياسين وأنا أعانقه وهو جثة هامدة على الأرض، لا أظن أنني تألمت من فراق أمي كما تألمت لفراق آدم، ربما كانت المواقف كفيلة أن تجعل حبي لأمي أقرب للواجب والطاعة، لكن آدم كان أولى اختياراتي في الحياة. المرء يحن ويحب أول الأشياء التي يختارها قلبه حتى لو لم تبادله نفس الحب والشعور، بوفاة آدم سيفتقده أصدقاؤه، ستحزن عائلته وتبكي زوجته، ويعلن رفقاؤه في العمل الحداد على زميلهم، لكن مع مرور الوقت ستلهي الحياة أصدقاءه، ومع أول مولود جديد ستنسى عائلته مرارة فقدانهم لآدم، ستتزوج زوجته، وبعد ٤٨ ساعة من وفاته ستعلن الشركة عن حاجتها لموظف جديد، لن يتوقف العالم وهذا لا يعيب العالم، كل شخص سيواصل عالمه وحياته، لكن الوضع يختلف معي، فقد كان هو عالمي الوحيد، هو عائلتي، أصدقائي، أهدافي، أحلامي وآمالي، كل منهم سيواصل حياته، لكن أنا توقفت حياتي، أنا انتهيت يا ياسين، أتفهمني؟ لم أفقد آدم كشخص، بل فقدت ما تبقى من حياتي معه، بالنسبة للعالم فقد مات آدم، بالنسبة لي فقد مات عالمي».

فجأة نظرت عليا إلي وسألتني: «أريدك أن تتعرف على شخصٍ ما، هل تمانع؟».

كنت في حاجة للخروج بالفعل فلم أمانع.

خرجنا من المنزل وانطلقنا بسيارتها دون أن تخبرني بوجهتنا، وفي الطريق واصلت: «مرت الأيام وتزوجت من الرجل العربي وسافرنا إلى إحدى الدول العربية، وكما توقعت لقد أباح عرضي لأصدقائه بعد شهر واحد من الزواج، كلما نظرت له كلما تذكرت غدره بآدم، أصبحت أكره كل الرجال، لا أطيق سماع أصواتهم، طريقتهم، أشكالهم وملامحهم، حتى اللطيف منهم أراه مجرد وغد لم يبرز أنيابه بعد، ظلت الرغبة في الانتقام من كل رجل تطاردني، حتى جاء يوم، ورفضت الخروج مع زوجي للقاء أصدقائه، وبعد شد وجذب استدعى الطبيب الذي أخبرنا بما لم نتوقعه.

«زوجتك حامل وفي الشهر الثالث».

كل فتاة بداخلها أم، كل فتاة تنتظر لحظة معانقة طفلها وهو عارٍ لا يزال مرتبطًا بجسدها في لحظاته الأولى في الحياة، الأمومة غريزة أنثوية، مهما كانت حياة الفتاة صعبة تنسى كل الصعاب فور علمها بخبر حملها، وأنا مثلهن شعرت بتلك اللحظة من السعادة والحب والشكر لله، لكن على قدر الحلم يصدمنا الواقع بالمواقف والتجارب، سؤال واحد لم أجد إجابة له: «ماذا سأقدم لطفلي ليعيش في هذه الدنيا؟».

كيف سيعيش هذا الطفل في هذه المأساة التي أعيشها كل يوم؟ كيف سيعيش طفولته وهو يرى كل يوم رجلًا مختلفًا يداعب أمه وينام بجوارها في الفراش؟ ماذا لو رزقني الله بفتاة؟ ستعيش نفس

المأساة التي عشتها بكل تفاصيلها، لن أستطيع حمايتها من هؤلاء الأوغاد، سيتكفلون بها من طفولتها، ستنعم بكل سُبل الرعاية حتى تنضج أنوثتها كما يجب، وحينها ستصبح الفرخة التي تبيض الذهب لهم، ربما ستعيش حياتها تدعي عليّ، تسبني وتلعنني كلما سمعت اسمي، مُستقبل مُظلم ينتظر طفلي والحل الوحيد ألا يولد هذا الطفل من الأساس.

حين اقترحت الأمر على زوجي لم يعترض، كان مُتقبلًا للفكرة تمامًا لأنه يعلم أضرار ومخاطر وجود طفل في هذه الظروف التي نعيشها، لكن وحين أصبحت قاب قوسين أو أدنى من العملية، فوجئت برفضه وإصراره على الولادة في مصر، سألته عن سبب الرفض المفاجئ لكنه لم يجب. ظللت قرابة أسبوعين قبل السفر أفكر في هذا التغيير المفاجئ، وفي صباح العودة إلى مصر راودتني مشاعر تجاه زوجي ضعيف الشخصية، من العار أن يُقتل آدم على يد هذا الطفل الكبير، وما دام طفلي سيعيش فمن الخزي أن يكون هذا أبوه. لم أتردد للحظة، فبعدما جهزت حقيبتي وهو نائم، أمسكت مسدسه، ثم وبكل هدوء أعصاب أطلقت النيران على رأسه: «هذه من أجل آدم»، بصقت في وجهه: «وهذه من أجلي»، ثم خرجت في هدوءٍ تام وكأن شيئًا لم يكن.

اتجهت إلى المطار وانطلقت الطائرة إلى مصر، فوجئت بأنني أرى زوجي وزوج أمي في ملامح كل الرجال العائدين إلى مصر. من المفترض أن هذه المرة الأولى التي أقتل فيها، فمن الطبيعي أن أرتجف، أخاف، أشعر بالندم أو الحسرة، لكنني لم أكن كذلك، بل كنت أتمنى لو كان بإمكاني أن أقتل كل الرجال في العالم، حينها

تأكدت أنني أُصبت باضطراب نفسي، والغريب أن هذا الاضطراب لا يزعجني، بل كنت أنتظر العودة بفارغ الصبر حتى أفكر في الضحية القادمة، لم أفكر حتى في الملاحقة الأمنية، سؤال واحد فقط كان يدور في رأسي: لماذا رفض زوجي عملية الإجهاض؟ ما إن خطت قدماي أرض مصر حتى وجدت بهية تنتظرني، وبابتسامة عريضة قالت: «اشتقت لابنتي»، لم أرد عليها، لم أكن مستعدة لخوض أي مناقشة. وصلنا للمنزل وهناك سألتها: «لماذا رفضتِ عملية الإجهاض؟»، إجابتها كانت أعمق من تفكيري، فقالت: «لنواصل السيطرة عليكِ». لم أفهم سر ما قالته وقتها، كنت مُتعبة ومُنهكة تمامًا. مر يومان حتى علمت سلطات دولة زوجي بقتله في المنزل، وهنا جاءت بهية لتتحدث معي: «البقاء لله، لقد قتل زوجك في عشكما الزوجي».

رددت وأنا أصفف شعري: «مسكين، البقاء لله».

ردت بهية: «تقتلين القتيل وتمشين في جنازته».

من المرآة نظرت لها: «ماذا تقصدين يا بهية؟».

ردت بهية: «بعد خمس أشهر ستضعين مولودك الأول والأخير، بالطبع بيئة السجن لن تكون ملائمة لنشأته».

أنكرت تسميحاتها فأخرجت من حقيبتها hard disk وقالت: «أنتِ مدينة لنا بخدمتين، الخدمة الأولى أننا استطعنا سرقة الهارد الخاص بالكاميرات الداخلية للمنزل، هنا دليل إدانتك وما دام معنا فأنتِ لستِ مُتهمة بشيء، ترى ما المقابل الذي تستطعين دفعه؟».

قلت في غضب: «أنتِ تكذبين».

وضعت الهارد ديسك على اللاب توب وقالت: «حسنًا لنرى الحقيقة إذًا».

عُرض في الفيديو كل الليالي التي قضيتها معه في فراشنا الزوجي، ثم قالت بقذارة ونشوة: «لو كنت أهوى النساء لما أفلتكِ من يدي أبدًا». لم أبالِ بكلماتها، فمثل هذه الكلمات عادية بالنسبة لفتاة مثلي، ثم ظهر في المقطع تفاصيل الجريمة، صدقًا كنت مُعجبة بنفسي وأنا أقترب منه وأصوب المسدس نحو رأسه، المشهد أثار رغبتي في القتل أكثر، فدون أن أبالي قلت لها: «أحتاج نسخة من هذا المقطع». فوجئت بطلبي الغريب المفاجئ، لكنها كررت سؤالها مرة أخرى: ماذا ستقدمين لنا حتى لا نقدم هذا المقطع للسلطات المصرية؟

رددت وأنا أخلع ملابسي أمامها: «أنا جاهزة للبدء في العمل من الآن».

لكنني فوجئت بردها حين قالت: «حسنًا، لقد اتفقنا على الطلب الأول، أمامك دين آخر ستسددينه لاحقًا، على أي حال ستعودين للعمل بعد فترة وضعك للطفل، سواء كان ولدًا أو بنتًا، فنحن بحاجة لطفل سوي».

خرجت من الغرفة دون أن تبرر كلماتها.

مرت الأيام دون حدث يذكر، حتى وضعت طفلي الأول.. دعني أقول لك أنني حين رأيت ابنتي نسيت كل الآلام التي شعرت بها ومرت بي طوال حياتي، أن ترى جزءًا من روحك، ملامحك، شخصيتك، تفاصيلك، جزءًا منك يتجسد أمامك، تداعبه، تلمس وجهه لتتأكد أنه حقيقي، هذا جزء من ضلعك، من جسدك. قبّلتها

على جبينها، كانت فتاة في غاية الجمال، تشبهني بكل تفاصيلي، أنا جميلة يا ياسين وابنتي أكثر جمالًا مني».

توقفنا أمام إحدى المدارس، خرجنا من السيارة ثم دخلنا من البوابة، وهناك كان الأطفال يلعبون في حوش المدرسة، نادت على إحداهن: «سيلا.. تعالي يا سيلا».

اتجهت الفتاة نحوها بسرعة جنونية، ثم ارتمت بين ذراعيها: «اشتقت لكِ يا ماما، اشتقت لكِ».

نظرت إليّ الطفلة ثم سألتها: «من هذا الأبله؟».

قلت لعليا: «تشبهك في كل شيء، حتى ألفاظها الجميلة».

ضحكت عليا: «ألم أقل لك أنها جميلة؟».

قبلتها بعدما ودعتها عليا وهي تقول لها: «سأعود لكِ قريبًا يا حبيبتي».

كانت تداعب طفلتها بلطف الدنيا، تشعر وكأنها تعوضها عن كل اللطف والود الذي حُرمت منه طوال حياتها. أحيانًا افتقادنا للحنان يجعله أكثر ما نقدمه لأحبائنا، ربما في هذه اللحظة تعيش عليا التي حلمت به طويلًا، أن تذهب لطفلتها في منتصف يوم دراسي، تتحدث معها بلطف وتتباهى بدرجات ابنتها المتفوقة، ثم توعدها بفسحة في نهاية اليوم تكريمًا لهذا التفوق.

ـ جميلة أليست كذلك؟

رددت وهي تودعها: «تشبهك كثيرًا في كل شيء».

وقفنا بعيد نتابع طفلتها وهي تلعب مع أصدقائها فواصلت عليا: «لكل شيءٍ مقابل، قد تدفع عمرك ضريبة لتحقيق أحلامك، وقد تدفع صحتك وشبابك ضريبة لاستقرارك المادي. قد ترغم على

الزواج من شخص لا تحبه ضريبة لاستقرارك الاجتماعي، المجد ضريبته عناء الطريق، والأمل ضريبته الصبر والصمود. ربما كانت أزمتي أنني أدفع كل الضرائب الممكنة على أبسط حقوقي في الحياة، فكانت ضريبة الحياة لابنتي هي حياتي أنا. صحيح أن الأمر لم يكن غريبًا بالنسبة لفتاة مثلي ضحت بشبابها ضريبة لحياة أمها، وصحيح أنني كنت أتمنى لو كان بإمكاني أن أعيش فترة دون أن أضحي، لكن هذا ما لم تمن عليّ الحياة به.

عُدت للعمل ولم تنطفئ رغبتي في قتل الرجال، لكن كان العائق الوحيد هو مكان الجريمة، لذلك قررت أن تكون خطتي مُحكمة، فبدأت في الخروج إلى الملاهي الليلية، أتابع الزبائن وأحوالهم، زواج تلو آخر، وبحث وراء بحث، حتى قررتُ الكازينو المُستهدف الذي التقينا به، وهناك بدأت في التواجد بشكل مُستمر حتى أصبحت زبونة معتادة. واحدة من الأشياء المُضحكة أنك كنت تحاول أن تُمهد الطريق حتى لا أخسر في اللعبة».

نظرت لها وسألتها: «تتعمدين الخسارة؟».

ردت وهي تخسر: «نعم، الضحية التي أريد النيل منها، أتعمد الخسارة أمامها حتى يتثنى لي اللقاء معه في مكانٍ بعيدًا عن أعين الناس».

- وطريقة القتل؟

رددت: «من أجل آدم يا ياسين.. مشهد قتل آدم يراودني طوال الوقت، لا يغيب عن عينيّ إلا حين أقدم لروحه رجلًا آخر. أجلس فترة في هدوء، ثم يعود المشهد من جديد يطاردني في كل مكان ولا يختفي إلا بهذه العملية».

ـ يبدو أننا على وشك النهاية يا عليا.

ردت:

نعم، كل ضحاياي من الرجال، هذا ما قررت حتى تغير الأمر، منذ ثلاثة أشهر، كنت أشتري ملابس جديدة، وفور عودتي للمنزل وكعادتي أتجه سريعًا لغرفتي حتى أطمئن على ابنتي، وفي هذا اليوم لم أجدها، بحثت عنها في المنزل لكن دون جدوى، ذهبت إلى بهية التي قالت في هدوء أنها تجلس في الحديقة مع أحد الرجال، بصقت عليها ثم هرولت للحديقة، وهناك وجدت طفلتي تجلس بقميص نوم ويداعبها رجل في الستين من العمر، صرخت في وجهه وخطفتها منه، ثم عُدت إلى بهية، انهلت عليها بالشتائم واللعنات فقالت: «بعض الرجال مصابون بعشق الأطفال، وفتاتك تبدو لها مُستقبل باهر في هذا المجال، لماذا لا نستفيد منها؟».

رددت وأنا أهددها: «ستكون دماؤك بحرًا أستحمى به إن اقتربتِ منها».

ردت: «لنستحم بدماءِ عذرية ابنتك».

مسكت السكين ووضعتها على رقبتها: «قتلت مرات ومرات ولن أخشى قتل امرأة نَجسة مثلك».

كانت تضحك فتصيبني بالجنون.

أريد أن أقتلها، أدفن السكين في رقبتها، وأُمتع عيني بنظراتها وهي تتألم، ومن صوت آلامها أغني وأرقص وأتمايل، كنت أريد أن أقتلها. والقتل يا ياسين شعور إنساني نبيل وصادق، الرغبة الأولى دائمًا حين يدس أحدهم السم في أوردة قلبك، يحكم عليك بالموت واقفًا أمامه، منكسرًا مهزومًا وقلبك يتفتت ويتساقط رويدًا، كان ما

يمنعني من النيل منها هي ابنتي، أخشى عليها من المستقبل، ماذا سيحدث لها بعد إلقاء القبض عليّ؟ كيف ستمر أيامها وهي في عرين السباع؟ لذلك كانت تضحك بهية، تعرف أنني لن أقتلها مهما هددتها وتوعدت بالانتقام، تعرف عن يقين أنني لن أورط ابنتي في مستقبل لن يختلف كثيرًا عن ذاك التعيس الذي أعيشه.

قالت وهي تبعد يدي عنها: «نحن لن نمل من المعركة ضدك، لذلك أمامك خياران، الأول إما أن تردي الدين الثاني كما اتفقنا في سبيل عدم المساس بحياة ابنتك الخاصة، والثاني لن يكلفنا الكثير، سنواصل المعركة وفي النهاية ستنهار قوتك وتحققين رغمًا عنكِ ما نريده منكِ، لو كنت مكانك لاخترت الموافقة سريعًا على رد الدين، حفاظًا وتوفيرًا لطاقتك في تربية ابنتك».

قلت لسيلا: «حبيبتي عودي لغرفتك ونامي».

ردت سيلا: «أمي أحتاج لكِ».

تنهدت ثم قبلتها من رأسها: «سأتبعك يا حبيبتي.. حسنًا ماذا تريدين يا بهية؟».

ردت: «لن نطلب الكثير يا عليا، أنا أعرف أنكِ مُتمرسة في القتل، لذلك نحتاج منكِ قتل إحداهن».

رددت: «أنا لا أقتل النساء يا بهية».

قالت بهية: «أعرف، لكن هذه العملية دين قديم علينا لأحد زبائننا، وقد أراد سداد الدين، ونحن لن نتهرب منه».

ـ هذه مشكلتكم أنتم يا بهية، أنا لا أقتل النساء.

ـ إذن أنت مصممة على المناهدة، حسنًا لك حرية الاختيار يا حبيبتي.

صمتت عليا لفترة طويلة ثم واصلت:

في صباح اليوم التالي، أيقظت سيلا واتجهنا لمدرستها، لم يطمئن قلبي إلا بعدما رأيتها تدخل باب المدرسة، ظللت أتابعها ثم رحلت، كنت مُتعبة فلم أنم بعمق خوفًا على سيلا، عُدت للمنزل وغدوت في نوم عميق، حتى استيقظت على صوت الهاتف: «ألو، مدام عليا لقد تعرض الباص المدرسي لحادث أليم، وتم نقل سيلا للعناية المركزة، نحن في انتظارك».

نهضت من على سريري كالمجنونة، تجاوزت السرعة المحددة على الطريق، كسرت كل الإشارات المرورية. «سامحني يا الله على كل ذنب اقترفته أرجوك أنقذ ابنتي! أرجوك يا الله أنقذ ابنتي الوحيدة! هيَ كل ما أملكه في الحياة، أرجوك يا الله أنقذها فلا سند ولا عون لنا إلا أنت!»، ما إن وصلت المستشفى حتى وجدت بهية تجلس وتنتظرني.

ـ لا تقلقي يا عليا، ستكون بخير.

ـ أريد رؤيتها يا بهية، أريد رؤيتها.

من الزجاج العازل للغرفة، رأيتها والأسلاك موصلة في جسدها الضعيف.

ـ دكتور أرجوك أنقذها.

لم يرد الدكتور، وظل ينظر إلى بهية.

ـ أرجوك يا دكتور افعل كل ما في وسعك.

نظرت للدكتور مرة أخرى.

ـ هذا زبون دائم عندنا.

ـ ماذا يحدث يا بهية؟

ردت: «تعالي معي يا عليا».

دخلنا غرفة الدكتور ثم قالت: «هذه تذكرتك، ستغادرين مصر لتنفيذ العملية.. وفور عودتك سنكتب حياة جديدة لابنتك».

تنهدت.. واستسلمت.

لم تكذب فلقد كان الصراع أقصر مما توقعت.

وافقت بعد أول ضربة.. وخضعت لها.. وغادرت مصر.

نفذت المطلوب مني، ونفذت هي وعدها بإعطائي حق التصرف في حياة ابنتي، وقد كان وقررت نقلها من المدرسة القديمة إلى مدرسة الراهبات، وعليه إخفاؤها عن كل المحيطين بي.

سألت عليا: «أين نفذتِ هذه العملية؟ ومن هي الفتاة التي قمتِ بقتلها؟».

توجهنا ناحية السيارة ونحن في طريق العودة لمنزلي قالت: «لن أقول لك أي تفاصيل بخصوص هذه العملية».

اللعنة! بعد كل هذا الهراء الذي سمعته.

ـ هذا ليس اتفاقنا يا عليا.

ـ لا هذا اتفاقنا، لقد أخبرتك بقصة حياتي.

قلت في غضب: «أريد تفاصيلًا عن هذه العملية تحديدًا».

ردت في هدوء: «ياسين، إن أخبرتك بهذه التفاصيل ستكون حياة ابنتي عرضة لخيانتك أو زلة لسانك».

قلت: «ثقي بي يا عليا».

ضحكت: «أنا لا أثق في أي رجل يا ياسين، اعتبر أنني خلفت الاتفاق، افعل ما يحلو لك».

وصلنا إلى المنزل.. حسنًا لا جدوى.. لن تتحدث ولن تخبرني بالجانب الأهم في القصة.

ـ أرجوك يا عليا.

ـ أرجوك يا ياسين، لم أعد أملك ما يمكنني إخبارك به، وداعًا.

بخيبة وحسرة وشعور باليأس والعجز صعدت للمنزل، وما إن فتحت الباب حتى فوجئت بوجود أحدهم يتحرك في أركان المنزل.

9

نابولي

«المافيا لن تسامحنا».

أنهيت المكالمة معه بعدما أمرته بالعودة إلى القصر، كانت علامات الحيرة على وجوههم، لكن ليس بإمكاني الآن أن أخبرهم بما حدث، ما كنت أفكر به هو إنهاء الاجتماع سريعًا، وقد كان، فقلت لهم: «الآن الشارع الأوروبي في انتظار لقاء آخر، وفضح رمز جديد من رموز الفساد العالمي، لقد قذفنا الحجر في بركة مياه راكدة، وحان الآن متابعة المجريات الجديدة، لنرى كيف ستختبئ الحيتان حتى تهدأ آثار الزوبعة، وأي منهم سيغامر ويقرر مواصلة أعماله. الغرور هو آفة هؤلاء، فما علينا إلا استغلال هذه الثغرة. سنعيش فترة سريعة ومتوقع حدوث مفاجآت، ولذلك وجب علينا التأهب والانتظار مؤقتًا. لا تغادروا القصر، اكتفوا بمتابعة الأخبار. ليلة سعيدة».

أنهيت لقائي بالأولاد، ثم قضيت يومين في غرفتي أكتفي بمتابعة الأخبار، لا أستبعد انعقاد اجتماع طارئ لرجال المافيا، ولا أستبعد شن ضربات شرسة على ممتلكاتي وأعمالي، لذلك طلبت من مروان تعزيزات أمنية في كل شركاتنا، لا يهم إن كانوا لا يملكون رخصة للسلاح، فحين تشن المافيا ضرباتها لن تفرق الحكومة بين الأسلحة المُهربة والمُرخصة. اقترحت يمنى تصفية ممتلكاتنا هنا والسفر إلى أمريكا مع مواصلة كشف الفساد من هناك، أيدها الأولاد، لكن لم ينتبه أحد بأن كل أصابع الاتهام في أروقة المافيا تشير نحونا، وتصفية أعمالنا يعني تأكيد التهم نحونا. المافيا كالأخطبوط، لهم أذرع في كل مكان، ولن ننجو منهم ولو كنا في باطن الأرض، كان الحل الدفاعي الوحيد أن نزرع أجهزة تسجيل في قصر بيريتوف، وحدث بالفعل بفضل مارتينا وأوليفيا. ظلت الأفكار تطاردني حتى طلب مني سراج وماري مراجعة تسجيلات ياسين وعليا والمناقشة حولها. كان اقتراحًا مثاليًا لسببين: السبب الأول: لأنني ما زلت على اتفاقي مع كاستلو، والثاني: أنني في حاجة للتفكير في شيءٍ آخر.

أعدنا التسجيلات، ثم طرح سراج السؤال الأول: «لماذا لم تذهب لأختيها وتطلب منهما مساعدتها مرة أخرى؟».

قالت ماري: «حتى لا ترى حقيقتها»

- بمعنى؟

- هي تعرف أنها بالنسبة لأختيها عاهرة يا سراج، تعرف أن أختيها يتبرآن منها، لن يسمحا لاستقرارهما الاجتماعي أن يُدنس بساقطة تطلب مساعدتهما، حتى لو كانت هذه الساقطة هي أختهما.

حين تجبر على طريقة حياة لا تناسبك، حياة تجبرك أن تكون شخصًا سيئًا، تعرف عيوبك وكلما نظرت للمرآة رأيت شخصًا ممسوخًا يشبهك؛ حينها ستتجنب كل الأشياء التي تذكرك بهذا المسخ. المريض لا يحب مواجهته بمرضه، والناس لا يقتلون المرض بل يقتلون المريض، لن تتحمل نظراتهم وكلمات اللوم منهم، ولن تتحمل نصائحهم، ليس لأنك تملك كبرياء يجعلك ترفض النصيحة، لكن لأنك تعرف صدق كلماتهم، لأنك تجلد ذاتك كل يوم لأنك تملك هذه العيوب والندبات، ولأن الحقيقة ستصدمك وتصفعك، فما فائدة مواجهة المريض بمرضه إن كنت لا تملك العلاج؟ ما فائدة مواجهة القبيح بقبحه إن كنت لا تملك ما يجعله جميلًا؟ ما فائدة أن تحدثني عن ظلامي إن كنت لا تملك مصباحًا يضيء هذه العتمة؟ ليس كل السيئين يشعرون بالرضا عن أخطائهم، بل الكثير منهم يتمنون لو أعطى لهم القدر فرصة واحدة ليصنعوا حياة جديدة لهم.

وجه سراج نظرات إليّ ثم سألني عن رأيي فقلت: «لو كنت مكانها لذهبت وعاقبتهما عقابًا عسيرًا على تخليهما عني. هاتان الوغدتان تستحقان الدفن بالحياة».

واصلت ماري في سياقٍ آخر: «أنا لا أصدق أن يضحي آدم بحياته من أجل عليا بدافع المسؤولية».

ضحك سراج ثم قال: «وأنا أيضًا، لقد أحبها، أقسم لك أحبها حتى لحظاته الأخيرة في الحياة، لكنني أعرف معنى أن يحب رجل شرقي فتاة ليل، أعرف كيف يغمض عينيه عن ماضيها ويقع في حبها، وكيف تطارده الأفكار فجأة فيتراجع ويحكم على قلبه، ما

بين إعطاء فرصة أخرى لتطهير كل آثار العهر الذي نال من جسدها، وما بين ظنونه أن هذا العهر لن يُمحى مهما حدث. لقد أحبها، لكن كبرياءه الشرقي منعه من الاعتراف بهذا الحب، فقرر تزييفه وتجميله بالمسؤولية، لقد أراد أن يُسكن كبرياءه بهذه الكلمة حتى يستطيع مواصلة حياته معها».

قلت له: «تبدو متأثرًا بالقصة يا سراج».

أجاب نافيًا: «لا، ولكني لا أصدق أنه فعل كل ذلك بدافع المسؤولية».

عند ذلك قالت ماري: «الحياة أكبر من أن تختصرها في شخص واحد، نهاية العلاقة لا تعني نهاية الحياة، وإن فاتك قطر الحبِ فقطر الثراء والسلطة ينتظرك ويستحق أن تفني عمرك من أجله، وكان آدم يريد الحفاظ على حياته».

رد سراج: «إن الحياة لا تنتهي مع نهاية علاقة كنا نريد استمرارها، لكنها لا تسير بالشكل الذي كنا نتمناه، أحيانًا نهاية علاقتك بشخص تحبه كفيلة أن تغير حياتك.. للأبد».

باغتتني ماري بنظرات أفهمها، كأنها تريد أن تقول: «وأنت كيف سارت الحياة معك يا ديفيد؟».

أجبت عليها في نفسي: «أنا قوي يا ماري، استطعت تجاوز رحيل لورين، واستطعت صُنع حياة أخرى، أردت أن أثبت لها أن حياتي لن تتوقف بغيابها، وأنها مثلما اختارت الزواج بإرادتها، استطعت أنا بإرادتي سلك طريق والدها، الرجل الذي رفضني لأنني في نظره ضعيف، لأنني أردت أن أعيش في سلام بينما كان يبحث هو عن رجل يحتمي به، يواصل مسيرته في عالم المافيا. سلكت

طريق والدها الذي لم تقف أمامه وتدافع عني، بل التزمت الصمت وكان صمتها شهادة وفاة لعلاقتنا. أردت أن أكسر يقينها بأنني لن أحيا من دونها، وأنني ما زلت حيًا، ما زلت أركض وأحارب، وما زلت أملك حلمًا يستحق القتال من أجله، وأنني أصبحت الرجل الذي تمناه والدها لها، وألد أعداء الرجل الذي اختارته زوجًا لها».

من حالة الصمت ومتابعة التسجيلات، قاطعتنا ماري حينها وبنبرة يغلب عليها التساؤلات قالت: «السيد ستيفانو باكا، عمدة بلدة باري».

زيارة مفاجئة لم أتوقعها، أذنت له بالدخول، رحبت به ترحيبًا يليق بمكانته، قدمت له ماري النبيذ، ثم جلسنا، نظر لسراج وماري ففهمت أنه يريد التحدث معي على انفراد؛ خرج الاثنان بالفعل، وبعد الكأس الأول قال: «سمعت أنك انشققت عن المافيا الإيطالية، لا أعرف أسباب انشقاقك، لكنني جئت لعقد صفقة معك».

قلت: «أي صفقة؟».

قال: «يقولون أن المجموعة التي تنوي فضح الفاسدين في إيطاليا وأوروبا خرجت من قلب المافيا الإيطالية لينتقموا من بعضهم البعض، تحرياتنا تحوم حول الرجل الحقيقي وراء هذه المجموعة، ورغم انشقاقك عنهم لكننا لا نشك في ولائك لهم ولنا، كذلك أنت تعلم أننا نملك أيضًا ما يجعل الشعب الإيطالي يطالب بإعدامك في ميدان عام، كذلك ما زلت تدير أعمالك في إيطاليا كما لو أن انشقاقك لم يكن، أنت الصندوق الأسود للمافيا، وببساطة نريد أن نتعاون، تخبرنا بكل ما تعرفه وكل ظنونك حول المسؤول عن عائلة ديڤالو في مقابل: سنمحي من سجلاتنا ما يثبت فسادك وجرائمك، صفقة عادلة أليس كذلك؟».

نهضت من كرسي المكتب، وجلست أمامه ثم قلت: «سيد ستيفانو، زيارتك لقصري تسعدني كثيرًا، لقد رحبت بك باحترام، ولا أظن أن عدم احترامي جزاء استقبالي الكبير لك، صحيح أنني انشققت عن المافيا، لكن أنا لست خائنًا، الموت عندي أهون من الخيانة».

رد ستيفانو: «صدقني يا ديفيد، الأجهزة الأمنية تعد عدتها للقبض على أغلب رجال المافيا، أنت تعرف أن ما حدث أثر على صورة حكومتنا ودولتنا، وأنا أعرف ولاءك لإيطاليا، وأنك لن تقبل بأن يصيبها أعوام الظلام، حكومتنا كذلك لن تقبل وسترد بكل ردع وقوة، لن يفلت أحد بعملته وأنا أريد الأمان لك».

تحركت ناحية الباب وأنا أقول له: «اقتصاد إيطاليا مهترئ بسبب الفساد، أنتم تحاولون تحسين صورتكم من أجل الحفاظ على مناصبكم، لا من أجل تحسين الوضع الاقتصادي في بلدتنا، إذًا هذه مشكلتكم يا ستيفانو، وصدقني لو كنت أرى أن التعاون معكم يصب في مصلحة بلدتنا، لبادرت أنا بعقد الاتفاق، لكن أنت هنا لتنقذ كونتي، كما قلت لك مصالح شخصية، أما عن الأمان فمن لا يستطيع الفوز بنفسه، لا يستحق أن ينعم به. أقدر مشاعرك النبيلة، لكنني لا أنتظر مساعدتك حتى أنعم بالأمان».

نهض ستيفانو، واستعد للخروج.. وقبل أن يخرج قلت له: «لقد قلت أنني مُستبعد أن أكون مسؤولًا عن عائلة ديڤالو لأنني ما زلت هنا، حسنًا ابحث في السجلات عن الشخص الذي اختفى قبل الأحداث الأخيرة في إيطاليا».

ابتسم ستيفانو: «شكرًا لك».

من خلف زجاج الشرفة تابعته وهو يخرج من القصر، فاستدعيت أوليفيا على الفور، وسألتها عن مدى جودة جهاز التنصت الذي وضعته في غرفة المكتب الخاص ببيريتوف. قالت: «إن الجودة ممتازة، ولكن لم يدخل بيريتوف غرفته منذ يومين»، طلبت مروان على الهاتف وسألته عن تحركات بيريتوف فقال: «إنه تحرك من المنتجع الخاص به بسيارة انتظرته بالخارج، ثم انطلق وفي طريقهم للقصر، مع الأسف لم أستطع رؤية الشخص الذي انتظره»، أمرته بمتابعتهم وإبلاغي بالمستجدات، واستدعيت سراج وماري وذهبنا لغرفة أوليفيا.

- أنا أثق أن ستيفانو سيلتقي ببيريتوف.

مرت ساعة حتى اتصل مروان: «توقفت العربة أمام القصر، ما زلت لا أستطيع تمييز الرجل الذي رافق بيريتوف طوال الطريق، لكنني أعرف هيئته».

- حسنًا يا مروان، اصعد للمبنى المقابل وراقبهما وأخبرني بما ترى.

- أوامرك سيدي.

بدأت الأصوات تقترب من غرفة المكتب.

- عودة حميدة يا صديقي، كيف حال عائلتك؟

- الأمور على ما يرام، لماذا أصريت على لقائنا هنا؟

قلت لنفسي: «أعرف هذا الصوت، أعرفه عن ظهر قلب».

في نفس الوقت قال بيريتوف: «أنت تعرف يا جورج أن اختفائي في المُنتجع سيجعل الشكوك تحيط بي، وقد أخبرني أحد عملائي بزيارة السيد ستيفانو عمدة باري لمدينتنا، وبالطبع لن ينهي هذه الزيارة إلا بزيارتي».

- ولماذا أصريت على وجودي في هذا اللقاء؟
- لأن اختفاءك يزيد الشكوك حولك، وجودك في هذه الفترة في غاية الأهمية، صحيح أنك تعاني من آلام فقدانك لأحد أبنائك، لكن فترة حدادك ربما ستنتهي بقتلك من المافيا بتهمة الخيانة أو وضعك في السجن بتهمة قلب نظام الحكم، أنا لا أقبل بهذا لك يا جورج.

قلت لسراج ونحن نستمع لهما: «بيربتوف الوغد الذي يجعلك تشعر كأنه أبوك، يهتم لأمرك وينصحك، وقد يبكي خوفًا عليك، فتشعر بالامتنان وتستعد لتقدم روحك فداءً له. بيربتوف يسيطر على حلفائه بروح الأب الذي يخشى على أبنائه من المخاطر».

جورج شخص جاف، لا يعرف كيف يرد على مثل هذه الكلمات، فسأل بيربتوف: «من المسؤول عن هذه الجماعة؟».

أجاب بيربتوف: «لا أعرف، ولا أعرف مناسبة الزيارة المفاجئة لستيفانو، لكن لربما يكون مبعوثًا لجس نبض رجال المافيا، أنت تعرف أن ستيفانو خبير في التعامل معنا، ويعرف كيف يفاوضنا وكيف يحصل على ما يريد، لننتظر زيارته لنا».

بعد دقائق من الصمت سأل جورج: «كيف حال ديفيد؟».

ضحك بيربتوف ساخرًا: «ديفيد، مسكين، ربما الآن يجلس وينظر لصورتك مع زوجتك ويبكي، لقد نجحت خطتنا وتم طرده من الجماعة، والآن يبدو أنه أصبح موظفًا يدير أعماله فقط».

ضحك الاثنان ثم واصل بيربتوف: «جميل أنه حتى الآن لم يتم القبض على كونتي، يبدو أنها زوبعة وانتهت».

رد جورج: «ربما، لكن زيارة ستيفانو لنابولي مريبة، الشارع لا يزال مُلتهبًا، وربما في زيارته سر ما لا نعرفه، ما زلت أرى أيضًا أن ديفيد يشكل خطرًا علينا، صحيح أنه لا يملك قوة لرد الفعل، لكن لا تزال دوافعه الانتقامية تشغل رأسي، أرى أن نضعه تحت المراقبة، فلا أحد يعرف ما يخبئه لنا المستقبل».

بثقة قال بيريتوف: «نحن نقوم بهذا بالفعل، أحد رجالنا في قصره يتابع كل شيء عن كثب».

نظر سراج وماري لبعضهما، نظرات الشك والترقب.. قلت: «ستعرفون كل شيء فيما بعد».

بعد دقائق سمعنا صوت شخص ما يخبر بيريتوف بأن السيد ستيفانو في الخارج.

ـ حاول ألا تتحدث كثيرًا يا جورج.

بعد دقائق

ـ ستيفانو، اشتقت لك يا صديقي.

ـ كيف حالك يا بيريتوف؟ كيف حالك يا جورج؟

ـ أهلًا سيد ستيفانو، يا رجل، تأتي لنابولي دون أن تخبرني!».

ضحك ستيفانو: «في الحقيقة هذا لا يصح، لكنني جئت نابولي لأبحث عن كبيرها».

رد جورج بغضب: «يبدو أن حركة إظهار الفساد الأخيرة، أفقدت رجال الحكومة صوابهم، لنابولي قادة جديرون بالاحترام يا سيد ستيفانو».

رد ستيفانو: «ومن العار أن أذهب لبلدكم لأعرف حقيقة هذه الحركة، قائدها وممولها. صحيح أنكم تستحقون الاحترام، لكن احترامي لكم أصبح كاحترامي لبطل حرب متقاعد، نحترمه لكن لا قيمة له في أوقات الأزمة».

ستيفانو رجل سياسي مُنحك، وهذا الأسلوب يعني تحذيرًا مباشرًا من الحكومة بفرض قبضتها الأمنية، بيريتوف وجورج عليهما أن يتراجعا قليلًا في لكنة مفاوضتهما.. أو ربما...

واصل ستيفانو: «أنتم لا تعرفون الرجل الحقيقي وراء هذه الحركة، الشارع الإيطالي يريد هذا التطهير في أسرع وقت، وإلا سينال منا جميعًا».

رد بيريتوف: «وما سبل التطهير؟».

- سنخضع لمطالب الشعب بالتطهير، سنقدم كونتي للعدالة، لكن لتكتمل المعادلة، نحتاج لشريكٍ آخر معه، شريك آخر من داخل أروقة المافيا.

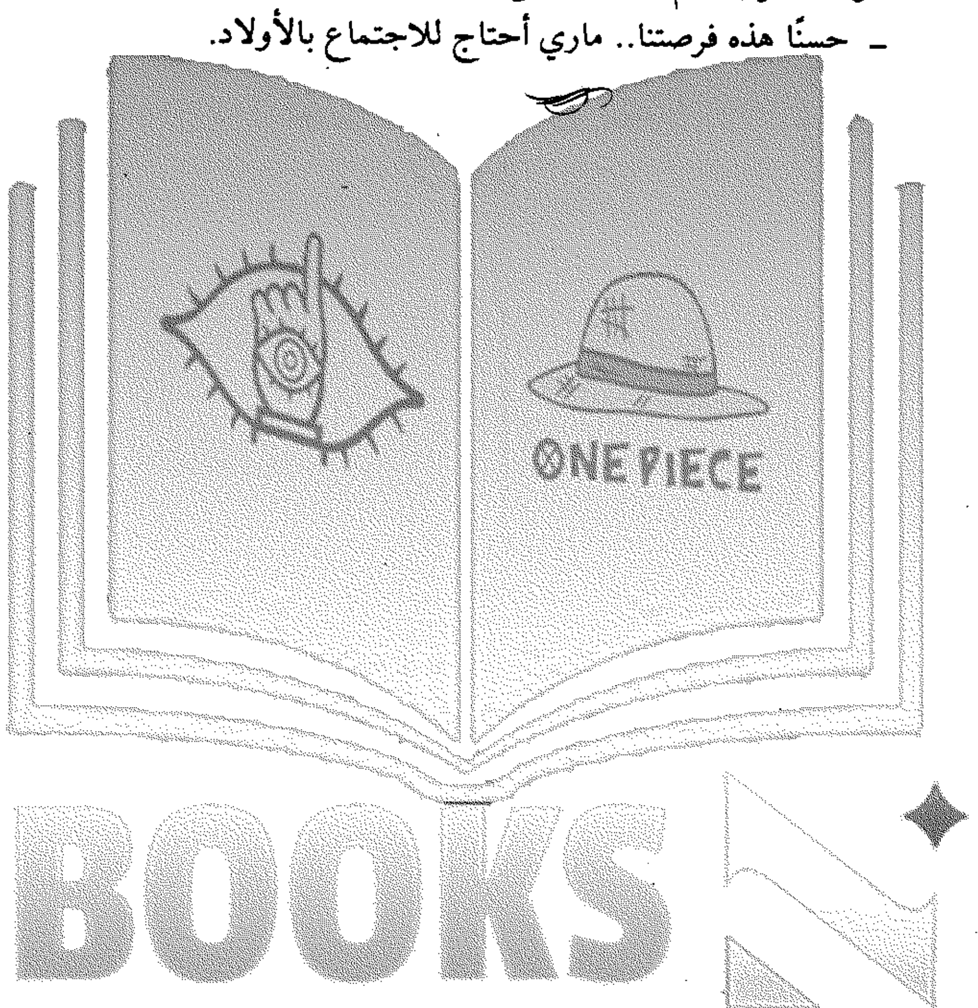
- لسنا مجبرين على الموافقة على هذه المعادلة.

هكذا قال جورج وقاطعه ستيفانو بغضب: «لا، أنتم مجبرون على الموافقة، لأن بإمكاننا وضعكم جميعًا في السجن أو تصفيتكم على الفور، ما زلنا نكن لكم كل الاحترام، لكن الأمن مسؤوليتنا جميعًا، أمامك يومان، ثم تتصل بي يا بيريتوف لتخبرني باسم ضحيتكم، وعندها سنتكفل نحن بالأمر، أي محاولة أخرى ستدفعون الثمن غاليًا».

خطوات متباعدة.. يبدو أن ستيفانو خرج.. تابعه جورج وهو يقول لبيربتوف: «ليكن ديفيد شاهين هو الضحية يا بيربتوف».

خطوات أخرى.. ثم صمت طويل.

ـ حسنًا هذه فرصتنا.. ماري أحتاج للاجتماع بالأولاد.



«اجتماع الأولاد»

على الفور بلّغت ماري مارتينا ومروان وتالا بالتوجه لغرفة الاجتماعات، ثم اتصلت بياسين ودليدا وأخبرتهما بالاجتماع، ومن ثم تجمع الأولاد في الغرفة، في هذه الأثناء كنت أفكر في أمر جورج، اختفاؤه ثم عودته، ثم إصراره أن أكون أنا كبش الفداء، المسكين الذي سيتحمل كل أخطاء الحكومة والمافيا، النزال لم يعد شريفًا يا جورج، لم يعد يخصنا وحدنا، لكنك ما زلت تملك ما يمنعني من النيل منك، ما زلت تملك ما يجعلني أتراجع قبل أن أنفيك من على وجه الأرض.

ـ الأولاد مُستعدون يا ديفيد.

ـ حسنًا هيا بنا.

ـ ديفيد، هل أنت متأكد من وفاة ابنك؟

نظرت لها في استغراب: «ماذا تقصدين؟».

قالت: «أنا لا أصدق ما أعلن جورج عنه.. لنتحدث عن هذا لاحقًا».

خرجنا للأولاد وفي عقلي بدأت أسئلة جديدة تداعبني، لكن الوقت لا يسمح لهذه الأسئلة والاحتمالات، لنبدأ الاجتماع.

خرجت للأولاد، الحماس والترقب المسيطر عليهم دائمًا.

ـ أوليفيا ومارتينا معكما التسجيلات الخاصة باجتماع ستيفانو بجورج وبيريتوف، أولًا أريد منكما أن تعلنا الآن على مواقع التواصل الاجتماعي أن ينتظرنا العالم في روما مرة أخرى، ثانيًا عليكما إرسال نسخة من التسجيلات إلى بابا الفاتيكان، سنستخدم عنصر المفاجأة، أريد أن

يستيقظ رجال الحكومة من أصوات الجماهير الغاضبة، الأهم في العرض إخفاء هوية جورج وبيربتوف، أريد التشويش على اسميهما، حيث لا يعرف العامة إلا ستيفانو في البث. بالنسبة لمروان سيتعين عليك شن حملة هجومية على مجلس رئاسة مدينة باري، أريد أن تغرق باري بدماء حراسها، ثم العودة سريعًا وفرض كل التأمينات على شركاتنا ومنتجعاتها. تالا ستغادرين مع رجالك إلى اليونان، أريد الهجوم على منتجعات جورج في أثينا، ثم البقاء هناك لحماية ممتلكاتنا مع دليدا، كل شيء سيكون بالتناسق، الدقائق ثمينة فعلينا استغلالها جيدًا، هذه المرة أي نسبة خطأ قد تكلفنا حياتنا، علينا أن نكون أكثر حرصًا، أنا أثق أننا سنحقق أهدافنا.

على غير العادة لم أخبرهم بالهدف من كل تحرك، رأيت التساؤلات في أعينهم. ساد صمت طويل بين الأولاد حتى قطعته دليدا: «في كل مرة تتركنا أمام سؤال واحد عاجزين عن إيجاد إجابة له، في هذه العملية نحن لا نملك أي إجابة عن أي سؤال».

رددت: «هذه ليست اختصاصاتك يا دليدا، وليس مطلوبًا مني توضيح كل تحركاتي، نفذوا المطلوب منكم».

الأولاد لم يعتادوا على مثل هذا الأسلوب، لكن الحزم لا بُدَّ في هذه الفترة، عليهم أن يتذكروا أنني قائدهم، وأنني لن أتهاون أمام أي خطأ.

ـ الآن ليبدأ كل شخصٍ مهامه.

انتهى الاجتماع.. عُدت لغرفة المكتب واستدعيت ماري وسراج ومروان: «في الصباح سيتوجب علينا زيارة أحد أعدائنا. مروان ستراقبنا من بعيد حال حدوث أي مكروه، لا عليك إلا إبادة الجميع، مع بعض التغييرات الممكنة، فكن مُستعدًا».

- أنا على أتم استعداد سيدي.

خرج مروان وتوجه لتجهيز رجاله استعدادًا للأمرين.

- من يدخل في عداء الجميع، يخسر المعركة، لكن كل أطراف المعركة ينتظرون سقوطك، فلا مجال للتحالف مع أي طرف منهم، لا أفهم ما يدور في رأسك يا ديفيد.

- أولا لقد اتفقوا على التضحية بي وخروجي من المجموعة، والآن تحالفوا مع الحكومة لإيداعي في السجن.

السجن لن يشفي غليلي، وهذه الطريقة في الانتقام يسلكها الضعفاء، ثم إنني مؤمن ببعض المبادئ التي تمنعني من استخدام هذه الطريقة، لذلك فلنستخدم الطريقة الوحيدة المتاحة «فرّق تسُد» وهذا ما سيحدث.

بدأ الأولاد في الإعلان عن العملية الثانية على مواقع التواصل الاجتماعي، تابعت من مكتبي توابع الإعلان، العالم يستعد من جديد لفضح رجل سياسي آخر. الشعب الإيطالي يتوعد إن لم يتم التطهير فلن يسلموا من ثورة ستطيح بالجميع، لا يزال إعلام الدولة يتجاهل الأحداث، بينما المعارضة بدأت في تسليط الضوء أكثر على حالة التوتر.

مع شروق الشمس، وبعدما تحركت أوليفيا ومارتينا إلى الباخرة حيث تجهيز وإعلان البيان.. أمسكت الهاتف، ثم أرسلت رسالة: «أحدهم يريد التضحية بك، لن أسمح أن يستفاد أحد من خصومتنا، الوقت يداهمنا أنا في انتظار لقائك».

بعد دقائق استقبلت رسالة: «لنتناول الفطور في مقهى سفيلادو، أنا في انتظارك».

استدعيت ماري وسراج ومروان، ثم انطلقنا لمقهى بيولي، يعتبر مقهى بيولي أحد أشهر مقاهي نابولي سفيلادو، قديمًا كان المفضل لرجال المافيا، لذلك كان المدنيون يتجنبون الذهاب إلى هناك، لكن مع مرور الوقت أصبح المكان أكثر أمانًا للجميع. انطلقنا إلى هناك وتبعنا بسيارة أخرى سراج منتظرًا إشارة الخطر حتى تبدأ مهمته.

وصلنا إلى هناك.. المكان خالٍ تمامًا من الزبائن، الموسيقى الإيطالية تفرض روعتها، هناك كان يجلس الحليف المنتظر، ما إن اقتربنا منه حتى اعترض طريقنا أحد رجاله: «ليس مسموحًا بدخولكم، فقط السيد ديفيد شاهين».

ـ لا يهم انتظروا هنا.

حاول الرجل تفتيشي. عارضته: «لا أملك أي سلاح، أفسح الطريق».

اتجهت ناحية الحليف الذي لطالما تصارعنا في حلبة القتال. الهيبة المعتادة، الشارب التركي الضخم، الملامح الخشنة، والصوت الممزوج بأنفاس الماريجوانا.

ـ ديفيد كيف حالك يا رجل؟

ـ جورج، اشتقت لهذا اللقاء منذ زمن بعيد.

ضحك وقال: «لم آتِ إلى هنا منذ آخر لقاء جمعني بك، لا أتذكر تحديدًا كم عام مر على هذا اللقاء، ما أتذكره أننا كنا نجلس على نفس الطاولة، كصديقين حميمين، تحدثني عن علاقتك بلورين ورغبتك في الزواج منها».

رددت: «كعادتك تؤمن بالخرافات، نذير الخير ونذير الشؤم».

رد بسخرية: «لهذا دعوتك إلى هنا، لو لم أتزوج أنا منها في النهاية لاعتبرت هذا المكان نذير شؤم.. آمل أن يكون حديثك هذه المرة عن شيءٍ آخر غير النساء، فأنا لا أملك صحة للزواج من امرأة جديدة».

سألته: «كيف حال ابني يا جورج؟».

أجاب وهو يتصنع الحزن: «جوماني! لقد قُتل غدرًا، على أي حال عزاء مقبول يا صديقي العزيز».

ثم واصل ساخرًا: «أحب نساء الشرق، حاول أن تتزوج المرة القادمة فتاة عربية حتى أستمتع بها قبل أن أخطف ابنكما».

أخفض صوته واقترب مني: «لورين لا تريد الإنجاب.. وأنا أحتاج إلى طفلٍ جديد».

هذه عادة جورج وعلته، كلما شعر بالخوف أو الترقب، يبدأ في الهجوم ليثبت عكس ظنون أعدائه.. سألني وهو يصب لنفسه كأس نبيذ: «من المسكين الذي ينوي التضحية بي؟».

كنت أراقب عقارب الساعة المسموعة من هدوء المكان، أضبط مجرى الحديث مع وصول تالا ورجالها إلى أكبر منتجعات جورج في أثينا، وبعد دقائق الإعلان عن ميعاد العملية الجديدة.

قلت: «ليلة أمس فاجأني أحدهم بزيارة لقصري، وعرض عليّ عرضًا غريبًا، في البداية أخبرني أن سيده قد التقى بك وبأحدِ الرجال المُهمين في إيطاليا، أخبرني أيضًا أن نيتكم هي التخلص مني وتسليمي للحكومة الإيطالية حتى يهدأ التوتر بينها وبين الشعب، خصوصًا بعد ظهور جماعة تنوي فضح فساد الحكومة».

قطع كلماتي أحد رجال جورج الذي اقترب منه وهمس له في أذنيه، نظرت للساعة ها هي تشير للعاشرة صباحًا، الآن أعلنت أوليفيا عن ميعاد العملية للعامة، وبالطبع الحارس يخبره بميعاد الإعلان.

بدأ التوتر يظهر على جورج الذي قال بعدوانية: «أظنك لم تتعلم بعد التحدث دون الخوض في تفاصيلٍ مملة، ماذا تريد؟».

رددت وأنا أشعل سيجارتي مصرًا على استفزازه واستهلاك الوقت: «يزعجني أنك اقترحت وأصريت على التضحية بي، علاقة صداقتنا الطويلة تستحق أن تكون نهايتها أفضل من هذه النهاية المُستهلكة، ثم التعاون مع سياسي للتضحية برجل مافيا مُخالف لمبادئنا وقواعدنا، على أيِ حال لقد أخبرني الرجل بأن بإمكانه أن يحول مجرى القرار، فبدلًا من التضحية بي يمكنه التضحية بك، في مقابل الموافقة على شراء سيده لممتلكاتي في ا ،رنان وبسعر أقل».

سيطر الغضب بالفعل على جورج، صب لنفسه كأسًا آخر وقال:

«لا تصمت هكذا، تحدث، قل كل شيء».

رددت: «في الحقيقة أنا لا أصدق الكلام المُرسل، لكن إنقاذ حياتي والتضحية بك، مغامرة تستحق الإيمان بها، على أي حال لقد وافقت على العرض، لكن كان هناك شرط للموافقة».

ـ أي شرط يا ديفيد؟

تعمدت إطالة الوقت: «يؤسفني أنك وضعت روحي على طاولة المفاوضات يا جورج، يؤسفني أنك لم تضع اعتبارًا لكل هذه السنوات من الصداقة والعداوة، صحيح أن كلًا منا يعد عدته للانتقام من الثاني، لكن يا صديقي العزيز هل أصابتك الشيخوخة حتى تستعين برجل آخر لينال مني؟».

وقفت أمامه وواصلت: «هيّا يا رجل، أنا أمامك، صوب مسدسك نحوي واقتلني، هذا أفضل عندي من أن يراك بيريتوف رجلًا ضعيفًا وهزيلًا، هيّا صوب مسدسك نحوي بدلًا من أن تعيش مُمتنًا طوال حياتك لرجل عجوز ساعدك في التخلص مني، حتى الرجل الذي اعتمدت عليه، خائن، يرى حياتك وحياة عائلتك أرخص من ممتلكاتي، نزالنا شرس لكنه شريف يا جورج، ولن أسمح لرجل غريب أن ينال منك بمساعدتي، تسألني الآن لماذا جئت بعد موافقتي على العرض؟ لأعطي لك فرصة لتنقذ ما يمكن إنقاذه، لأنني وفي حتى لعداوتنا وخصامنا، لأنني رجل شريف يا جورج ولأنك كنت صديقي الوحيد».

اقتربت أكثر منه ثم قلت: «ولأنك تملك زوجة وابنًا يستحقان أن تعيش من أجلهما».

وقف جورج واقترب مني وبملامح غضب قال: «أي تمرط يا ديفيد؟».

هنا اقترب نفس الحارس وهمس في أذن ديفيد.

لقد بدأت تالا بالفعل في الهجوم على فنادق جورج في اليونان.

ضحكت: «يبدو أن بيريتوف صدق في عهده وأثبت حسن نيته، ربما الآن الحكومة تبدأ إجراءات القبض عليك، ربما يعقدون

اجتماعهم في قصر السيد بيربتوف.. الوقت يداهمك يا صديقي العزيز».

صرخ جورج في وجه رجاله وهو يخرج من المقهى إلى قصر بيربتوف.. في هذه الأثناء بدأت أوليفيا في عرض البيان: «*سيداتي آنساتي سادتي..*

الفقراء والمهمشون والأثرياء، الثوار والمؤيدون والمعارضون وأصحاب السلطة والقرار..

إلى جموع الشعب الإيطالي في أقصى الشمال.. بولونيا، بارما، ميلانو، وترينتو.

وفي أقصى الجنوب.. نابولي، باري، فودجا، وكالابريا.. وسكان العاصمة روما.

جمهورنا العزيز نشكركم على انتظاركم ودعمكم لنا، ونشكركم على كل كلمات الحب والثقة التي وجدناها في رسائلكم.

طوال هذه الفترة كنا نراقب ضحايانا، وننتظر مثلكم تحرك الحكومة والشرفاء في إيطاليا من أجل حملة التطهير التي وعدونا بها، وبالفعل نشكرهم على التحفظ على السيد كونتي رجل الفساد الأول في نابولي، لكن لا تزال الحكومة تثق في الحرس القديم، وما زالت تستخدم نفس السياسات العقيمة في التعامل مع القضايا الشائكة.

إليكم هذا التسجيل، بين السيد ستيفانو عمدة مدينة باري ورجلين من رجال المافيا، في الحقيقة تعمدنا إخفاء هويتهما في هذه النسخة المعدلة من التسجيل لأن المافيا ليست طرفًا في معركتنا، لكن ولحرصنا على المصلحة العامة، لقد أرسلنا النسخة الأصلية لبابا الفاتيكان، عسى تنصت حكومتنا لصوت الدين ومباركة البابا».

بدأ التسجيل الصوتي.

في هذه الأثناء أنهت تالا مهمتها في اليونان، بينما بدأت حرب بين بيريتوف وجورج. أمام القصر انقض رجال جورج بأسلحتهم، بينما اضطر رجال بيربتوف للدفاع مختبئين في القصر، كنا نراقب الوضع من بعيد، النيران في كل مكان، لا صوت يعلو فوق أصوات الرصاص، الشارع بحر من الدماء، صراخ النساء، الأطفال، لا وجود لرجال الشرطة، فالجميع مشغولون ببيان العائلة، البقاء للأقوى، وكل منهم يريد فرض سيطرته.

- ماذا لو توقف القتال وتحدثا مع بعضهما البعض؟ حينها سيعرفان خطتنا وعندها سينكشف كل شيء حتى عائلتنا.

سألتني ماري، فقلت وأنا أستمتع بالحرب القائمة: «لن يحدث، مثلما يقاتل جورج ويريد الانتقام من الخائن بيربتوف، يقاتل بيربتوف أيضًا ويريد الانتقام من الخائن جورج».

نظر إلي سراج، رأيت الحيرة في أعينهما فقلت: «كارتزوني كان يراقبني، هو من أخبر بيربتوف بوجود السيد ستيفانو في القصر، وقبل التوجه لجورج بساعتين، اتصلت بكارتزوني وقلت له:

أخي كارتزوني، اعذرني على الاتصال بك في وقت مبكر. لكن الموضوع لا يتحمل التأخير، لقد زارني أحد رجال الدولة المُهمين، وطلب مني التعاون معه من أجل القبض على بيربتوف، لكنك تعرف أخاك جيداً وتعرف أنه لن يتعاون مع رجال الأمن ويتحد معهم ضد رجل من رجال المافيا، لذلك رفضت العرض، لكنني لم أنسَ ما فعله بي بيربتوف، لذلك نويت الانتقام منه بطريقتي الخاصة.

أنا أستعد لمغادرة البلاد، لكن قبل كل شيء أخبرت السيد ستيفانو بالرجل الوحيد الذي يمكنه مساعدته في القبض على بيربتوف، وفوّضت نفسي للتفاوض مع هذا الرجل الذي رحب بالصفقة مقابل بضعة ملايين، وبعد ساعتين سألتقي به لإتمام كل شيء. اتصلت بك لأطلب منك مغادرة إيطاليا في أسرع وقت، فأنا لا أثق في ستيفانو، والقبض عليّ يعني القبض عليك، وإن فلتنا من الحكومة لن نفلت من انتقام بيربتوف لو فضح أمرنا. اهرب يا أخي فأنا لم أعد أقوى على حمايتك، وداعًا.

ثم طلبت من مروان أن يرسل أحد رجاله لمراقبة كارتزوني، الذي كان يتابعنا من الأساس، وحين رأى رجال جورج اتجه لقصر بيربتوف ليخبره بلقائي بجورج ونيتنا الاتفاق عليه، والآن يتصارعان في ساحة القتال، وحتمًا سيعيش واحد منهما فقط».

ظلت الحرب مستمرة.. مع نهاية التسجيل وكلمات أوليفيا:

«الآن على الحكومة التعامل بجدية أكثر، عليها الإنصات لمطالب الشعب بالتطهير الفوري، عليهم امتصاص الغضب والشفافية والوضوح في التعامل، ونعيد ونذكركم:

نحن لا نسعى للسلطة، ولا نملك أهدافًا سياسة. لا نملك زعيمًا أو رئيسًا، ولا نمثل حزبًا أو جماعةً أو حتى حركةً ثورية. لا نملك أي توجه سياسي أو اقتصادي، نحن مجموعة من البسطاء الفقراء، العمال الكادحين والأطباء الذين لا يملكون قوت يومهم، نحن من نسل الباعة الجائلين وأولئك الموظفين ضحية العمل الروتيني والمرتبات التي لا تكفي أبسط الاحتياجات اليومية. خطابنا هذا خرج من المقاهي، العشوائيات، المصانع، المزارع، والشوارع التي

شهدت على خيباتنا وعجزنا. نحن مجموعة من الفقراء الذين تسللوا حتى وصلوا لمقرات صناع القرار ونجحوا في الإيقاع بهم، لا نطلب منكم الثورة ولا نحثكم على التخريب، دورنا هو فضحهم وتوعيتكم ضد الفاسدين الذين يحكموننا.

إلى اللقاء في ميعادٍ آخر».

«ديڤالو يحكم».

انتهى البيان، بينما لم تنتهِ الحرب.

فجأة وصلتني رسالة: «إن كنت تعرف ما يحدث لجورج الآن، فحياة جوماني مرتبطة بحياة جورج».

نظرت لأتأكد من رقم المرسل.. لورين!!

الوقت يمر والدماء تغطي القصر.. لا بُدَّ من اتخاذ القرار.

اتصلت بمروان وقلت له: «تسلل أنت ورجالك واحمي كارتزوني، أريده حيًّا يا مروان»، ثم تنهدت وواصلت: «لا تسمح لبيريتوف أن يقتل جورج».

قال وهو يتظاهر بعدم سماع كلماتي: «ماذا قلت يا سيدي؟».

رددت: «نفذ ما آمرك به يا مروان».

أغلقت الهاتف.

قال سراج: «لماذا نغامر بحماية جورج؟ هذه ليست معركتنا ليُقتل من يُقتل».

قلت: «ما زال يملك جورج أحبائي».

ساعة كاملة من النيران المتبادلة، وبعدما استعادت الحكومة صدمتها من البيان، بدأت قوات الأمن في التدخل، ومعها خرج مروان من القصر حاملًا برجاله كارتزوني.

- جورج يا مروان ماذا حدث لجورج؟

وهو يتوجه للسيارة الأخرى: «حي يرزق يا سيدي».

انطلقنا عائدين بسيارتنا إلى القصر.. كان الشارع في حالة غضب وشد وجذب.. وما إن وصلنا حتى اتجهت مباشرة إلى غرفة المكتب، أفكر فيما حدث.

أنجزنا المهمة.

كل شيء على ما يرام.

الشارع في حالة غليان.

وسائل الإعلام العالمية تتحدث عن العائلة.

الحكومة تنوي إصدار بيان توضيحي.

التسجيل الأصلي بين يد بابا الفاتيكان.

كارتزوني تحت الحبس الإجباري.

جورج حي يرزق من أجل ابني ومن أجلك يا لورين.

بيرتوف أصبح أشلاءً، النهاية التي يستحقها هذا الخائن.

الأولاد يحتفلون بعمليتهم الناجحة.

10

فلاش باك.. قبل خمسة أشهر.

انتهى حفل اغتيال صوفيا، لقد نجحت العملية الأولى، وبينما كان ينتظر الأولاد التفكير والبدء في العملية الثانية، قرر ديفيد شاهين إعطاء إجازة للجميع. كان قرارًا مفاجئًا، لكن كان لديفيد منطق وفكرة، ديفيد كالدنيا لا يسير بعشوائية، إنما بخطوات وتدبيرات وأغراض باطنة وظاهرة، لذلك كانت فكرته واضحة، أن يترك الأولاد أمام ضميرهم، هو لا يريدهم مرغمين على القيام بأي شيء، لا يريدهم قتلى بلا ضمير، ربما يخشى أن ينخرطوا في هذا الطريق، ثم تفاجئهم الظروف بمواقف تجعلهم يتراجعون في اللحظة الأخيرة، هو يعرف أن القتل عمل ثانوي، والصراع الحقيقي الذي ينتظرهم هو صراع إنساني بحت.

جلس ديفيد شاهين يفكر في الخطوات القادمة، التضحية بصوفيا صديقته الوحيدة لم يكن أمرًا سهلًا على ديفيد، الخيانة مرفوضة في المافيا، لكن يبدو أنه بادر بالخيانة قبل أن تبدأ صوفيا بها، لقد تطورت العلاقات بينهما في أيامها الأخيرة، فلقد كانت

صوفيا ترى أن صراع ديفيد مع جورج لن يؤتي ثماره، فجورج يملك كل القوة، بينما يملك ديفيد دوافعه الإنسانية، وهذا ما لم تؤمن به صوفيا أبدًا.

«لقد بدأت الحرب يا صوفيا».

كانت آخر كلمات ديفيد لصوفيا في لقائهما الأخير، حينها سخرت صوفيا من ديفيد، إضافة لسخريتها من عدم امتلاك ديفيد لقوة موازية تستطيع ردع جورج والهجوم عليه، لكنها كانت لا ترى أن بإمكان ديفيد أن يصبح رجلًا دمويًا من الدرجة الأولى. صحيح هو عضو مُهم في المافيا، لكن هو في الجماعة الأقوى، وهذا يحميه من بعض المواجهات الشرسة. السخرية الحقيقة كانت في كون ديفيد من الأساس كاتبًا، كيف لكاتب أن يصبح قاتلًا؟!

يمكن القول أن القلم والمسدس يكملان بعضهما البعض، جرة قلم بإمكانها أن تتسبب في حرب أهلية، حرب عالمية، حرب نووية، خطاب واحد قد يتسبب في اندلاع ثورة أو إخمادها، يتشرد الملايين بقرار واحد كتبه رجل سياسي، تفنى دول وتبنى دول بجرة قلم، علاقات انتهت بسبب كلمة واحدة، وعلاقات بدأت ودامت لنفس الكلمة، القلم الذي ظلمك في تقديراتك الدراسية، والقلم الذي رفض تعيينك في وظيفة أحلامك ووانق لغيرك لأنه يملك واسطة، الوصية التي كتبت بالقلم فتفرق شمل العائلة، واندلعت حرب بين الإخوة.

القلم الذي كتب شهادة زور أنهت حياتك. القلم يقوم بما يقوم به الرصاص وربما أخطر، فالرصاصة تنهي حياة شخص واحد، لكن جزة قلم قد تقتل مئات وملايين الأشخاص، الكاتب لا يختلف

كثيرًا عن القاتل، فمن يؤلف ويخلق ويقتل شخصيات في رواياته، يمكنه أن يقتل أشخاصًا في واقعه، من يستطيع أن يخرج طاقة غضبه في الكتابة يستطيع أن يظهرها في القتل أيضًا.

قضى ديفيد فترة طويلة في الكتابة، حقق نجاحات مُهمة، لكنه لم يستمر طويلًا وقرر الاعتزال فجأة، كانت أسبابه غريبة لكنها منطقية، لم يبنِ علاقة واحدة طوال حياته مع الوسط الأدبي، كان يراهم بهلوانات يكتبون لإسعاد الناس، يُشبههم بالعاهرات اللاتي تتجملن للرجل الخليجي، فترتدي ملابس نساء الخليج، ويتحدثن بلكناتهن، تتجملن للرجل الأوروبي، فيصبغن شعورهن، ثم يتحدثن باللغة الإنجليزية حتى ينلن رضاءهم. أقلام فتاة عاهرة ولاؤها للأكثر شيوعًا في هذا الزمن، فإذا كان الأدب الواقعي هو الأكثر شهرة ونجاحًا ستجد من بينهم فرانز كافكا، دوستويفسكي، ألبير كامو، وإذا سيطر الأدب البوليسي على الساحة فكلهم أحفاد أجاثا كريستي، وإن نجح الأدب الساخر وفرض سيطرته فكلنا تلامذة أمبروز بيرس الأديب الساخر. بلا مبدأ فاقدين للهوية، للشخصية والقيمة، بينما كان يكتب هو عن معاناته، يكتب ليقاوم رغبته في الانتحار، يكتب ليمتص غضبه ويداوي مأساته، يكتب ليتعافى من الاضطرابات النفسية التي يعاني منها، يكتب ليهدأ رأسه، فلولا الكتابة لضرب رأسه في عرض الحائط كل يوم حتى تهشم وتحطم رأسه تمامًا.

وربما كان هذا من أحد أسباب اعتزاله، إنه يُحسب على هؤلاء الأوغاد، يصنف كاتبًا ويحسب عليهم، بينما في الحقيقة هو من الجماهير التي ترى كل هؤلاء حمقى ومُدعين، وبعيدًا عن هذا

فالكتابة نفسها استهلكت كل طاقته، ولم تكن الكتابة وحدها هي المُستفيدة من طاقته، بل الكثير من التجارب المأساوية التي مر بها، بداية من الخلافات العائلية، حتى رحيل لورين. هنا كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، الرجل يتوه ويشعر بالغربة حين تموت أمه ويفقد حبيبته، وهذا ما حدث مع ديفيد الذي أضاع شبابه في البحث عن وطن آخر يسكنه، الذكاء أن تدرك خسائرك المستقبلية قبل أن تبدأ ساعة جديدة في عمرك، أن تخوض صراعك مع العمر، الزمن والمستقبل، لكن ديفيد كان يصارع شيئًا آخر أشد قسوة: عقله الباطن، الحلم الطويل الذي رآه في منامه، لذلك قرر خوض صراع جديد بما تبقى من عمره وانضم للمافيا، ربما انضمامه في حد ذاته كان تهوينًا من وطأة الهزيمة، فبعدما فشل في الحب، وبعدما عجز عن تحقيق أحلامه ولم تعوضه الكتابة كما أراد، فتقليل شعور الهزيمة أمام الحياة أمر حتمي.

في الوقت نفسه.. أعلن ياسين استسلامه، لم يكن قويًا بما يكفي ليقاوم نوبات الحنين لرقُية، شخص قضيت معه طفولتك، أيام المراهقة والشباب، لحظات التعب الحزن، السعادة والراحة والشقاء.

المأساة الحقيقية أن ندرك أننا نسير على الطريق الخطأ، لكننا لا نستطيع التوقف أو التراجع، نندفع بكل قوتنا ونحن نعلم ونرى الحاجز المنيع الذي سنصطدم به، نصدق كل التحذيرات، لكننا لا نستطيع توخي الحذر، نقاوم طوال الليالي شعور الحنين، ننشغل عنه ونتجاهله، لكن حين تصادفنا ذكرى أو يحل منتصف الليل تتهاوى قوتنا، ويتحطم قناع الكبرياء، ويسخر منا كل المنطق الذي اقتدينا

به لنقاوم الحنين. المأساة أن ندرك أننا نسير على الطريق الخاطئ، لكن الأكثر من المأساة ألا تملك رفاهية التوقف أو التراجع.

حاول ياسين من جديد.

محاولات بائسة وعشوائية مع فتاة اندفعت بكل مشاعرها نحوه، وكانت مُستعدة لتحمل شقاء السنين معه، لكنها المرأة حين تعطي كل شيء ثم تشعر بالخيبة، لا تجد مقابلًا لكل هذا العطاء، تتألم وتتألم، ثم تقرر أن تكون صلبة، فلاذية، لا يحرك مشاعرها كل قصائد الشعر، كل الكتابات، الأغاني، لا تؤثر فيها دموع كل الرجال، تتجاهلك تمامًا كما لو أنها لا تراك، ترفض كل الأشياء التي تقدمها لها ولو وضعت بين يديها الشمس والقمر، تجعلك تتعجب وتتساءل: «هل هذه هي نفس الفتاة التي كانت تحبني؟». ترفضك رفضًا تامًا، فقد تعطي فرصة لكل شخص تعمد إيذاءها إلا الشخص الوحيد الذي أحبته ووضعت آمالًا كبيرة عليه، ثم خذلها.

المرأة لا تنسى الخذلان، لا تنسى الرجل الذي وثقت به فخانها، احتمت به من العالم فكان أول من يطعنها، حلمت معه بأحلام وردية فصنع كابوسًا أسود لها، المرأة لا تنسى خذلان من ضحت لأجله بكل شيء ولم يضحي لأجلها بأبسط الأشياء، لا تنسى من هربت من العالم لأجله لتطمئن معه فأصبح هو خوفها واضطرابها، المرأة حين تُخذل تتجمد وتقسو لتدافع عن نفسها فتصبح في نظر الجميع امرأة قاسية بلا قلب.

وقد سلكت رقية هذا الطريق فلم تنجح كل محاولات ياسين للعودة، فقرر في نهاية المطاف أن ينجو من فخ الحنين، والتوقف عن هذه المحاولات البائسة، قرر أن ينعزل عن طرق الغرام، ويصدق

حقيقة أنك قد تلتقي بمئات الفتيات، تودع الشقراء، السمراء، الجميلة، المثيرة، الحنونة، اللطيفة، تودع كل نساء العالم، لكن ستمر عليك فتاة واحدة إن خرجت من حياتك لن تعود ولن تنساها، ولن تعوضها نساء الأرض، ولقد كانت رقية هذه الفتاة.

قضى ياسين الإجازة في عزلة بعيدًا عن كل شخص يعرفه، لم يرد على مكالمات دليدا أو مروان، لم يفتح مواقع التواصل الاجتماعي، تجمدت مشاعره هو أيضًا، ففقدانه لرقية كان أكبر من فقدانه للعالم، رغم ذلك كانت هناك رغبة واحدة يريد تحقيقها: الثراء.. مهما كلفه الأمر.

قرر في نفسه أن يعمل كقاتل مأجور، الأهم أن يحصل على المال المناسب الذي يجعله يتمتع بكل سُبل الرفاهية، سيخضع لكل أوامر ديفيد شاهين دون جدوى، وما دامت دليدا هي الوحيدة التي تعارض ديفيد فليبتعد قليلًا عنها حتى لا يخسر ود الرئيس.

دليدا كانت واقعية مع نفسها من اللحظة الأولى، قررت التحرر من ماضيها وبدأ حياة مُختلفة، ورغم شخصيتها الصلبة، وقدرتها على بدء هذه الحياة بمفردها، لكنها كانت تحتاج لسند، ونس، شخص ما يسندها ويدعمها، لقد تعبت من كونها وحيدة، تقدر على مواصلة حياتها بمفردها لكنها تعبت من الثبات. الانهيار حق أصيل لكل إنسان، فما بالك بفتاة لم تغفُ عينها مُطمئنة إلا دقائق معدودة في حياتها، تقدر على مواصلة حياتها بمفردها، لكنها سئمت التحدث مع نفسها، سئمت أن تبكي فتسمع صدى صوتها. كيف يعيش المرء دون مواساة؟ ماذا تعني الحياة لو قضيتها طوال الوقت بحدك، تبكي وحدك، تصرخ وحدك، تسقط وحدك، وتنهض وحدك؟ ماذا

تعني الحياة لو لم نسمع بين الحين والآخر كلمة لطيفة، كلمة غزل، ود، فخر واعتزاز؟ ما قيمة لو أصبحت بطل العالم، لكن لا توجد يد واحدة تصفق لإنجازك؟ ما قيمة أن تزرع بُستانًا ولا يوجد من تهديه أول وردة؟ صحيح أن الوحدة تحميك من المؤذيين، لكن أي منطق هذا الذي يجعلك بين المطرقة والسندال؟ لماذا علينا البقاء في وحدتنا لمجرد أن الناس خارج غرفتنا ينتظرون أذيتنا؟ ألا يوجد أشخاص صادقين؟ ألا يوجد طيبون مثلنا، لا يحبون الأذى لا يكيدون لأحد؟ ألا يوجد مثلنا من يصدقون في وعودهم، يساعدون أحباءهم، ويتمنون لهم الخير؟ ألا يوجد في هذا العالم من يحبك لشخصك، لصفاتك، يتقبلك بكل ما فيك ويسعى لتكون أفضل؟

كل شخص في الدنيا يخشى الوحدة مهما تجمل وحكى الأدباء عنها، تخيل أن تستيقظ ذات يوم فتجد نفسك وحيدًا في هذا الكون الكبير، أنت آخر البشر ولا أحد سوى ذكرياتٍ لناسٍ رحلت عنك، ماذا ستفعل حينها؟

مهما بدأت القصة في بدايتها رائعة، لكن مع الوقت ستتحول لكابوس، لفيلم رعب لا يمكن تصوره، لهذا نحن لم نخلق للوحدة من الأساس، خلقنا لصنع الود والونس، خلقت حواء لتؤنس آدم في الجنة، وأرادت دليد! أن تصنع لنفسها أدم، فكان ياسين أول من خطر على بالها، بانهزامية واقعية قالت لنفسها: «هو يعرف كل شيءٍ عني، يعرف كل المواقف التي مررت بها، وقد فتح باب منزله لاستقبالي حين طردني وعزلني العالم عنه، يعرفني وهذا أكثر ما أحتاجه، لن أبدأ من الصفر مع شخص لا يعرفني، لن أبذل مجهودًا في توضيح مميزاتي وعيوبي، ولن أضطر لتجميل حياتي الماضية

حتى أبدو أمامه إنسانة سوية، هو يعرف كل شيء، أنا مُمتنة لـه، معجبة بثباته وشخصيته، أحترم عائلته، أحترمه وأقدره».

منطق عقلاني بدأت به، لكن سرعان ما انهار تمامًا حين رددت: «وأحبه».

قررت أن تنساق وراء ما يحدث، تدير أعمالها وتتابع الأحداث. في نفسها لم تكن في حاجة للانتقام، لقد رأت حياة الانتقام صعبة، وهي لا تريد كل هذا، ليقوم الله بالانتقام منهم، ولأفوز أنا بياسين، لنعيش معًا حياة هادئة. هذا ما أرادت وهذا ما وجدته مُستحيلًا بالنسبة لياسين الذي قرر الانتقام من من كل شيء، حتى من نفسه، لكنها أقسمت أن تواصل المحاولة لتقنعه بالهروب من كل هذا.

ومن شعور الاحتياج والضعف والود، للتعالي والجفاء والمرض، يمنى ابنة الشيطانة، الفتاة التي تراها فتعطف وتشفق عليها، وهي تجيد دور المسكينة الضعيفة على أكمل وجه، مُحامية تعرف كيف تفوز بقضاياها الخاصة، وكيف تغير جلدها كالحرباء لتوقع بفريستها. هي الوحيدة التي نالت ثقة ديفيد، والوحيدة الذي أثنى وأشاد بذكائها، لذلك كان شراء منزل قريب من القصر أمر ضروري لتصبح في الصورة، والقراءة ومشاهدة الأفلام الوثائقية عن المافيا، يعززان موقفها، وتوضح للرئيس مدى جاهزيتها لبدء العمل معه بأفضل طريقة ممكنة.

في الوقت نفسه لم تنسَ يمنى خطاياها، ولم تشبع رغبتها في الانتقام، وبما أن كلًا من الأولاد وافق على الانضمام للمافيا لأسباب مُختلفة سواء لاستعادة الثقة، أو بحثًا عن الثراء أو حتى للانتقام، فيمنى الوحيدة التي وافقت من أجل رغبتها العدوانية تجاه الجميع.

إن أسوأ ما تواجهه في حياتك أن تدخل في نزاع مع شخص يملك كل المبررات والحجج للرد على كل الاتهامات، ويمنى واحدةً من الناس التي لا تستطيع الفوز عليها في أي مناقشة. في لقائها الأخير مع مروان واجهته بكل أفعالها وبكل جرأة قالت: « لقد تزوجنا زواجًا عرفيًا، لكنك لم تتزوجني لأنك تحبني، بل تزوجتني لأنني أعجبتك، وأنا لم أتزوجك حبًا فيك، بل كنت في هذا الوقت أمنع نفسي من الخطيئة، أنت قوي وتستطيع إشباع رغبة امرأة متعطشة للجنس مثلي، كانت أجسادنا على فراش واحد، لكن قلبك كان مشغولًا بامرأة أخرى، وقلبي كان يتألم من خيانة زوجي لي مع أمي. نحن متعادلان في الخطيئة، حسنًا لماذا تضع عليّ اللوم حين قررت أن أقتل الرباط الذي يجمعني بك؟ لماذا تعاتبني على قتلي لابنتنا؟ هل كنت تريد أن تصبح أنت، الضابط المفصول المتقاعد وعضو المافيا القاتل، أبًا لابنتنا؟ وأنا الدكتورة والمحامية التي عانت من خيانة زوجها السابق مع أمها، وإجبارها من عائلتها على طريق لم تختَره، والتستر على فسادهم وجرائمهم، وعضوة المافيا، أهكذا تراني أمًا صالحة لابنتنا يا مروان؟ لقد قتلتها لأنقذها من الظلام، لأنقذها من التعاسة والخيانة والظلم، أنت السبب في هذا يا مروان لأنك لم تمنحني الأمان، والمجتمع السبب لأنه لم يتقبلني، وعائلتي السبب لأنهم فاسدون، أنا بريئة من هذه التهم، حتى لو اعتبرتني فاسدة، فأنا وأنت فاسدان، لكن كل منا فاسد بطريقة مُختلفة، فاسدة من صنع عائلتي وأنت فاسد من صنع قلبك».

قال مروان وقتها: «تتظاهرين دائمًا بأنكِ مظلومة، الطرف الأضعف المسكين في كل رواية، تتبرأين من كل أخطائك وتنكرين الحقيقة، مبررك لكل أخطائك هو الظلم الذي تعرضتِ له في شبابك، تلومين الناس، المجتمع، الأرض، العالم، تلومين كل شيء، ولا تلقين باللوم أبدًا على نفسك، لكن في الحقيقة أنت نجسة، أفعالك مُلطخة بالخسة والعار، وأنفاسك ممزوجة بالمكر والخيانة، أنت من صنع فسادك يا يمنى».

لم تهتم كثيرًا لهذه الكلمات، وتعرف أن مروان لن يستطيع النيل منها، لذلك اكتفت بالضحك وعادت لمنزلها تعد نفسها لتصبح عضوة مهمة في عائلة ديڤالو.

كلمات مروان لم تشفِ غليله، ولن تعيد ابنته الأولى التي قتلتها يمنى. القوة هي واحدة من أهم الأشياء التي تعلمها في حياته العسكرية، مرارة الفقدان هي الشيء الذي يُفطم عليه الرجل العسكري، فُقدان أصدقائه، عائلته، وفقدانه لمشاعره الإنسانية في ممارسة شعور الحزن، الفقدان والحسرة.

قبل أعوام فقدت حبيبتي، وكانت الطعنة من صديقي الوحيد، فودعته مع حبيبتي، وبعدهم فقدت احترام الناس لي في الشارع، حينها ظن الجميع أنني لن أقدر على مواصلة حياتي. قضيت فترة طويلة في المصحة النفسية، أنا لا أؤمن بخرافات التعب النفسي، لكنني حقًا كنت أشعر بوخز الآلم في قلبي، أشعر برغبة في الاختفاء والانعزال عن البشر، فما أدراك أن يسقط احترام رجل كان اسمه يهز مجالس الرجال؟ كنت أشعر بالاستخفاف حتى من الممرضات والأطباء في المستشفى النفسية، عندها قررت الخروج، وهنا كانت رغبتي مُختلفة.

دعني أقول لك قصة..

أثناء خدمتي العسكرية كُنت أتابع تفاصيل إحدى قضايا القتل، رأيت القاتل مُذنبًا ومُتهمًا ويستحق الإعدام، حينها علمت أن المحكمة حكمت على المُتهم بعشر سنوات فقط. أبديت غضبي لأحد أصدقائي، الذي كان يتابع القضية عن كثب، فقال: «المُتهم مريض نفسي وعقوبة العشر سنوات قاسية».

غضبت من هذا المبرر، وسخرت من الفكرة نفسها.

نعم كنت أسخر من توابع الأمراض النفسية، لكن بعد خروجي من المستشفى فاجأتني رغبة في قتل كل شخص أراه. هنا علمت أن بعض الاضطرابات النفسية لا تخرج منها حيًا، بعض الاضطرابات النفسية إن أصابتك، تأكد أنك لن تصبح كسابق عهدك، سيتغير كل شيءٍ فيك حتى تصبح شخصًا آخر.

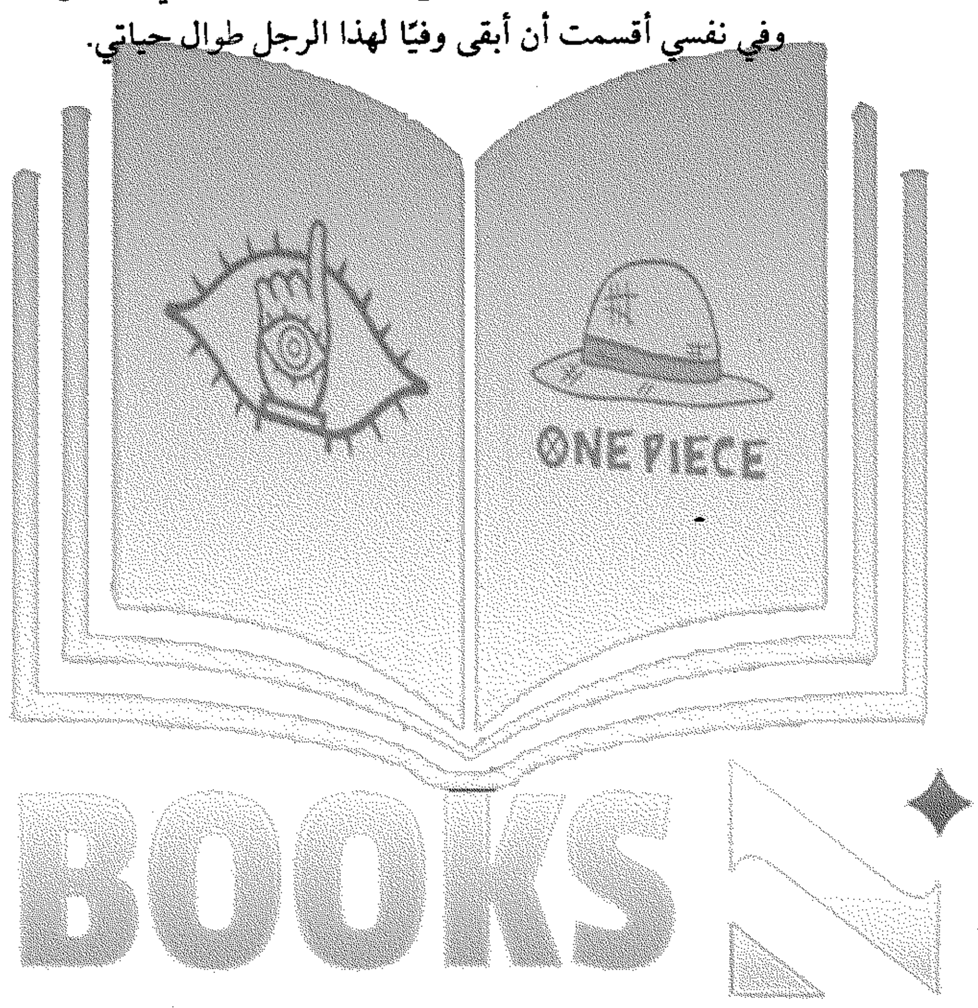
واصلت حياتي بهذه الاضطرابات وهذه الرغبة، وبينما أقاوم هذه الرغبة، فاجأتني أحداث الحياة بما نحن فيه الآن، لكن في الوقت نفسه قررت أن تسلب مني آخر ما تبقى مني.

ـ سيد ديفيد، أرجو أن تعذرني على هذه القصة الطويلة، لقد قتلت يمنى ابنتي الوحيدة، بإمكاني أن أقتلها وأشفي غليلي منها، لكن القتل لهذه اللعينة راحة لا أتمناها لها. أنا أب، وربما أنت أيضًا تعرف مرارة فقدان الأب لابنه، ما أريده منك وإن كنت تريد الاستقرار لكيانك أن تبعد هذه الفتاة عن مشوارنا، لا أفرض عليك شروطًا، لكنك لن تحب أن يكون في عائلتك شخص ينوي الانتقام من أحد أفرادها، وأنا لن أستطيع التحكم في رغبتي بالانتقام منها ما دامت أمامي طوال الوقت.

في هدوءٍ تام أجاب ديفيد شاهين: «لأنك أب فقد ابنته الوحيدة.. أنا أشعر بك يا مروان».

ضحكت حينها وقلت: «سأبقى مُدينًا لك دائمًا سيدي الرئيس».

وفي نفسي أقسمت أن أبقى وفيًا لهذا الرجل طوال حياتي.



11

القاهرة

بعد اليوم الشاق الذي قضيته مع عنيا، الآن حان وقت العودة للمنزل والغدو في النوم حتى ميعاد العمل، ما إن فتحت باب الشقة حتى سمعت خطوات أقدام تتحرك بين أروقته.

على أطراف أصابعي دخلت: «كيف حالك يا ياسين؟»

تلصمت في مكاني لثوانٍ ثم قلت: «لماذا جئتِ إلى هنا؟».

بضحكةٍ هادئة قالت: «أهكذا تستقبل ضيوفك؟».

ـ وصال.. ماذا تريدين بالضبط؟

ردت: «تعالَ معي وستعرف كل شيءٍ لاحقًا».

ـ لدي عمل في الصباح، وأنا في غاية التعب.

ـ أعطيتك إجازة، لا تقلق.

أمسكت يدي ثم سحبتني ناحية الباب: «قلت ستعرف كل شيءٍ ونحن في الطريق».

خرجنا من المنزل وانطلقنا بالسيارة. قلت: «مبارك عليك السيارة الجديدة».

وهي ترفع صوت الأغاني: «ليست سيارتي».

كانت تسير بسرعة جنونية رغم ازدحام المدينة.. قالت بسخرية: «أظن أن عند سؤالي عن عمري فيمَ أفنيت؟ سأقول في إشارات مرور القاهرة، الزحمة لا تطاق».

نظرت للساعة ثم واصلت: «ليدفع الأحمق صاحب السيارة غرامات كسر الإشارة».

بالفعل انطلقت في الشوارع دون أي اعتبار لإشارات المرور، حتى وصلنا إلى ميت عقبة، ومنها إلى طريق مصر الإسكندرية الصحراوي.

- الإسكندرية؟!

ردت وصال: «ياسين، لم أنم منذ يومين، أقسم لك لو نطقت حرفًا واحدًا لاصطدمت بأي سيارة وانتهى أمرنا».

أشعلت سيجارتي في استسلام تام، ثم التزمت الصمت.

وصلنا مدينة الرب، وفي الظلام لا تسمع إلا صوت أم كلثوم يسيطر على شوارع المدينة، خصوصًا الأماكن الشعبية القديمة. في لقائي الأول بمروان سألته عن سبب عشق أهل الإسكندرية لكوكب الشرق، فأخبرني بعدة أسباب، لكن بين كل هذه الأسباب قصة طريفة. في القرن الماضي كاد نادي الاتحاد السكندري صاحب الشعبية الثالثة في مصر والأولى في الإسكندرية أن يعلن إفلاسه تمامًا. حينها علمت أم كلثوم بالأزمة الاقتصادية التي تضرب النادي، فقررت إحياء حفلًا غنائيًا في الإسكندرية، على أن تذهب عوائد الحفلة إلى خزينة النادي لتنقذه من الإفلاس، وقد كان، وتسببت هذه الحفلة في إنقاذ النادي المُفضل لأهل الإسكندرية وقتها، وتكريمًا لهذه اللفتة الطيبة من كوكب الشرق، تم تسمية أحد المدرجات وصالة الألعاب الرياضية باسمها.

ما بين الماضي والحاضر توقفنا أمام فندق سان ستيفانو، قالت وصال: «لا تترك السيارة مهما تأخرت عليك».

خرجت، ثم اتجهت نحو الفندق، وبعد ساعتين عادت ومعها حقيبة كبيرة.

ـ أين كنتِ؟

ـ قلت لك لا تسأل.

وضعت الحقيبة في المقعد الخلفي، ثم جلست بجوارها.

ـ قد أنت يا ياسين.

ـ إلى أين؟

ـ إلى الساحل الشمالي.

انطلقت بالسيارة وأنا أتابعها في المرآة، تغير ملابسها.

ـ لا تنظر إليّ هكذا، ركز في الطريق.

ارتدت ملابس رياضية، ثم أخرجت مُسدسًا وبدأت في ملء الطلقات وهي تدندن أغنية لمحمد منير: «رزقنا.. الرزق على الله..

دربنا.. خليها على الله..

تصدق الوعود.. والغريب يعود..

دا احنا عمرنا.. يفرجها الله..

صافي قلبنا..

دا احنا للحياة.. وهي دي الحياة..

والدايم الله».

شعرت بالقلق ولم أستطع التوقف عن الأسئلة: «ماذا سنفعل يا وصال؟».

ـ سنلهو قليلًا.

وصلنا إلى إحدى القرى السياحية، تجاوزنا البوابة التي فتحها الحراس فور رؤيتنا، انطلقنا ناحية مجمع شالهيات، وفجأة قالت: «بمجرد أن تراني خارجة من هذا الشاليه ـأشارت ناحية أحد الشاليهاتـ أدر المحرك، واستعد للخروج من هنا بأقصى سرعة، إن لم أخرج خلال ١٠ دقائق.. انطلق أنت وعد إلى منزلك».

سألتها بتوتر: «وحال عودتك، أين سنذهب؟».

ـ إلى القاهرة.

خرجت وصال.. وسط الظلام والأجواء الباردة، إضاءة خافتة تنير الشارع يغطي عليها عاصفة ثلجية قاسية.

مرت عشر دقائق كأنها عشر ساعات، ثم خرجت وصال.. ركبت السيارة.

ـ انطلق.. انطلق.

ما إن انطلقت حتى خرجت سيارة من أحد الشوارع الجانبية، تلحق بنا بسرعتها الكاملة.

ـ لم أفكر في هذا الأمر.. ياسين تعالَ مكاني.

أخذت وصال دور القيادة وانطلقت بالسيارة.. وهي تقول: «أسفل الكرسي مسدس.. إن أصبحت السيارة التي تتبعنا في اتجاهك، لا تفكر كثيرًا».

في الطريق الخالي تمامًا من السيارات، استمرت المطاردة.. بدأ إطلاق النيران من السيارة الأخرى.

ـ بادلهم إطلاق النيران يا ياسين.

ـ ماذا؟

- افعل ما قلت لك.

استمر ضرب النيران بيني وبينهم.. غيرت وصال الاتجاه.. فأصبحنا نسير تجاه مطروح.

- أين سنذهب؟

وهي غاضبة ردت: «اشتقت للمصيف فلنذهب لمطروح، اخرس يا ياسين».

استمرت المطاردة.. حتى اقتربنا من محطة قطار.

قالت وهي تضحك بسخرية: «لن يأتي قطار يقطع الطريق بيننا وبينهم كما يحدث في الأفلام، لكن بإمكاننا جعلهم يتوقفون».

تجاوزنا محطه القطار، ثم بدأنا في سلك طريق صحراوي يغطي عليه التلال الصغيرة.

- الآن حان وقت اللعبة.. سيارتهم لن تستطيع السير هنا.

فجأة اتجهنا ناحية عمق الصحراء، ثم فجأة توقفنا وأطفأت كل إضاءة السيارة.

- سيتجهون نحونا يا وصال.

- لن يحدث.

- لماذا؟

خَرَجت من السيارة: «اتبعني».

خرجت معها بينما أرى السيارة الأخرى تقف بعيدًا.

- لأن سيارتهم عادية فور الدخول الآن ستغرق في الرمال، سيارتنا دفع رباعي، بإمكانها السير في قلب الصحراء، ثم أننا أطفأنا كل الإضاءة، لن يستطيعوا رؤيتنا بسهولة، غير أنهم لن يجرؤا على اجتياز الصحراء سيرًا على الأقدام،

للصحراء هيبة وسر، ومطاردتهم لنا بالرصاص أفضل من مطاردة الصحراء لهم بالعقارب والثعابين.

ـ أين تعلمتِ كل هذا؟

ردت: «كنت أعمل مع أحد مهربي المخدرات في مطروح، ومثل هذه الأساليب نستخدمها للهروب من الملاحقات الأمنية».

ظللنا قرابة ساعة في قلب الصحراء حتى خرجنا للطريق العام.. جلسنا في أحد المقاهي على الطريق حتى طلبت أحدهم على الهاتف: «أنا في الكيلو ١٠١ طريق الإسكندرية مطروح وأحتاج إلى سيارة حالًا».

تنهدت: «يبدو أن دوري في الحياة أن أندهش وأصطدم بمواقف وجرائم قتل ومطاردات»

ردت وصال: «لقد انتهى الأمر، فور عودتنا إلى القاهرة ستحتفل وتنسى كل ما حدث، لا تقلق».

وصلت السيارة بعد نصف ساعة، خلال الطريق لم نتحدث ولم تتحدث وصال مع السائق، وصلنا أحد الشاليهات المُطلة على البحر في أحد شواطئ مطروح، وقبل أن يغادر السائق أعطته وصال خاتمًا، وقالت: «أعطِ هذا الخاتم للمسؤول عنك، وبلغه إن حدث وطلبت المساعدة ولم يأتِ بنفسه سينال نفس مصير ضحيته».

انطلق السائق.. ودخلنا الشالية.

أثاث مناسب للمصايف، أرض عارية، وإضاءة قوية.

ما إن أشعلت سيجارتي حتى انقضت عليّ وصال.

ـ ماذا تفعلين؟

ـ عادة الأوروبيين.

- لا أفهم.
- لن تفهم.. ستفعل.

اقتربت مني وبدأت في تقبيل شفتيّ.. خلعنا ملابسنا.. سحبتني ناحية غرفة النوم.. ثم بدأت ليلة ساخنة.

كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أمارس فيها الجنس، شعور مُختلف، غريب، لكنه ممتع، ربما عيبه الوحيد أنني لم أمارسه مع الفتاة التي أحببتها. تمنيت أن تكون رقية مكانها، تمنيت حقًا أن تكون المرة الأولى مع الفتاة التي اختارها قلبي وعقلي، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

أسندت ظهرها على السرير، أشعلت سيجارة ثم سألتني: «هذه أول مرة تمارس فيها الجنس أليس كذلك؟».

شعرت بالإحراج، وبكذب رجل شرقي قلت: «بالطبع لا».

امرأة مثلها تعرف جيدًا مثل هذه التفاصيل فقالت: «لا، هذه هي المرة الأولى، لا تقلق أنا مثلك».

نظرت لها نظرة تعرف مقصدها فواصلت: «أنا لا أكذب، هذه حقًا المرة الأولى، قبل كذلك كنت أمارس الحب».

في تعجبٍ أشبه بسخرية سألتها: «وما الفرق بينهما؟!».

ردت بعدما سحبت نفسًا من سيجارتها: «ممارسة الجنس تعني أنك شعرت بالشهوة عمومًا، وتريد التخلص منها مع شخص آخر، إشباع رغبتك الإنسانية مع شخص آخر يريد إشباع رغبته. عملية فطرية بحتة مبنية على المتعة والقوة الجنسية، وفور الانتهاء يعود كل شخص لحياته وأفكاره وأمنياته. أما ممارسة الحب فتهتم أكثر بمشاعر الطرف الآخر، الأشياء، واللمسات، والمداعبات التي

يحبها، تهتم لعينيه، وتحفظ تنهيداته وتأوهاته وملامحه وهي في حالة نشوة وحب، تشعر وتسمع نبضات قلبه، تحس بحرارة جسده، وتغرق أكثر مع أنفاسه، وكلمات الحب والولع. تهتم لرغباته وتسعى لتحقيقها، صحيح في النهاية هي نفس الأشياء التي نقوم بها، لكن الفرق بينهما هي المشاعر، واللحظة الأهم هي فور الانتهاء، حين ننتهي تجد المتحابين يتعانقان، يتغازلان، يتحدثان بنبرة في قمة الحب والدفء والهدوء والدلال، عكس الّذين تجمعهما النشوة فقط، تجدهما يبتعدان قليلًا مثلما فعلنا. مع من تحب أنت تمارس الجنس بكل حُب ومشاعر وطمأنينة، مع شخص غريب أنت تمارس الجنس من أجل شهوتك ونشوتك.. لذلك هذه المرة الأولى التي أمارس فيها الجنس، لكنني مارست الحب قبل كذلك».

رددت: «في النهاية هو نفس الفعل».

تنهدت ونهضت من على السرير، ارتدت ملابسها، ثم قالت: «حذرت نفسي مرارًا من التحدث مع الأغبياء.. انهض وتعال».

ارتديت ملابسي، ثم خرجت لها في الصالة، وجدتها تفتح الحقيبة التي أتت بها من الفندق قبل العملية، فتحتها ثم أخرجت ربطة أموال: «هذا نصيبك».

رددت: «لم أطلب مقابلًا، أريد أن أعرف التفاصيل فقط».

قالت: «هذا حقك، افعل به ما يحلو لك، التفاصيل لا تخصك، إن وافقت ستكون احد رجالي، وأقربهم، وستجني أضعاف ما جنيت هذه المرة».

فكرت لثوانٍ ثم قلت: «أحد رجالك؟».

ردت: «نعم، أنا أملك أكثر من مئة رجل تحت قيادتي».

ضحكت: «وتقومين بالقتل بنفسك؟!».

- نعم، هذه المرة عملية خاصة، هي التخلص من واحد من أهم رجال الأعمال في مصر، ولا ينبغي لأي شخص معرفة هويته.

- ربما أنا لست الشخص المناسب.

- لا، أنت المناسب، ولا يهمني نظرتك عن نفسك، إن وافقت ستعيش حياة لا تحلم بها، حياة لا أظن أنك رأيتها إلا في الأفلام، ثم لا تقلق، نحن نعمل مع أكبر رجال الدولة، حتى حال الوقوع بنا لن يستمر الأمر دقائق، ثم يعود كل شيء لطبيعته.

رددت: «إذًا أنت تابعة لنظام سياسي؟».

ردت نافية: «أنا تابعة لمن يملك السلطة والنفوذ، لمن يلبي طلباتي، سواء كان مؤيدًا أو معارضًا، في النهاية لا دخل لنا بهذه الصراعات، ثم أرجوك لا تتحدث معي بلكنة المصلح الاجتماعي، أنت متستر على جرائم قتل يا ياسين وأنا أعلم هذا، قلت لك أنت الشخص المناسب».

- وصال أنا متعب وأحتاج للنوم.

ردت: «حسنًا، في الصباح سأنتظر قرارك».

اتجهت للغرفة وأنا أنظر للأموال التي قدمتها لي وصال، ثم انغمرت في التفكير:

صحيح أنني قاتل مأجور، لكن الخيانة لا تغتفر، وضريبتها القتل، هكذا كانت كلمات ديفيد منذ البداية، هو لم يجبرنا على شيء، لكنه حذر من الخيانة، لا ينبغيّ عليّ الشعور بالخوف، علام

أخاف؟ فلقد فقدت أمي، قتلت أختي، وتزوَّجت حبيبتي. وحيد في حياتي على عاتقي كل المسؤولية، علام أخاف وأنا لا أملك ما أخشى فقدانه؟ حتى نفسي لم أحسها ولم أتعرف عليها حتى أفتقدها، ثم إن ولائي الوحيد للمال، ولا ينبغي أن أكن مشاعر وولاء إلا له. لن يلحق بي ديفيد، لن يستطيع الوصول إلى هنا وسأطلب الحماية من وصال ورجالها.

وأثناء تفكيري العميق فاجأتني دليدا باتصال هاتفي: «أنت على ما يرام؟».

– نعم.

– أردت أن أقول لك إنني أحتاج لوجودك بجواري، أعرف أنك منذ نعومة أظافرك وأنت تتحمل المسؤولية، تتحمل أشياءً فوق طاقتك، وحتى أنك لم تغلق الباب في وجهي حين احتجت لك في أزمتي رغم أنك كنت لا تملك قوت يومك، أنا مُمتنة لك يا ياسين، وأعدك سؤالك فقط يكفيني ليشعرني بالطمأنينة والأمان.

تنهدت ثم قلت: «لماذا اتصلتِ بي في هذا الوقت بالذات؟».

ردت بعد ثوانٍ من التفكير: «بلا سبب، أردت أن أقول لك هذا وحسب».

قلت: «لا تقلقي، أنا دائمًا بجوارك».

أنهيت الاتصال ثم غدوت في نوم عميق.

في الصباح خرجت من الغرفة، كانت وصال غارقة في ثباتها، انتهزت الفرصة وخرجت لأتمشى على شاطئ البحر.

مكالمة دليدا قلبت كل الموازين، لا أعرف لماذا تراجعت لثوانٍ، التراجع كان عاطفيًا، لقد قضيت أيامًا صعبة مع دليدا، كانت صديقة وفية رغم ظروفها الاجتماعية الصعبة، كانت تحاول التهوين من الضغوطات التي أعاني منها، وقبل ذلك حين كانت تدير شركاتها لم أشعر يومًا بالتعالي منها. كانت في قمة اللطف والتواضع، كانت تثق بموهبتي وتؤمن بشهادتي، فبينما كان يراني ويناديني الجميع بالأسطى، كانت تناديني بيشمهندس. صحيح هذا ليس كرمًا منها، فأنا قضيت عمري في كلية الهندسة، لكن حين ينسى الجميع مكانتك التعليمية ويتعامل معك بوضعك الاجتماعي الذي أنت عليه، تصبح ممتنًا لمن يقدرك وسط هذه الظروف امتنانًا أبديًا، رغم ذلك فهي لا تنكر المعروف، لم تنسَ أنني استقبلتها وفتحت لها أبواب منزل أمي المتواضع، لم أرَ في عينيها أي شعور بالقرف أو الاشمئزاز رغم وضاعة الحياة مقارنة بحياة بنت الذوات.

رغمًا عني وأثناء تفكيري في الأمر، اتصلت بسراج وأخبرته بما حدث، لحسن الحظ كان ديفيد معه، تحدثت معهما وعن اقتراحهما، فاقترح سراج أن أخبرها بأنني طبيب نفسي، وأن عملي في الكازينو جزء من دراستي، ورسالة الدكتوارة مبنية على شخصيات من هذا المجتمع.

سخرت من فكرته، لكنه قال بثقة: «صدقني، كل شخص لا يجيد التحدث مع نفسه، يحتاج للتحدث مع طبيب نفسي، مع أي شخص يمكنه الوثوق فيه والتحدث معه بحرية».

فكرت لثوانٍ ثم سألته: «كيف سنقوم بهذا؟».

حينها تدخل ديفيد وقال لسراج: «إن عليه أن يخبرها بكشف سر من أسراره أولًا قبل الاتفاق»، ثم طلب مني العودة إلى القاهرة في مساء اليوم.

عُدت للشاليه، كانت وصال قد استيقظت من نومها وخرجت لتشتري بعض الأشياء التي نحتاجها، ثم اتجهت للمطبخ وهي تعد الفطور. كنت أجلس في الصالة أفكر في كلمات سراج، أتساءل عن سبب إصرار ديفيد على عودتي إلى القاهرة في هذا المساء، وما سيحدث فور العودة. قطعت وصال هذا التفكير بسؤالها: «هل اتخذت قرارك؟».

قلت: «ربما تحتاجين لمعرفة بعض الأشياء عني قبل أن نتفق على العمل معًا».

ردت: «يكفيني ما عرفته عنك، لنبدأ العمل».

قلت: «قد يتغير القرار حين تعلمين الحقيقة التي أريدك أن تعرفينها».

ردت: «حسنًا، لك ما تريد».

في النهاية أقنعتها بمغادرة مطروح والعودة إلى القاهرة في مساء اليوم. مر الوقت وأنا أفكر فيما سيحدث، حاولت التحدث مع وصال التي كانت تُعد طلقات المسدس وتترين.

- لم أستخدم هذا المسدس قط رغم أنه هدية من شخص عزيز على قلبي.

نظرت لها بتعجب، ثم قلت وأنا أعد الأموال الخاصة بي: «يبدو أن ضحية أمس كان ضعيفًا جدًا».

ردت وهي تضحك: «على العكس، لقد كان ضحية شرسة، لكنني لم أستخدم الرصاص طوال حياتي، المسدس معي لأي أمر طارئ، لكنني لا أستخدمه في القتل».

ـ لماذا؟

ضحكت: «واحد من أهم الشروط التي سنضعها بيننا هو ألا يتدخل كل منا في الحياة الخاصة للآخر».

قلت وأنا أغلق الحقيبة: «قلت لكِ ربما سيتغير رأيك في العمل معًا حين نعود إلى القاهرة».

بعد ساعات توجهنا للقاهرة، وفور وصولنا لبوابة القاهرة، اتصل بي سراج وأعطاني عنوانًا أتوجه إليه مباشرة مع وصال. بالطبع لم أستطع سؤاله عن التفاصيل، فأخبرته انني في الطريق، سألتني وصال: «أين سنذهب الآن؟»، أخبرتها بالعنوان، سألتني: «أهو منزلك الثاني؟»، قلت: «بعد قليل ستعرفين كل شيء يا وصال».

ثم رددت ساخرًا في نفسي: «وأنا أيضًا».

وصلنا للعقار، توجهت للشقة وكانت المفاجأة الأولى، هي اللوحة التي وضعت على الباب.

«ياسين بخيت.. طبيب نفسي».

فهمت ما أراده مني سراج وديفيد، فنظرت لوصال بثقة ودعوتها للدخول، استقبلتني إحدى الممرضات ورحبت بي، ثم قالت إن ملف المكالمات والزيارات جاهز في مكتبي. ممثلة متمكنة. دخلت غرفة المكتب ووصال تتبعني.

الآن حان دوري. جلست على المكتب، ثم بدأت في مراجعة الملفات.

- اللعنة! أنا في غاية التعب ولن أقدر على مراجعة أي شيء.

بعد ثوانٍ طرق أحد العمال باب المكتب، أذنت له بالدخول، فقدم لي القهوة وقدم لها أحد العصائر ثم خرج.

- طبيب نفسي وقائد طاولة بوكر في ملهى ليلي.. ثم متستر على قاتلة، وشريك في عملية لقاتلة أخرى! ربما يحق لي سؤالك: ماذا تريد بالضبط من كل هذا؟

الحيرة التي غلبت على نبرة صوتها عززت موقفي أكثر، فقلت بثقة: «العلم».

بطريقة ساخرة: «العلم!».

نهضت من مكانها واتجهت ناحية المكتبة، ثم سألتني: «كم عام قضيته في مسيرتك التعليمية يا دكتور؟».

رددت وأنا أحسب سنين رحلتي الدراسية، مع إضافة عدد سنوات كلية الطب: «تسعة عشر عامًا».

- وبالطبع تتذكر راتبك الأول بعد التخرج.

- نعم.

- كم كان؟

- خمسمئة جنيهًا.

- في الجلسة الواحدة؟

ضحكت: «طوال الشهر».

قلت متقمصًا دور الطبيب: «لكن أنا غايتي العلم، لم ابحث يومًا عن الثراء».

ضحكت: «العلم في الملكوت يا ياسين، لو تبحث عن العلم انزل الشارع وعالج كل هؤلاء البؤساء المكتئبين بلا مقابل، لا يهم أن نمت على سريرك أو بجوار أحد المشردين على الرصيف، أنت صاحب علم، صاحب رسالة، لا تهتم بالمظاهر، لا تختَر حيًّا راقيًا يخجل الفقراء من السير في شوارعه حتى لا يشعرون بمدى وضاعة حياتهم، لن تحتاج للسكن في عقار يحميه رجال الأمن، ستفني عمرك في خدمة الناس، أليست هذه رسالتك العلمية؟».

ـ نظرتك محدودة يا وصال.

ردت: «نظرتي واقعية يا ياسين، أنا الواقع الذي تنكر الاعتراف به، أمثالك يختبئون فقرهم وعجزهم بادعاءاتهم العلمية، لأنهم لم يحصدوا طوال حياتهم إلا هذه السيرة، والإنسان منا يا دكتور يتباهى بكل الأشياء التي يمتلكها، وأنت لا تملك إلا شهادتك.

أخبرني يا دكتور من فضلك: لو أصيب ابنك بمرض بعيد عن اختصاصك، ماذا ستفعل حينها؟ هل ستتكفل شهادتك بمصاريف العملية؟ فيما يخص الناس فأنتم معشر الأطباء لا تسمحون لعلاج أي شخص إلا بعد أن يدفع رسوم الكشف، وطبعًا كلما ارتفعت جودة الطبيب كلما ارتفع أجر الطبيب، وعلى المريض رفع شكوته إلى الله. لو أردت السكن في شقة أكبر من التي تسكن فيها، هل ستدفع ثمنها من شهادتك العلمية؟ مصاريفك اليومية هل تأتي من تلقاء نفسها لمجرد أنك طبيب؟ كل إجاباتك لا ولا تملك خيارًا آخر، المال هو من يجعلنا نقدر على العيش في هذه الدنيا يا دكتور».

بنفس المنطق الذي كنت أؤمن به قلت: «الشهادة العلمية قد تجعل راتبي أعلى مما تتصورين، هناك علماء الدقيقة في عملهم بمبالغ طائلة»

أجابت: «يا حبيبي، بلدتنا تحترم الأطباء والمهندسين لكنها لا تقدرهم، وحتى هذا الاحترام انهار في الفترة الأخيرة واختفى وقار وقيمة هذه المهن. تعالَ لننزل الشارع، ثم ندخل أحد المطاعم الفاخرة، حاول أن تخبرهم أنك طبيب، ثم اطلب أنت من قائمة الطعام أرخص الأطعمة، وسأطلب أنا أغلى ما في القائمة، وحينها ستعرف الفرق بين المعاملة. ربما لو اعترضت على جودة المكان سيطردونك ككلب، لكن أنا سيتوفر لي طاقم العمل لخدمتي، وإن شعرت بالضيق من أحدهم، شكوتي قد تجعله يرافقك الطرد من المكان. هذه هي الحقيقة يا ياسين، مُجتمعنا وحياتنا لا تقدر إلا الأثرياء، ثم ما يحققه العالم بعد سنوات حساب ،ايلة، تحققه راقصة في ليلة واحدة، هذا لا يعيب الراقصة، لكنه يعيب الطبيب الذي قضى عمره في الدراسة؛ لا يعيب المغني أو لاعب كرة القدم الذي يتقاضى الملايين، فهو يملك المال، وبحثه عن العلم أمر ثانوي لا يتطرق إلا من الباب الفضول أو ما ينفعه في أحد اللقاءات التلفزيونية، لكن الطبيب رغم أنه يملك العلم، لكنه لا يملك ما يملكه مثل هؤلاء».

محادثة عقيمة اعتدت عليها أيام الدراسة، وبعدما كنت الطرف الذي يجادل ويناقش أولئك الذين يستصغرون قيمة العلم أمام المال مثل وصال، إلا أنني أصبحت أؤيدها في كل حرف. تذكرت كلمات ماري معي ذات يوم حين قالت: «بعد عدة سنوات ستتغير بعض آرائك، أفكارك التي تبنيتها، التي اقتنعت بها في الماضي، توجهاتك السياسية والاجتماعية، لن تنجو مبادئك من عاصفة التغيير القوية، ستجبرك الحياة على الكفر بأكثر الأشياء إيمانًا في قلبك، ويتحول

هجومك للجهة التي كنت تدافع عنها في الماضي، المهم ألا تخجل من نفسك أو تصر على الثبات والدفاع عن قناعة أو فكرة لم تعد مقتنعًا بها لمجرد خوفك من التغيير، هذا طبيعي فنحن من صنع تجاربنا ومواقفنا وخبراتنا في الحياة».

عُدت من ذكرياتي في نابولي إلى مواصلة المناقشة مع وصال فقلت: «حسنًا، والآن هل ما زال عرضك قائمًا؟».

- مع إضافة جديدة.

نظرت لها في استغراب فواصلت: «طبيب مثلك من الرائع أن يكون مساعدي وطبيبي الخاص، لكن بشرط واحد.. إفشاء سر واحد من أسراري يعني كتابة شهادة وفاتك».

تمت الخطة كما أردت، لم تنكر وصال حاجتها لطبيب نفسي، أو كما قال سراج كلنا في حاجة دائمًا لشخص يسمعنا دون قيود. عُدت للمنزل وظللت أفكر في قرارٍ واحد، مواصلة العمل في الملهى أو الاكتفاء بالاستماع لوصال على أمل معرفة القاتل الحقيقي لكلارك. ظل القرار الذي لا أملك حق اتخاذه يراود عقلي حتى تغلّب عليّ النوم، الأرق عدوي وصديقي الأبدي، لكن لربما ضارة نافعة.

فقد استيقظت قبل ميعاد العمل بساعة، جهزت نفسي سريعًا وخرجت، فوجئت بسيارة وصال، تظاهرت بعدم رؤيتي لها وواصلت المضي، حتى نادتني ودعتني للخروج معها، أخبرتها أنني لم أذهب إلى العمل منذ يومين، ذكرتني بأنها أعطتني إجازة مدفوعة الأجر.

- الشكوك حولي والمحقق لا يزال يحوم في المكان.

- لا تقلق، اترك هذا الأبله لي.

لم أرد عليها، هي مصممة على المجيء ولا توجد أي فرصة للهروب، أمران متشابهان منذ وصولي إلى القاهرة الأولى أن الجميع يهددني بالقتل، والثاني أن الأحداث تسير بسرعة جنونية، فلا وقت للراحة أو الاسترخاء في مصر.

انطلقنا بسيارتها دون أن نتحدث طوال الطريق، كنا نسير في الطرق بلا هدف، الهواء البارد وحده ما ينعش هذه الأجواء الكئيبة. توقفنا أمام أحد المنازل.. نظرت لها متسائلًا عن سبب التوقف فردت: «زيارة عائلية سريعة ثم سنواصل طريقنا».

ـ سأنتظرك في السيارة.

ـ لا، تعال معي.

خرجت معها وتوجهنا إلى أحد المتاجر الغذائية، اشترت كل شيءٍ تقريبًا، خرجنا ثم صعدنا المنزل الذي توقفنا أمامه، منزل قديم، مُتهالك ويبدو أنه مهدد بالسقوط.

ـ هل يسكن أحد هنا؟

ضحكت: «الأشباح، لا تقلق يا ياسين هذا المنزل لن يسقط الآن، لربما ينهار فيما بعد، لكن ليس الآن».

في الطابق الأخير كانت غايتنا، شقة متواضعة تذكرني بتلك التي تربيت وعشت فيها مع أمي وأختي، على أطراف أصابعها اتجهنا لإحدى الغرف، على المقعد كانت نائمة امرأة عجوز، تتجاوز السبعين. وضعنا الشنط، ثم قبلتها على جبينها، وتأملتها لثوانٍ وتحركنا ناحية البيت، قبل أن نخرج قالت العجوز مفزوعة: «أمنية!».

تنهدت وصال ثم استدارت ونظرت إليها: «لا، كوني بخير يا حبيبتي».

لم تنظر إليّ العجوز، عادت إلى ثباتها حتى دون أن تودع وصال.

عُدنا للسيارة وانطلقنا، في هذا الوقت كانت الدموع تنهمر من وصال وهي تدخن بشراهة.

حاولت كسر حالة الصمت فقلت: «يبدو أن العجوز لم تُحب وجودي بجوارك، أعتذر لكِ».

ردت: «لا، المسألة لا تتعلق بك، لقد فقدت بصرها قبل ثلاث سنوات، لذلك هي لم ترَك».

ثم رددت لنفسها بصوتٍ مسموع: «ولم ترَني طوال حياتها».

اتجهت وصال إلى جبل المقطم، خرجنا من السيارة واقتربنا من الجبل، بديعة القاهرة من الأعلى، مثيرة وتحب التأمل فيها، لكن أنا لست هنا لرؤية جمال القاهرة. فكرت في صنع حديث مع وصال فقلت لها: «قبل أن أختار طريقي الحالي، كنت أحب تفاصيل جرائم القتل. أحب مشاهدة الخطط وكيف تدار هذه العمليات، ومع مرور الوقت بدأت أتابع التحقيقات لأشهر وأخطر السفاحين، حياتهم الخاصة، علاقتهم بالناس والمجتمع، تقريبًا ظروف وحياة كل شخص مُختلفة اختلافًا تامًا عن حياة الآخر، لكن كان شيء واحد يجمعهم، تعرفين ما هذا الشيء؟».

قالت وهي تتردد في إجابتها: «الحرمان؟».

ــ لمَ لا تقولي الفقر؟

ردت وهي تضحك: «وارد، إذن أنا الاستثناء في هذه القاعدة».

ما إن تجاوبت معي حتى بدأت في استدراجها، لا يهم إن كانت الإجابة صحيحة أو خاطئة الأهم عندي أن تبدأ في الحديث، سألتها: «وأصعب أنواع الحرمان؟».

ابتسمت: «حرمان الهوية، ألا يعترف بك الذين وجب عليهم دعمك. دعني أقول لك أحد أصعب الأمثلة، منزلنا كان في غاية الهدوء، جو عائلي لطيف يحلم به كل طفل، طلبات مُجابة، استقرار اجتماعي، مدارس أجنبية، أحدث الأزياء، والسفر حول العالم كل عام، ولا أنكر لطف أبي وأمي معنا ومعاملتهما اللطيفة. حياة مثالية مثل تلك التي نراها في الأفلام، وهنا يكمن فكرة السم في العسل، فحين تتوافر كل هذه المميزات وتشتكي هنا تصبح الأزمة عندك أنت، في كيانك أنت، في وجودك أنت.

وبالمعنى الحرفي للكلمة، كانت الأزمة والمشكلة في وجودي، كنا أختين، وصال الصغيرة آخر العنقود، وأمنية البكر الرشيد. لهفة الأم على طفلها الأول تميزه قليلًا عن إخوته، خصوصًا إن كان بارًا لطيفًا معها، وآخر العنقود يعني كل الدلع والحنان والدلال، لكنني فوجئت بأنني معاقبة عقابًا أبديًا».

اتجهت وصال إلى السيارة ثم انطلقنا، أخبرني سراج أن وصال لا تثق بسهولة في أي شخص، وحين تتحدث عن نفسها تفكر كثيرًا وتردد أكثر، هذه النصيحة التي أعمل بها تجعلني أجبر على احترام صمتها الطويل، واصلنا السير في الطرقات حتى توقفت أمام المقابر وسألتني: «هل تخشى السير ليلًا في المقابر؟».

رددت في نفسي: «يا الله يا ولي الصابرين متى انتشر كل هؤلاء المعاتيه في مصر؟».

تظاهرت بالثبات ثم قلت: «بالطبع لا، الله الحافظ».

ضحكت بسخرية، ثم خرجت من السيارة وبدأنا في السير: «لا تقلق، المقابر رغم ظلامها إلا أنها تحتضن بداخلها أحباءنا، الذين هاجرونا من الدنيا الفانية إلى الحياة الأبدية هناك في السماء، ألا تشتاق لأحبائك في المقابر؟».

الظلام وصوت نبيح الكلاب مع أصوات خطواتنا والرياح الباردة، رددت: «يبدو أننا سنلحق بهم بعد قليل».

ردت بعدما توقفت أمام مقبرة صغيرة: «ترى يا ياسين، علامَ تعاقب طفلة صغيرة؟ أي ذنب ارتكبته طفلة لم تتجاوز سبع سنوات ليكون ضريبته عقابًا أبديًا؟».

ـ بالطبع لا تملك إجابة، أنا مثلك أيضًا، ظللت سنوات وسنوات أبحث عن الإجابة، إجابة لعدم اعتراف أمي بي، لا أقصد إنكار النسب، لكن حتى هذا السبب كان أفضل عندي من سنوات الركض عن إجابة لهذا السؤال، أفضل من تحملي لأشياء تبدو سخيفة وتافهة، لكنها كانت تؤذيني يا ياسين.

أتذكر أثناء لقاءاتنا مع العائلة، وحين تتباهى النسوة بعلامات ودرجات أطفالهن في الدراسة، كانت أمي تتباهى بدرجات أختي الكبيرة، تتحدث عن ذكائها وشطارتها في المدرسة، ومدى تفوقها والتزامها، وأنها محبوبة بين الطلاب والمدرسين. أظل أنتظر أن تنهي حديثها عن أمنية وتبدأ بالحديث عني، لكنها لا تذكرني إطلاقًا، رغم أنني كنت أكثر تفوقًا منها.

حين نذهب لشراء ملابس العيد، كانت تتناقش مع أختي، تسألها عن رأيها وألوانها المفضلة، تطلب من البائع أن يعرض لها أحدث وأجدد الصيحات، ثم عني فقد تنساني أو تشتري لي ما تريده هي دون إبداء رأي.

بعد يوم شاق في المدرسة تسأل أمنية عما تشتهي من طعام، تُعد لها طعامها المفضل، تسألها عن تفاصيل يومها وتسمعها بإنصات، تنفعل مع انفعالاتها وتتأثر بما تحكي، ثم تطيب خاطرها ببعض الكلمات إن كانت تشعر بالتعب، وتدفعها للأمام بكلمات الفخر والحماس والتباهي، بل كانت تكافئها، بينما معي كانت تطالبني بمساعدتها في المطبخ، تطلب مني تنظيف غرفتي بشكل مُستمر، كلما ذهبت لها وأردت الحديث معها اعتذرت لانشغالها، أقصد انشغالها بأمر أمنية.

ذات يوم اشتعل حريق في المدرسة، حينها انقلبت المدرسة وهرول الآباء والأمهات ناحية أطفالهم، أتذكر يومها ظللت أبكي وأنا أبحث عن أمي، طفلة تائهة تبكي وتبحث عن أمها وسط الحريق والناس، ظللت أبحث وأنا أبكي لكن دون جدوى، حتى وجدتني إحدى جيراننا وأعادتني للمنزل، ثم ألقت باللوم على أمي، التي تحججت وقتها أن أحد أصدقائها أخبرها بأنه عثر عليّ وسيعيدني إلى المنزل. بالطبع كان عذرًا أقبح من ذنب، لكن القبح الحقيقي أن أمي قد أتت للمدرسة بالفعل، لكنها ظلت تبحث عن أمنية وحين عثرت عليها لم تكترث لأمري.

كنت أشعر بالتفرقة يا ياسين، التفرقة في المعاملة، ورغم أن مثل هذه الأشياء تبدو تافهة للبعض، لكنها كانت عالمي، بالنسبة لطفلة كان هذا ما يؤلمها، خصوصًا أنها لا تملك قدرة على التعبير عما تشعر به، لا تملك المصطلحات المناسبة للشكوى، ولا تعرف معنى ما تشعر به من الأساس، تخيل أن تشعر بشعور سيئ يؤلمك، لكنك لا تعرف كيف تعبر عنه، لا تملك الكلمات للحديث عنه، كل هذه المواقف كانت مُبهمة التفسير، لكنها قاسية الأثر على قلب طفلة صغيرة. ظللت أتعامل مع هذا الوضع الذي لا أفهمه. فهمت أن أمي لا تحبني بلا سبب واضح. كان شعوري واضحًا وصريحًا وصادقًا يا ياسين، الأطفال لا يعرفون تزييف المشاعر، كنت أشعر بهذا وأخبرت أبي به مرارًا، لكنه كان يضحك ويسخر، ثم يحدثني أن الإنسان السوي يحب الخير لأخيه وللناس. طفلة لا تتذكر المواقف ولا تجيد التحدث بالمنطق لن تتمكن من إقناع أو شرح ما يحدث لأي شخص بما فيهم والدها. اقتربت من أبي أكثر وتوطدت علاقتنا، أحببته لأنني شعرت بالعدل معه عكس ما شعرت به مع أمي، لكن ظل سؤال يراودني:

لماذا لا تحبني أمي؟

فترة طويلة يمكن القول إن حتى هذه الأشياء التي كانت تكسر قلبي كانت مجرد تهيؤات أو أفكار طفولية بريئة. تجاوزنا مرحلة الطفولة وبدأنا مرحلة النضج والوعي، وفي هذه المرحلة علمت السبب.

لقد أتت أمنية إلى الدنيا قبلي بثلاثة أعوام، لكن كانت لعائلة أبي رأي آخر، فلقد كانوا يطالبون أبي بإنجاب «الولد ». بعض الأعراف القديمة تكون أقوى من العلم والتحضر، لهذا قضت أمي ثلاث سنوات من العذاب النسوي النفسي، ودعني أقول لك شيئًا لا تعرفه إلا امرأة، النساء حين يتحدن لإصابتك بضرر نفسي لن تنجو منه أبدًا. في كل تجمع عائلي كانت النسوة تطلق سهام الكلمات المسمومة على أمي، كأن إنجابها لبنت وصمة عار عليها، ورغم الاتفاق بينها وبين أبي على الاكتفاء بطفل واحد، إلا أن ضغط النسوة وكلماتهن وهمزاتهن وكيدهن، كاد أن يصيب أمي بالجنون، لذاك قررت أمي الحمل مرة أخرى، في البداية اعترض أبي، لكن «الزن على الودان أمر من السحر»، وبالفعل حملت أمي من جديد، حينها شعرت أمي بالفرصة لاسترداد كرامتها ونهاية التعب النفسي الذي أصابها. كانت أمي تصلي طوال الوقت حتى يرزقها الله بالولد الذي سيخلصها من العذاب النسوي القاسي.

ما إن تكون الجنين حتى سافرت أمي إلى لندن لمعرفة نوع الجنين، لأن في هذا الوقت لم يكن من السهل معرفة نوع الجنين، وحدها الدول الغنية كانت توفر هذا الجهاز المُتقدم. تخيّل رغم وضعنا المالي المرموق لكن الضغط الذي عانت منه أمي جعلها تخضع لتخاريف وأعراف عائلة أبي الصعيدية، التي تؤمن بأفضلية الرجل على البنت، وبالفعل أظهرت النتيجة ما انتظرته أمي طويلًا، بل أكثر من ذلك، فلقد من الله عليها بطفلين في بطنها،

الأول الولد الذي انتظرته ليخلصها من الضغط والعذاب النفسي، والثاني تعيسة الحظ أنا، لم تتكتم أمي الخبر، بل كان ينقصها أن يذاع الخبر في قنوات الأخبار والجرائد المحلية، لم تكتفِ بإعلان الخبر، بل وصل الأمر بها لإقامة لقاءات عائلية أسبوعية، وتوزيع الهدايا على الأطفال. الفخر والتباهي لمجرد أنها رزقت بالولد. حتى حانت اللحظة المنتظرة، واشتد الطلق على أمي، واتجهت لأكبر مستشفى في مصر حتى تلد مهديها المنتظر. لكن للقدر رأي آخر. لم يتحمل الرحم خروج طفلين في لحظة واحدة، خرجت للدنيا قبل الولد بثوانٍ، ليخرج بعدي الولد جثة هامدة. أصيبت أمي بصدمة نفسية كبيرة، خصوصًا بعدما اتفق الأطباء على رأي واحد: «أمي لن تحمل مرة أخرى، فلقد أصيب الرحم بأضرار بالغة الخطورة». ظلت ٦ أشهر لا تنظر إلي، لا ترضعني، لا تتعامل معي، لا تعرف ملامحي، ٦ أشهر لم ترَني ولو للحظة واحدة. كنت بالنسبة لها نذير شؤم، المسمار الأخير في نعش علاقتها مع عائلة أبي، الأنانية التي قررت أن تقتل أخاها لتخرج من رحمها إلى الدنيا. صحيح لقد مات أخي قبل أن يلتقط أنفاسه الأولى في الدنيا، لكنني مُت أيضًا وعوقبت عقابًا أبديًّا منذ اللحظة بعد ولادتي.

تقدمت وصال خطوتين ناحية المقبرة، ثم جلست وبدأت في قراءة الفاتحة، ثم نهضت وهي تضحك وتتحدث إلى القبر: «رحمة الله عليك يا سبب شقائي في الدنيا».

خرجنا من المقابر، ثم انطلقنا بالسيارة.

واصلت وصال: «ماذا نفعل حين تصدمنا الحياة بواقع لن نستطيع تغييره؟».

- بالطبع سنعتاد ونتأقلم.

- وإن اعتدنا، ماذا لو كنا نملك مشاعرَ تتألم وقلوبًا تنكسر رغم تأقلمنا على الوضع؟

صمتُّ.

- الاعتيادية والتأقلم أسهل وأصعب طرق الناس لتقبل وضع لا يناسبهم، لكن مع شخص مصاب بداء التركيز في أدق التفاصيل يصبح الوضع مُستحيلًا لا يطاق، لأنني لا أستطيع أن أغمض عينيَ أمام كل شيء، رغمًا عني تقع نظراتي على تفاصيل تؤلمني، كملامح وكلمات من حولي أثناء حديثي معهم، مدى تقبلهم للاستماع ومدى رفضهم، كلماتهم التي تقال وقت المزاح ووقت الغضب، تنهيداتهم إشارة للملل أثناء حديثي معهم، علامات الغضب أو الرضا حين أبدي رأيي في موضوع ما. فور حضوري عمومًا والملامح التي تتغير ما بين الابتسامة أو عقد الحاجبين، حتى أثناء تعبي أركز فيمن يحاول التهوين عليّ وتخفيف آثار التعب، ومن يستهن به ويعتبرني مبالغة فيما أشعر، وأولئك الذين يسألون ويهتمون بدافع الواجب حتى لا تلزمهم بالتخلي عنك أثناء تعبك. صحيح أنني تأقلمت واعتدت على حقيقة ووضع مأساويّ، لكن الآلام في قلبي لم تهدأ، الآلام في قلبي لمْ تتوقف. أمارس مهامي اليومية بثبات تام حتى يحل الظلام، فأتساقط، أمزق، أحس بأنين قلبي وسكاكين اللآم تسلخه، لكنني كما قلت مُتأقلمة.

توقفنا أمام إحدى مدارس الثانوية، ثم ظلت تنظر للمبنى الكبير وواصلت: «تجاوزنا مرحلة الإعدادية، ثم الثانوية، وهنا ظهرت فوارق أكبر في العلاقة بيننا، أمي أصبحت أقرب أصدقاء أختي، بينما ظللت أنا وحيدة، ليس لأنني فتاة انطوائية، على العكس، أنا أحب كل النساء، وأحب التجمعات والأصدقاء، لكن لأن بداخلي بات يقين أنني عبء وحمل على الجميع، بأنني مرفوضة.

مؤلم إحساس الرفض يا ياسين، شعورك بالرفض من كل شيء، وجودك غير مُرحب به في أي مكان، أحاديثك مملة وسخيفة، النكات التي تطلقها أكثر مملًا وسخافة، في كل تجمع تشعر كأن الجميع لا يتقبل وجودك. في كل حدث ومناسبة سعيدة تشعر بأن وجوك يفسد هذه اللحظات. إحساس الرفض حتى أمام نفسك، ترفض ملامحك، نبرة صوتك، ترفض تعبك وتستهين به وتسخر من مأساتك، الرفض الغير مبرر من كل شيء حولك، حتى نفسك لا تتقبلها.

ظل هذا الشعور يراودني طويلًا، لم أكره أختي، على العكس كانت أمنية لطيفة في التعامل معي، صحيح لم نكن أصدقاء، لكنها كانت لطيفة وودودة، وكان هذا يكفيني لتجنب أي صدام، فمهما كنت على حق سأصبح مدينة بالاعتذار لأختي. أبي كان لطيفًا، لكنه كان عادلًا جدًا في التعامل بيننا، وبالطبع لم ينصت لما أخبرته به في طفولتي. دعني أقل لك يا ياسين إن الحفاظ على الود بيني وبين أختي كان بمثابة الإنجاز الحقيقي، نعم فأنت لا تعلم معنى أن تواصل حُبك مع شخص، يملك أفضلية عنك في كل شيء، يتمتع بالحنان والاحتواء الذي يستحقه، والذي تستحقه أنت أيضًا، الاهتمام والمشاركة، التباهي والاعتزاز بوجوده، بينما أنت مهما

فعلت أشياءً عظيمة ومهمة، ربما سيشكرون الطرف الثاني لأنه لم يحقق شيئًا عظيمًا مثلك، لأنه أتاح لك الفرصة للنجاح. أفضلية في الدفاع والاحتماء، ويدرك تمامًا أنه يملك سندًا وعونًا، فلن يسمحوا له أن يسقط أبدًا».

نظرت إليّ ثم سألتني: «هل تشعر بالملل من حديثي؟».

قلت وأنا صادق فيما أقول: «لا، لكن هناك سؤال يراودني: لو كنتِ بطلة في رواية، كيف على الكاتب أن يقنع القارئ بأن من الممكن أن تكون قاتلة تملك حكمة في سرد أحاديثها؟».

ردت وهي تضحك: «الروايات مضيعة للوقت يا ياسين، الأفلام والمسلسلات صورت القاتل على أنه بلا قلب، بلا رحمة، يظهرون كل الجوانب السلبية منهم، وينكرون حقيقة أن لكل شخص جانب مُسالم وجانب عدواني، وأن لكل شخص أسبابه الخاصة التي يعيش بها ويختار من أجلها طريقة حياته».

قلت: «ربما لخوفهم من تجميل القتل في أعين الجماهير».

ردت: «وهل اختفى القتل؟ هل انخفض معدل الجريمة؟ بالطبع لا، صحيح أن هذا المنطق يحترم، لكن مع التطور الذي نعيشه، أصبح عليهم أيضًا أن يعترفوا بأن العمل الإجرامي ناتج من تفاصيل ومواقف الحياة مغامرةً يا ياسين، ولخوض هذه المغامرة عليك أن تدرك أمرين.. هل تعرفهما؟».

رددت: «القوة والأمل».

ضحكت ثم قالت وهي تدير مُحرك السيارة وانطلقت من جديد:

ـ القوة والأمل.. لكن أظن أن هناك دافعًا آخر يجعل الأبطال أبطالًا: الدعم.

يعني أن مهما كنت قويًا فحتمًا ستعيش لحظات صعبة وحزينة تعاني فيها من الضعف والهذيان، في هذه اللحظة تحديدًا إن كنت تثق أن هناك من سيمد لك يد العون، فستعود من جديد لمواصلة المعركة، إن كنت تثق أن هناك من سيفعل كل ما بإمكانه لتستعيد قوتك، ستستعيدها بالفعل حتى لو كنت لا تملك الحماسة الكافية للمواصلة، حتى لو كنت لا تملك القوة للنهوض والانتصار، حتى لو فقدت شغف المعركة نفسها ستعود وتنتصر. أضعف الإيمان إن لم يكن لأجل نفسك فمن أجل كل الذين دعموك وحاولوا بكل طاقتهم مساعدتك. هذا بالضبط ما كنت أفتقده أيضًا مع شعوري بالرفض وفقدان الهوية.

مرت السنوات وتخرجت من كلية العلوم، وتزوجت أمنية التي غادرت مع زوجها لأمريكا، ثم مات أبي وأصبحت أنا وأمي فقط في المنزل. كانت فترة صعبة، فالونس يقلل من حدة الآلام، وعدل أبي كان يهون الكثير من المواقف الصعبة، لكن بعد رحيله أصبحت وجهًا لوجه أمام أمي. كانت أمي تناديني بأمنية؛ لم أعترض يومًا، لكنني كنت أتألم كلما نادتني باسمها، ليس كرهًا لأختي، إنما لحقي في اعتراف أمي بي.

تجاوزت، ثم تجاوزت، وبدأت التركيز في صنع حياة عملية مُستقلة، تحررت من عباءة أمنية لكيان وصال، وركزت أكثر في حياتي الخاصة، كُنت أفتقد الحب لكنني لا أبحث عنه، العمل طوال الوقت هو غايتي للهروب من

الضغوطات النفسية التي أعاني منها، وذات يوم وحين عُدت من العمل، فوجئت بوجود أحد أقاربنا يتحدث مع أمي، رحبت به ودار حوار حول العمل والدراسة والأحوال السياسية والاجتماعية.

ماجد المنفلوطي دكتور نساء وتوليد، ويملك أكثر من معمل ومركز طبي معروف، رجل ذات مكانة مرموقة في المجتمع. في نهاية حديثه عرض عليّ العمل معه في أحد هذه المراكز، لم أبدِ رأيي حتى فوجئت بموافقة أمي التي قالت: من اليوم أصبحت تعمل معك.

كالعادة التزمت الصمت، لقد اعتدت مثل هذه المواقف المُحرجة منها، حتى أفراد عائلتنا يعلمون هذا، فلا داعي للدراما رغم سخافة المواقف.

عُدت للغرفة بعدما جهزت استقالتي من المستشفى الذي أعمل به، ثم غدوت في نوم عميق لمشوار جديد في حياتي».

توقفت وصال بسيارتها.

ـ ها قد عُدنا إلى منزلَك.

ـ ألن نواصل؟

ردت: «الأيام بيننا، الأهم أنت ما زلت في إجازة، استمتع بها ولنا لقاء آخر».

خرجت من السيارة وأنا أغلق هاتفي.

أخيرًا سأعود إلى سريري! لا أعلم كيف صمدت كل هذه الساعات؟ دون أن أخلع ملابسي غدوت في نوم عميق.

12

نابولي

«منهج بوشياتا.. خائن المافيا».

مر أسبوع على الحادث، الحكومة استجابت للتسريبات ومطالب الشعب، وأصدرت قرارت اعتقال لأكثر من سياسي معروف بما فيهم عُمدة باري، لسوء الحظ لم يستطيعوا القبض عليه، فقد وجدوه منتحرًا في منزله، خبر قتل بيريتوف هز أركان المافيا أيضًا، لم يعد للمافيا قائد من الآن. وهم يمرون بمرحلة حرجة تذكرني بتلك التي مروا بها في قضية «بوشياتا» خائن المافيا الذي بسببه توقفت حركة المافيا لفتراتٍ طويلة. النظام يتهاوى والمافيا تتفكك، وهذا يعني أن كل القوة التي يخشاها الناس هي في الأساس قوة هشة تظهر حقيقتها حين يتحد الناس على إسقاطها. خلال الأسبوع أرسل ديفيد تعزيزات أمنية جديدة لدليدا، الحدث الأبرز كانت رسالة جورج التي مفادها أنه يريد عقد اجتماع للمجموعة لاختيار قائدها الجديد، ثم إنه ينوي تغيير بعض الخطط، ومن ضمنها عودة ديفيد شاهين للمجموعة. تناقش ديفيد معي أنا وماري عن الرسالة، أبدينا اعتراضنا، لكن كانت لديفيد أغراض مُختلفة، هو لا يزال يحتفظ

على النساق الحيادي بين الحكومة والمافيا، وعدم حضوره لهذا الاجتماع يعني تأييده لمطرقة الحكومة التي لن يفلت منها، غير أنه في حاجة لمعرفة التطورات الجديدة، وأهداف المافيا في المرحلة المقبلة، خصوصًا في هذا الوضع الحرج.

قررنا بالفعل الذهاب إلى الاجتماع في قصر السيد جورج.. ونحن في الطريق توقفنا أمام أحد محلات الحلوى، خرج ديفيد مع السائق ثم عاد السائق مُحملًا بالهدايا.

- لمن هذه الحلوى؟

أجاب ديفيد: «هي المفضلة للورين وجوماني».

- جوماني!

هز رأسه: «نعم، جوماني لا يزال حيًا».

لم أفهم ما يدور في رأس ديفيد، لكن المناقشة في هذا الوقت تعني تشتت أفكاره، لذلك الصمت في هذه المواقف أفضل الحلول.

وصلنا إلى القصر، وكالعادة منع الأمن دخول الأسلحة، ومسموح لشخص واحد رفقة الضيف أن يحضر الاجتماع. اضطرت ماري للبقاء في الخارج، ثم ذهبت مع ديفيد لصالة الاجتماعات.

على الطاولة كان يجلس جورج، على يمينه مكرم أبو العزم، بجواره كاستلو، يوهان عزرا، على يسارهم ديفيد وإيفانوفيتش.

رحب جورج بالحضور، ثم بدأ الاجتماع: «في البداية رحبوا معي بعودة السيد ديفيد شاهين، لقد افتقدناه جميعًا، ووجوده معنا هنا هو مجرى حديثي اليوم، ربما تدركون جيدًا الأوضاع التي نمر بها، لقد قُتل بيريتوف نتيجة لخيانته لنا واتفاقه مع عمدة باري، نحن لا نريد أن نصنع بوشياتا آخر، ولن نسمح بتكرار نسخة جديدة

من هذا الخائن الوغد. الحكومة تشن ضرباتها الآن ناحية رجال السياسة المتورطين معنا، وفور الانتهاء ستواصل زحفها إلينا. إننا نخشى أن يتم الوشاية بنا من الذين نتعامل معهم، لذلك قتل ستيفانو قبل يومين، وقبله قُتل مسؤول الأمن العام في نابولي، لكن هذه الخطط لن تنجح في كل مرة، لذلك علينا أن نتحد من أجل الحفاظ على كياننا وعائلتنا».

قال إيفانوفيتش وهو يصب لنفسه كأس النبيذ: «أرى أن مواصلة القتال مع الحكومة سيجعلها تتراجع وتفكر من جديد قبل أن تتجه نحونا، حتى الآن ما زال الشعب لم يتطرق نحونا، حتى عائلة ديڤالو التي لا نعرف أعضاءها أعلنوا في بيانهم الأخير أن عداءهم وخلافهم ليس مع المافيا إنما الحكومة، لذلك مواصلة الحرب لن تكون باسمنا، بل باسم الشعب الثائر».

اتفق كاستلو مع إيفانوفيتش حين قال: «أؤيد هذا الاقتراح، نحن ما زلنا في أمان».

ظهرت ملامح الاعتراض على ديفيد الذي قال: «كان من الشرف أن تقول علينا مواصلة الصراع باسمنا، لكن أن تقوم بقتل رجال الأمن، ثم تنسب هذه التهم للشعب، وتتركه أمام رد الاعتبار الحكومي، وأنت تعلم أن الحكومة سترد بكل قوتها كمحاولة منها للحفاظ على سيطرتها وقوتها في مواجهة ثورة مُسلحة، هذا عمل لا أخلاقي».

قال جورج: «نحن في وضع استثنائي ولا مكان للعاطفة والأخلاقيات في التعامل مع هذه الأزمة».

رددت: «إن لم نتعامل مع هذه الأزمة حسب العرف الإيطالي سينقلب الشعب ضدنا أيضًا».

رد إيفانوفيتش: «نحن الطرف المُستفيد من هذه الحرب، إن انتصرت الحكومة فهذه فرصتنا لبث روح الهزيمة أكثر في نفوس الشعب، حينها ستصبح تجارتنا مهربًا للمنهزمين يتهافتون عليها ليتناسوا مرارة واقعهم».

كمل عزرا كلمات إيفانوفيتش: «وإن انتصر الشعب وتهاوى النظام قد نمارس تجارتنا بشكل رسميّ، نحن مع الفصيل المسيطر أيًا كان، لكن لماذا لا نفكر بطريقةٍ أكثر ذكاءً؟ إن بدأنا بالهجوم باسم الشعب، فالحكومة لن ترحم الشعب، وستكون ضرباتها في غاية القسوة، لكن إن بدأنا الضرب باسم الحكومة، ستبدأ المعارضة بالاستنجاد الخارجي، ومعها حماس ومرار الشعب العزل، وعزمهم على رد الاعتبار، في هذا الوقت ستصبح الحكومة في وضع حرج؛ أولًا عليهم إثبات براءتهم من بحر الدماء المنتظر أمام المجتمع المحلي والدولي، ثانيًا سيبدأون في البحث عن منفذي العملية خصوصًا».

قال ديفيد: «لماذا لا نتفاوض مع أحد الأطراف؟».

رد جورج: «لأن الحكومة تؤكد أن المسؤول عن التسريبات هي المافيا، ونحن نظن أن المسؤول عن التسريبات هي المعارضة، والشعب سيتحد مع الطرف المسؤول أيًا كان».

تنهد ديفيد ولم يجد ردًا لوقف الحرب المنتظرة.

بعد دقائق قال جورج: «حسنًا، خلال الأسبوع ستبدأ عمليات انتقامية في نابولي، باري، بارما، ميلانو، روما، تورينو. الاستهداف سيكون للنوادي، المدارس، الجامعات. سنجعل إيطاليا تغرق في دمائِها».

نظر رجال إلى بعضهم البعض.. هنا انفجر ديفيد في وجههم: «البداية كانت الموافقة على تجارة المخدرات التي لطالما رفضتها،

ثم الآن سيدفع المدنيون ثمن خطتكم القذرة، هذا الاجتماع عبارة عن خيانة لإيطاليا وللشعب الإيطالي، لقد كسبتم عداوتي الآن، وأقسم لكم لن تستطيعوا تحقيق أهدافكم وخطتكم ما دمت أنا هنا».

خرج ديفيد غاضبًا من الاجتماع، هذا ليس الخروج الأول بهذه الطريقة، لكن حتمًا سيكون الأخير له بعدما أعلن بشكلٍ مباشر رفضه لهذه السياسات، وتوعد لهم بالانتقام حال التعرض له.

عادت حالة التوتر من جديد، لكن هذه المرة لن تمر مرور الكرام.

ـ فكر يا ديفيد، فلقد أعلنت بشكلٍ واضح رفضك لهذه السياسة، وهذا يعني أنك أصبحت مُعرضًا للقتل في أي وقت. نحن لسنا في مجلس الشيوخ، بإمكانك إبداء رأيك والاعتراض، رفضك هنا يعني الانقلاب عليهم.

كلمات قالتها ماري لديفيد الذي يبدو عليه أنه اتخذ قراره بالفعل. طوال الطريق لم نتحدث حتى وصلنا إلى القصر، جلس ديفيد على مقعده ثم قال لماري: «هذا الاجتماع ما كان إلا فخًا، هم يعلمون جيدًا أنني لن أقبل بالعمل في تجارة المخدرات، ولن أقبل أن تشن المافيا كل أسلحتها في وجه الأطفال والمدنيين. لم يكفهم قتل زوجتي وانقلاب كارتزوني عليّ، بل استهزأوا بذكائي أيضًا. حسنًا.. إنهم لا يريدون بوشياتا آخر، لا يريدون خائنًا آخر في المافيا، لتكن الخيانة ولينفضح أمرهم جميعًا».

قالت ماري: «أرجو أن تعيد تفكيرك مرة أخرى، فقرار كهذا قد يجعلنا نقضي حياتنا مطاردين من قبل المافيا، وقد نضطر للعيش في أماكن لم نتخيلها، وبأسماء أخرى تخفي هويتنا. ستنقلب حياتنا

رأسًا على عقب، أرجو أن تعيد تفكيرك مرة أخرى يا ديفيد وترى هل نستحق أن نعيش ما تبقى من حياتنا كالمطاريد؟».

وقف ديفيد أمام النافذة التي كانت تسمح بمرور شعاع الشمس منها، ليغطي بوقفته هذا الضوء البسيط في الغرفة وقال: «لقد حكمت علينا الحياة بأيام صعبة، مواقف، أقدار، وأجبرتنا على اتخاذ قرارات مصيرية لم نكن نأمل أن نتخذها، لكنها الحياة بكل ما فيها من تقلبات ومواقف وأحداث، صحيح أن الأيام الصعبة تنتظرنا وقد نقضي سنوات طويلة في حلقة لا تنتهي من الآلام والبؤس والمطاردات، وبإمكاننا أن نختار المكسب ونحافظ على ما نحن عليه، لكن صدقيني لو فزنا بالطريق الأقل ضررًا سنخسر أنفسنا مرة أخرى، وهذا سيكلفنا أكثر مما سنخسره في مطاردتنا مع المافيا».

تنهدت ماري التي عجزت عن إقناع ديفيد بالتراجع عن قراره، نظرت إليّ نظرة تملؤها الخيبة. اقتربت مني وهمست وهي في طريقها للخروج من غرفة المكتب: «حاول أن تجعله يتراجع عن قراره، سيكلفنا هذا القرار العيش في ظلام أبدي».

لم أرد عليها؛ كنت أشعر بالعجز مثلها تمامًا، لا فائدة من المحاولة مع شخص عنيد مثل ديفيد، قد اتخذ قراره بالفعل، ربما الآن عليّ أن أبحث عن حيثيات هذا القرار الانتحاري الذي سيكلفنا جميعًا كما قالت ماري أن نقضي حياتنا كالمطاريد. ظللت صامتًا في مكاني حتى دخل كارتزوني: «كنت أعلم أنك المسؤول عن هذه الحركة الثورية، لكنني لم أملك دليلًا واحدًا يساعدني على الوشاية بك».

رد ديفيد الذي كان هادئًا جدًّا رغم انفعال أخيه الأصغر كارتزوني: «منذ طفولتك وأنت نقطة ضعفٍ للعائلة، كنت تهوى القتل وسفك الدماء، تريد أن تصبح رجل مافيا مُحترفًا، لكنك كنت ذليلًا أمام نزواتك، كانت نقطة ضعفك الوحيدة أنك تنجرف سريعًا أمام الشهوة، لهذا خسرت الكثير من الأشياء المهمة، أهمها احترامك لعائلتك ولنفسك».

قال كارتزوني: «أردت أن أخلص عائلتنا من قائدٍ ضعيف مهترئ مثلك، من قائد بالصدفة أراد أن يعيش حياة الضعفاء، الفرق بيننا أنني قوي جدًّا أمام أعدائي، ونقاط الضعف هي ضريبة القوة، لكن أنت بلا أي نقاط قوة، أنت لا يخشاك أعداؤك، لا يضعون لك أي اعتبار، لا يخشون أي رد فعل منك. سرقوا حبيبتك، اغتصبوا زوجتك أمام عينيك ثم قتلوها، خطفوا ابنك، والآن طردوك من جماعاتهم كالكلب الذليل الذي لا ينفع ولا يضر. أعرف مقدار قوتك يا ديفيد، رد الفعل الوحيد الذي قمت به كان ضد زوجتي، قتلتها لتخلص عائلتنا من الخيانة، حسنًا، أهذا مفهومك عن القوة؟ كان من باب أولى أن ترد على كل الانتهاكات التي حدثت في حقك».

نهض ديفيد من مكانه، تحرك ناحية كارتزوني، ثم وقف أمامه وقال: «المعارك الطويلة تحتاج لشخص صبور يا كارتو، تحتاج لشخص هادئ لا ينجرف سريعًا أمام الاستفزازات، لم تتعلم مني بعد كيف تدار الأمور، لكنني دعوتك لأسألك: سنغادر إيطاليا، هل ستأتي معنا أم ستبقى هنا؟».

ابتسم كارتو وأجاب بثقة: «سأبقى هنا، وسأخبر المافيا بكل شيء، مهما ذهبت ستجد في كل بلدة مئات الرجال ينتظرونك للنيل منك».

اقترب ديفيد أكثر من كارتو، عانقه عناقًا طويلًا وهو يهمس له: «يؤسفني أن أقول لك هذا، لكن انتهى نضالك ومعركتك يا كارو.. لم تترك لي رفاهية الاختيار يا أخي».

دفعه كارتزوني، ثم خرج من غرفة المكتب، فجأة سمعنا صوت إطلاق النار.

- انتهى أمرك يا كارتو.. مع كل الأسف!

قطع صوت الرصاص كل الكلمات التي كانت تدور في ذهني وقتها، لم أسمع وقتها إلا صوت الصمت المخيف، لقد انتهى أمر كارتزوني، لقد قتله مروان الذي كان ينتظره في الخارج.

- في النهاية أنت وحش يا ديفيد، وحش لا يقوى إلا على الضعفاء.

كلمات نطقت بها رغمًا عني، وبعض الكلمات لا نتحمل ضريبتها، توقعت رد فعل قاسٍ من ديفيد الذي استدار وقال في هدوءٍ تام: «من البداية أنا لستُ رجل مافيا يا سراج، أنا إنسان رمادي متصالح مع ذاتي ومع مبادئي، ومثلما أملك قوى الخير أعرف مقدار قوى الشر بداخلي».

- قتلت أخاك؟ هل تفهم وتستوعب ما قمت به؟! لقد قتلت أخاك! أليست هذه الأفعال تخالف مبادئك؟

أجاب: «المصلحة الجماعية تتغلب على المصلحة الشخصية، وتتغلب على المبادئ نفسها، لا بُدَّ أن يظل أفراد هذه العائلة في سلام وأمان، وما دام فرد واحد قد يعكر صفو هذا الأمان، فلا مانع من قتله في سبيل أن يحيا الجميع».

- والمصلحة الجماعية نفسها قد تقضي عليك الموافقة على خطط المافيا من أجل حماية عائلتنا، لكنك اخترت عداوتهم خضوعًا لمبادئك، إذًا مبادئك نفسها قابلة للمط والتعديل.

أجاب نافيًا وهو يتكئ على كرسيه: «الأمور لا تدار هكذا يا سراج، قديمًا حين عجزت بريطانيا على اختراق والاستيلاء على الصين استخدمت أقذر الأسلحة والطرق الممكنة «حرب الأفيون»، جعلت الشعب الصيني شعبًا مُدمنًا، لا يفكر إلا في شراء الأفيون، ولذة السعادة تحت تأثير المخدر. هذا ما تريده المافيا الآن، أن تجعل الشعب الإيطالي ينسى مرارة الأحداث. ينسى سنوات الجوع والفقر نتيجة للفساد، وحين تفقد شعور مرارة الهزيمة لن تنهض مجددًا، ستبقى في وهم النسيان حتى يتحول كل شيء حولك إلى رماد لا قيمة له. المخدرات ستجعل إيطاليا تعيش سنوات وسنوات في ظلام أبدي».

قاطعته وقد بدأت أفقد السيطرة على أعصابي: «لا تتحدث بهذه اللكنة الإصلاحية، أنت عضو في عصابة المافيا، أنت مسؤول أيضًا عن كل نقطة دماء سقطت من المدنيين سواء من عائلتك أو من حلفائك، هذه هي الحقيقة».

أجاب: «حسنًا كوني عضوًا في المافيا، يعني إباحة الدماء، المخدرات، السرقة، اغتصاب النساء وتشرد الأطفال وقتل العواجيز، يعني أن تصبح مُخادعًا وماكرًا ودنيئًا، هذا القالب الفاسد الذي لا بُدّ أن تكون جزءًا أصيلًا منه، لربما بسبب هذه الأحكام العرفية لا تجد من يملك الجرأة على التراجع عن هذا الطريق لأنه يعلم أن المجتمع لن يتقبله، أنا لا أبرأ نفسي، لكنني أرغمت على هذا الطريق، قد لا تصدقني، لكن هذه هي الحقيقة، ولا تظن أن عودتي عن هذا الطريق يعني أنني سأوزع الورود على العامة، أو أتحول لرجل طيب ودود مع الناس، أبدًا، هذه ليست من صفاتي، لكن على الأقل لن أكون بهذا السوء الذي أنا عليه الآن، وحتى طريق العودة ليس ممهدًا بالأزهار بل هو حقول ألغام أسعى بكل طاقتي للنجاة والهروب منه».

- أنت تريد كسب تعاطفي، ولو كان بإمكانك لكتبت قصتك الشخصية في رواية واستهدفت تعاطف الناس، أو ربما جعلت من نفسك بطلًا خارقًا.

أجاب وهو يضحك: «لو تم القبض علينا الآن يا سراج، ستتباهى الحكومة بالضابط الذي ألقى القبض علينا، سيتهافت الكتاب السينمائيين على لقاء واحد مع هذا الضابط من أجل سرد تفاصيل العملية، ومن ثم تحويلها لعمل سينمائي يعرض مدى قوته ونجاحه، ستسعى هيوليود لإثبات الأصول الأمريكية لهذا الضابط لتثبت كفاءة رجال الأمن الأمريكان، ستفتش ألمانيا عن الشركة المصنعة لذخيرة الضابط لتثبت أنها الرائدة في الصناعة، وسيصبح عنوان هذه القضية في موسكو «الضابط الشيوعي قبض على أفعى

رأس المال»، بينما الفاتيكان سيحدثنا عن مدى قرابة هذا الضابط من الله، وأنه لولا مباركة الرب لما استطاع تحقيق مراده. هذا تحديدًا ما سيحدث مع الضابط الناجح، بينما سيجلس كهل في إحدى الحانات يسخر من كل هذا وهو يفكر في قوت يومه هو وعائلته.

البطولة ليست في تحقيق هدفك، إنما البطولة في قدرتك على تجاوز الصعاب التي تواجهك، أنا الجانب المُظلم من الإنسان، الطريق الذي أجبر عليه أو أختاره لأنه كان لا يملك رفاهية الاختيار، أنا الشر الكامن داخل النفوس الطيبة، لا أريد استعطاف الناس، بل أريد توضيح الحقيقة.

البطل الحقيقي ليس ذاك الذي نشأ في بيئة تساعده على النجاح والبطولة، البطل الحقيقي هو ذاك الذي نشأ في بيئة قاسية وصعبة، كانت كفيلة أن تحطمه تمامًا ولم يتحطم. لا أريد أن يشن المجتمع أسوأ التهم على المجرم دون الرجوع لحياته الخاصة، صحيح هذا لا يبرأ المُتهم، لكن على الأقل يجعلنا نعيد تفكيرنا تجاه الأشياء نفسها: ما الذي دفع البطل ليكون بطلًا؟ وما الذي دفع المُجرم ليكون مُجرمًا؟ ربما لو عالجنا هذا الخلل لانخفضت نسبة الجريمة في العالم. ترى ما الذي يجعل المُجرم يصر على إجرامه رغم إيمان بعضهم أنهم يسيرون في الطريق الخطأ؟ الناس يا سراج، عدم تقبل المجتمع لوجودهم مرة أخرى، ملاحقتهم وتذكيرهم بأخطائهم طوال الوقت».

رددت: «هذه ليست مسؤوليتك، أنت لست مسؤولًا عن إصلاح العالم، ثم هل تشعر بالذنب حيال ما اقترفته؟».

أجاب وقد بدأ يشعر بالملل من أسئلتي: «لا، لم أشعر يومًا بالذنب، رغم محاولاتي لإصلاح ما أفسدته لكنني لا أشعر بالندم، ولو أعيدت الحياة مرة أخرى لكررت كل ما حدث، في منامي رأيتني شخصًا أكثر حدة وقوة، كنت أملك العالم وقتها، وحين استيقظت قررت ألا أكون هذا الشخص الدموي، قررت أن أكون مسالمًا قدر المستطاع. لكن كانت مكافأة الحياة أنها غرزت كل مخالبها في صدري، عاقبتني على كوني لم أختَر الشخص الذي رأيته. الحياة نفسها تدفعك لارتكاب حماقات لا تتوقعها، ثم إنني لست مسؤولًا عن العالم، لكنني مسؤول عن عالمي أنا. مشكلة القبح أنها تبقى وصمة عار على جبينك طوال حياتك، مهما أصلحت حياتك تبقى تطاردك في كل مكان، أما الشرف فيمكنك استغلاله لخفاء خطيئتك. المجتمع نفسه ينظر لسيرتك قبل ارتكاب الذنب، فتجد البعض يدافع عن أحد المُتحرشين لأن له صورة وهو يتعبد، هذه الصورة هي عبارة عن رخصة للعبور من الذنب، دليل قاطع على البراءة أو على الأقل التخفيف من قسوة الحكم عليه، هراء يا سراج.. هراء».

تنهدت ثم قلت مستسلمًا لمراوغات رجل يعرف كيف يهرب من التساؤلات المباشرة بإجابات تجعلك تغوص في سيل أسئلة جديدة: «الآن ماذا سنفعل؟».

أجاب: «لنرى ما سيحدث».

بعد دقائق عادت ماري لتخبره بأنها أخبرت الأولاد بميعاد الاجتماع، وأنهم سيحضرون في هذا المساء، ليبدأ كل شيء.

استأذنت ديفيد وخرجت مع ماري التي لم تخفي حزنها وخوفها من توابع قرار ديفيد شاهين. اتجهت لغرفتي وبدأت أتابع الأخبار، كل الأنباء مُلتهبة، لقد استطعنا بالفعل إثارة البسطاء ضد الحكومة، لكن قرار ديفيد الغريب سيجعل الشعب ينقسم، صحيح أن المافيا هي واحدة من كوابيس هذا الشعب، لكن هو درع حماية له أيضًا. فلسفة المافيا الحديثة تشبه فلسفة الفتوات في مصر القديمة، فالشعب يخشاهم لكنه يحتمي بهم من بطش الدخلاء، أن تفضح أمر هؤلاء يعني أن الشعب سيعيش فترة من التخبط بلا قائد حقيقي، هذا التخبط سيستغله المتربصون لإيطاليا. لا ينبغي عليك فضح الفاسدين من أهل السلطة ما دمت لا تملك من يقود سفينة الإصلاح من أهل الثورة، فالفراغ هذا أشد خطورة من فساد القادة، هذا المبدأ السياسي القديم الذي أثبت نجاحه، خصوصًا مع الشعوب الفقيرة المُتشبعة بالجهل. هذا المبدأ الذي لولاه لأصبح العالم كله ينعم بالرخاء والديمقراطية.

مر الوقت ببطءٍ شديد حتى حانت الساعة، دعتني ماري للتوجه إلى صالة الاجتماعات، وهناك كان قد اجتمع الأولاد حتى المُغتربين منهم، على عكس المعتاد فقد ظهرت في هذه المرة علامات الخوف واليأس على ملامح الجميع رغم أنهم لا يعلمون حتى هذه اللحظة بقرار ديفيد شاهين، لكن الجدية التي بدت عليها ماري وضّحت ما ينتظرهم في هذا الاجتماع.

ببذلته الرمادية، ومعطفه الأسود، وبخطوات مُتزنة خرج ديفيد شاهين للأولاد، في هدوءٍ تام جلس في مكانه، ثم استمر دقائق يتأملهم وكأنه يتحدث مع كل منهم على حدة، حتى الذين حضروا

الاجتماع عبر برامج الإنترنت مثل تالا ويمنى ودليدا وحتى ياسين، ظهر عليهم علامات التوتر والقلق، هذه المشاعر التي ليست من المفترض أن يشعروا بها في هذا التوقيت، خصوصًا أنهم قد حققوا مرادهم وأهدافهم في العملية الأخيرة.

دقائق باردة وتساؤلات لا تنتهي ثم...

- لو ألقي القبض علينا الآن، كم عام سنقضي في السجن؟

سؤال جعل الأولاد ينظرون لبعضهم البعض في حيرة، هم يعلمون تمامًا أن مثل هذه الأسئلة الافتتاحية مجرد تمهيد لتغيير خطة أو سياسة ما في المجموعة. لم يجب أحد على ديفيد رغم وضوح السؤال وسهولة الإجابة، حتى يمنى المحامية انتظرت حتى يظهر ديفيد ما في جعبته.

- ربما عشر سنوات، خمسة عشر عامًا، خمسة وعشرون، وبما أن عقوبة الإعدام سارية في مصر فقط، يتم الحكم عليكم بالإعدام، أليس كذلك؟ حسنًا دعونا نتفق أننا قد نجحنا في الشق الأول والثاني من أهدافنا. أغلبكم مجهولي الهوية بالنسبة للحكومة والمافيا، فحتى أسوأ ما ينتظرني لن يصيبكم بمكروه لأنكم لستم طرفًا في هذا الصراع. بالمناسبة هذا ما قد عاهدتكم به، ألا أعرِّض حياة أي منكم للخطر مهما كلفني الأمر، ومهما كانت التضحيات، حتى لو كان هذه التضحية هو كارتزوني أخي الوحيد.

واصل ديفيد: «كل يوم تتغير أهداف المعركة ويتغير الخصوم، أما نحن فما زلنا مستمرين في طريقنا، لكن ثمة مستجدات سياسية حدثت لا بُدَّ أن نخضع لها نؤمن طريقنا للخروج من هذه الحلبة بأقل

أضرار ممكنة. دون الخوض في تفاصيل لقد قررت مغادرة إيطاليا كعقوبة أشبه بعقوبة السجن المؤبد، سنواصل عملنا من بعيد، وقبل هذا علينا أن نتفق أن نبقى معًا مهما كانت التضحيات».

كالعادة الألغاز هي السمة الرئيسية في أغلب هذه الاجتماعات.

_ أمامكم ساعة لتقرروا، إما مواصلة العمل معي وإما الاكتفاء بما حققتموه من ثروة.. الأمر لكم.

فجأة قال مروان: «أنا معك يا رئيس».

ابتسم ديفيد ثم قال وهو يستعد للعودة إلى مكتبه: «القرار قراركم».

سألته يمنى: «أليس من حقنا معرفة أهدافنا الجديدة؟».

أجاب: «لا، ليس من حقكم، في بعض المواقف نحتاج لنثبت ولاءنا لرئيسنا بدلًا من مناقشته في قراره».

خرج ديفيد من الاجتماع، تبعته ماري التي أشارت لي بالجلوس معهم. اتجهت الأنظار ناحية مروان الذي اتخذ قراره سريعًا فبرر موقفه: «أنا مُدين لهذا الرجل، لن أتركه».

سألته دليدا: «أظن لم يقدم لك إلا المال والسلطة».

رد مروان: «لا، لقد ساعدني على رؤية الحياة بشكل مختلف، لقد زرع في قلبي الإنسانية والرحمة، وأن كل رصاصة أوجهها هي بالتأكيد في صدر من يستحقها. شخص مثله كان يعلم لهثنا وراء المال والنفوذ، كان بإمكانه أن يتعامل معنا أو معي، على الأقل بأنني مجرد أداة لتنفيذ خططه، لكنه صادقني وأعاد شعوري بأنني شخص جيد، حتى لو كان ديفيد رجلًا مروعًا ودنيئًا لن أتركه. ربما يبدو أمامكم شخصًا سيئًا، لكن بالنسبة لي هو شخص صادق، وهذا ما افتقدته طوال حياتي، سأبقى معه يا شباب وهذا قرار نهائي».

هنا قالت يمنى: «لا يزال بالنسبة لي ديفيد رجلًا غامضًا، لقد تعمد إبعادي عن الأحداث، لكنه عاهدني أن دوري قادم لا محالة، حياتي مملة، ولأنني لا أملك ما يمكنني الخوف عليه، حسنًا لا مانع من الاستمرار على الأقل نحن نستمتع بالحرية والمال».

توجهت الأنظار ناحية دليدا التي كانت متوترة: «ما زلت لم أتعامل مع ديفيد، ما زال شخصية مجهولة بالنسبة لي، صحيح لقد صدق في اتفاقه معي ونفذ كل ما وعدني به، لكنني ما زلت لا أشعر بالأمان معه.. لأكون صادقة أنا أنتظر قرار ياسين حال استمراره سأستمر معه، هذا الوحيد الذي يجعلني أطمئن».

سخر مروان كعادته: «لقد تحول الاجتماع للقاء عاطفي».

بخيبة أمل رد ياسين: «لم يعد بمقدورنا التراجع، نحن عالقون في المنتصف، لنواصل، فأيًا كان ما سنصل إليه لن يكون أسوأ من حياتنا القديمة».

ابتسمت يمنى ثم قالت: «أنا مُعجبة بذكاء ديفيد شاهين، لقد اختار عائلته بعناية، اختار من يملكون حياة بائسة، محطمة تمامًا، لا يريدونها، حد أنكم لم تفكروا حتى في مصير مستقبلكم وحياتكم.. يؤسفني أنني بعيدة عن إيطاليا، لقد أضعت من يدي الكثير من المناقشات لمعرفة ما يدور في رأس هذا الرجل».

بعد ساعة عاد ديفيد شاهين، فطرح سؤاله عليهم: «سنواصل معًا أم هناك من يريد الرحيل؟».

أجاب الأولاد في صوتٍ واحد: «نحن معك يا رئيس».

جلس ديفيد وقد استراح في كرسيه، ثم بدأ بشرح ما سيحدث: «بعد اثنين وسبعين ساعة سنعلن عن تفاصيل فضيحة جديدة للنظام

الإيطالي، مع مفاجأة من العيار الثقيل، سنعلن أيضًا أن هذه آخر الفضائح التي ننوي الكشف عنها، ثم سنغيب لفترة ما».

«إلى أين؟» سألت دليدا.

فأجاب ديفيد: «سنفترق، سيكون هذا الحل الأمثل لحمايتنا. تالا ستبقين في اليونان وننقل ملكية ممتلكاتنا لكِ بما فيهم ممتلكات دليدا، ستكونين ذراعنا في أوروبا الجنوبية مع مارتينا. أوليفيا صباح يوم الإعلان ستتجهين إلى يمنى في برلين. مروان وماري وسراج ستعرفون وجهتنا يوم الإعلان.

داليدا ستعودين لمصر بطريقة شرعية، ما زال بيننا ثأر لم ينتهِ بعد. ياسين عليك إنجاز المهمة الموكلة لك خلال الثلاثة أيام القادمة، ثم استقبال دليدا والتوجه إلى شرم الشيخ والاستقرار مؤقتًا هناك.

خلال الشهر الأول سينقطع التواصل بيننا تمامًا.. ثم يبدأ التواصل تدريجيًا حتى نتفق على العملية الجديدة.

أكرر يوم العملية لن نتواصل مع بعضنا البعض، سيركز كل شخص على تنفيذ مهامه لضمان الأمان لنفسه وللآخرين».

سألت أوليفيا: « كيف سيتم الإعلان عن التسريبات الجديدة من برلين؟».

أجاب ديفيد: «لن نعلن عن العملية في الميادين، سنعلن عنها عبر مواقع التواصل الاجتماعي، اختراق الميادين واللوحات الإعلانية أصبح يشكل خطورة كبيرة علينا».

قالت يمنى: «حسنًا، كالعادة لا نفهم شيئًا من الاجتماعات، لكننا نرى أحداث، لنتابع ما سيحدث».

«من فضلكم».

جذبت دليدا أنظار الجميع بندائها: «ربما هذا ليس الوقت المناسب، لكنني سئمت المحاولات والكذب ولعبة الشد والجذب، أنا سعيدة بقرار عودتي إلى مصر أيًا كانت توابعه، فصدقًا لا يهمني ما سيحدث قدر ما أنوي وأتمنى حدوثه.

قبل عدة أعوام كنت لا أملك جرأة الاعتراف بما سأقول الآن، لكنني وفي تجربتي معكم اكتشفت أن الحياة تتغير سريعًا، وقد حلمت بهذا في صباح اليوم، ولأنني لن أسمح للحياة والخوف أن يهزماني مرة أخرى..

فأنا أعرض عليك الزواج يا ياسين».

ابتسم الجميع في مشهدٍ سينمائيٍّ جميل.. واتجهت الأنظار ناحية ياسين الذي بدت ملامحه باردة والذي قال: «هذا ليس المكان المناسب لهذه المناسبات».

هنا انتهز ديفيد الفرصة وقال: «على العكس، ربما هي فرصة ذهبية لرباط جديد للعائلة، كنت أود الحضور لكن بالطبع فور عودتنا سنحتفل من جديد بهذه المناسبة».

توالت التهاني والمباركات على ياسين ودليدا.

دليدا في قمة سعادتها، بينما الصدمة والصمت يسيطران على ياسين الذي لم يستعِب ما حدث بالضبط.

انتهى الاجتماع بهذه المناسبة السعيدة، وللعائلة ثلاثة أيام أخيرة قبل الفراق المجهول.

13

القاهرة

- حفل زفاف! هل فقدتِ عقلك يا دليدا؟ كيف تجرؤين على قول هذا على الملأ؟ وكيف لم تسأليني عن رأيي ورغبتي؟ كيف لك أن تطلبي هذا من الأساس؟

ردت: «أخشى أن أفقدك يا ياسين، أخشى أن أفقدك. أخبرتك أنني أشعر بالخوف من فقدانٍ آخر، لن أتحمل قسوة الفقدان ومرارة الهجر. لم أعد أملك طاقة لتجاوز شخص آخر، ولن أستطيع الفرار بنفسي من دوامة الذكريات. أنا مُتعبة يا ياسين، الخوف شبح يطاردني في كل مكان، يلطخ أيامي بألوانه السوداء، فكل الصباحات التي أقضيها وأنا خائفة، صباحات كئيبة وباهتة ومفزعة. ضاعت مراهقتي في تجاوز وفاة أبي الذي ظننته رجلًا خارقًا لن يموت أبدًا، ثم ضاع شبابي في تجاوز خيبات ووقاحة وسفالة وجشع عمي وابنه. حتى الشخص الوحيد الذي أحببته لم يكن جديرًا بالحب، وقضيت سنوات أتجاوز غيابه، لم أعد أتحمل أيِ فقدان آخر يا ياسين، ولقد تعلقت بك وأحببتك وأحببت وجودك ووجودي معك، لا يهم ما تظنه عني، الأهم أنني أريد البقاء معك، أعلم أن قلبك لا يزال مُعلقًا

برقِّية، وأعلم أنك ما زلت تفتش عنها رغم استحالة عودتكما، وأعلم أنك ما زلت تتمناها زوجة لك. أنا لست امرأة ضعيفة لأتزوجك وأنا أعلم كل هذا، لكنني سأقبل لأنني رأيت فيك الأمان والطمأنينة، رأيت فيك ما افتقدته في حبي، وافق على زواجنا ولن أطلب منك إلا البقاء معك فقط، هذا ما أحتاجه، شعور الأمان فقط يا ياسين».

لم أستطع مجاراة كلماتها، قلت لها: «دعينا نتحدث في وقتٍ آخر يا دليدا، فوصال تنتظرني في الشارع».

أغلقت الهاتف مغلوبًا على أمري، وعلى الفور خرجت لوصال التي لم ألتقِ بها طيلة الفترة الماضية.

فور أن رأتني سألتني: «تبدو في غاية التعب، ماذا حدث؟».

تذكرت أن الوقت قد أزف، وأنه متبقي ثلاثة أيام فقط لمعرفة علاقة وصال بمقتل كلارك، لذلك قطعت على نفسي وعليها أي حديث جانبي لا قيمة له وقلت: «لا شيء، حسنًا أخبريني وماذا حدث بعد أن بدأتِ في العمل مع دكتور ماجد المنفلوطي؟».

انطلقت بسيارتها ثم قالت: «إن أردت أن تحافظ على علاقتك بأي شخص إياك أن تجعله يعرف نقاط ضعفك، فقد يستغل هذه النقاط لمصلحته الشخصية، ومن ثم يؤذيك بأكثر الطرق إيلامًا لقلبك.

هذا ما كنت أؤمن به حتى بدأت بالعمل مع ماجد، لعلاقته القريبة منا التي سمحت لي بالاستقرار معه في أحد فروع المستشفى في التجمع الأول، لأنه كان الصديق المقرب لأختي، فقد كان يعلم جيدًا حجم الفجوة بيننا، لذلك أكثر ما كان يشغله في بداية تعارفنا هو زرع الثقة والأفضلية عن العالم في روحي وقلبي، وكان كل

مساعدي الدكتور يعملون في مكتبٍ واحد، إلا أنا لقد خصص لي مكتبًا منفردًا عنهم، كل المساعدين يعيشون في مقرٍ واحد تابع للمستشفى، إلا أنا فقد اختار لي منزلًا بعيدًا عنهم. كان شابًا في بداية الثلاثينيات، وقور هادئ، الملابس الكلاسيكية الهادئة، والعطر الجذاب، وشارب يقف عليه الصقر بشموخ، رجل مثالي أشبه برجال السينما العربية القديمة. لا أنكر أنه حين كان يزورنا كنت مُعجبة به، إعجاب مُراهقة برجل راشد عاقل، صديق العائلة الذي تربطه علاقة قوية بنا، خصوصًا أختي التي كانت تعمل معه لفترة طويلة قبل زواجها ومغادرتها لمصر.

بدأت أيامي الأولى في العمل هادئة ومثالية، يعاملني كما يعامل جميع المساعدين، ومن وقتٍ لآخر يستدعيني في مكتبه ليسألني عن تأقلمي وتقبلي للوضع بعيدًا عن منزلي، لم أجرؤ يومًا على النظر في عينيه؛ لطالما كنت أحترمه وأراه بمثابة الأب أو العم، وهو لم يحاول إزالة هذا الحاجز أبدًا.

بدأت أنهك نفسي في العمل حتى يتوقف رأسي عن التفكير، فرغم السعادة والهدوء اللذين كنت أشعر بهما كنت دائمًا أفكر، أفكر في كل الأشياء التي حدثت وكل الاحتمالات التي قد تحدث، أفكر فيما حدث طوال اليوم، أراجع الكلمات التي قلتها، والكلمات التي سمعتها، والمواقف العابرة، حتى إنني كنت أسأل نفسي كيف ينظرون إليّ زملائي، الناس وكل من ألتقي بهم خلال يومي، كنت أفكر طوال الوقت للحد الذي يجعلني صامتة أغلب الوقت أمام الناس».

ابتسمتْ ثم واصلت: «مثلما يموت الإنسان بالأمراض أو الحوادث أو حتى وفاة طبيعية، يموت أيضًا بالتفكير يا ياسين، لكن لن يكتب الأطباء هذا السبب في تقاريرهم.

رغم التميز الواضح بيني وبين زملائي في معاملة ماجد لنا، إلا أنني لاحظت أنني أرتدي ملابس أقل منهم، أقصد كانت ملابسي عادية، بينما كانوا يرتدون الماركات العالمية المشهورة، لذلك قررت أن أشتري ملابس جديدة حتى أنافسهم في الأناقة والشياكة. بدأ ماجد يلاحظ هذا التغيير المفاجئ، لكنه كان يلتزم بوقاره وهيبته أمامي، فيكتفي ببضع كلمات معدودة يخبرني بها أنني جميلة. أحببت هذه الطريقة وهذا اللطف بيننا، وأحببت فكرة الحياة وحدي، فكنت أزور أمي من وقتٍ لآخر، ثم أعود لمنزلي القريب من المستشفى.

بعد فترة من العمل قرر دكتور ماجد أن يكافئني فجعلني مديرة للمستشفى، وسط حالة من الاعتراض الغير مباشر ما بين زملائي نظرًا لأنني كنت أحدثهم في المستشفى. لم أكترث وقتها؛ كان وضعي في المستشفى لا يشغلني من الأساس، فكان يكفيني جدًا الراحة والسعادة اللتين أشعر بهما.

مر الوقت وبحكم منصبي الجديد بدأ تواصل دائم مع ماجد، شعرت أنه يحاول الاقتراب مني، بدأ يحدثني عن تفاصيل يومه ويشاركني تفاصيلي، تدريجيًا يمكن القول إننا أصبحنا أصدقاء.

كنت في حاجة لصديق أو ربما طبيب نفسي يعالج كل الاضطرابات التي عشتها مع أمي، كنت في حاجة للشعور بأنني مميزة وفريدة، شعور بكياني الذي انطمس تحت اسم أختي. بدأنا

كأصدقاء، لكنني لم أجرؤ أن أحكي له معاناتي مع أختي أمنية، لأنني لم أنسَ صلة القرابة التي تجمعنا».

توقفت وصال فجأة في أحد شوارع وسط البلد ثم دعتني للخروج: «أحب المشي في شوارع القاهرة بعد منتصف الليل، المدينة التي تشهد طوال اليوم معارك وصراعاتٍ وضجيجًا لا ينتهي، تتحول لعروس جميل في المساء تستقبل الهيمانين في جمالها، أحب الدندنة والرقص في الطرقات، الضحك والغناء في شوارع هذه المدينة، أشعر بالحرية في شوارعها وأستنشق الحياة بعد منتصف الليل وأنا أسير في شوارعها».

أمسكت يدي ثم دندنت: «وصفوا لي الصبر
لقيته خيال وكلام في الحب
يا دوب يا دوب ينقال
أهرب من قلبي أروح على فين؟
ليالينا الحلوة في كل مكان
مليناها حب احنا الاتنين
وملينا الدنيا أمل وحنان».

ذكريات يا ياسين.. صنعت معه ذكريات في كل شارع من شوارع القاهرة، كان لقاؤنا كل خميس، نذهب لنشتري ملابسَ جديدة، كنت أحب أن يختار هو ما أرتدي، ثم نتجه إلى وسط المدينة في المساء، رغم فرق العمر بيننا إلا أنه كان يتصرف كشابٍ في بداية حياته. الدكتور صاحب الهيبة والوقار يعود شابًا مراهقًا معي، نتشارك الأغنيات، الأحلام، لحظات الهلس والهرطقة. كان صديقي الوحيد، وشعرت أنا أيضًا بأنني صديقته الوحيدة. بعض

صداقات يدمرها الحب، لذلك كنت أضع حاجزًا في نفسي ألا أقع في غرامه مهما حدث. هو مديري في العمل طوال الأسبوع، ثم استراحة ليصبح صديقي يوم الخميس، ثم يعود كل شيء كما كان من قبل، هذه الفكرة التي ظللت أرددها في نفسي مع صراعات لا تنتهي في نفسي.

لم يدُم هذا الصراع طويلًا، فذات يوم كنا نتجول في وسط المدينة بعد منتصف الليل، ووسط حالة من الهدوء والسكون، والتأمل في اللاشيء، راودني الفضول لمعرفة بعض تفاصيل حياته، فلسفته ونظرته للحياة عمومًا.

قلت له: «هل يمكنني طرح سؤال شخصي عليك؟ صدقني أنا لست فضولية لكنني...».

قاطعني: «الأمر أبسط مما تتخيلين، لمَ كل هذه المقدمة؟ اسألي كيفما تشائين».

توترت قليلًا ثم سألته: «لماذا لم تتزوج إلى الآن؟».

أجاب وهو يضحك: «لأنني رجل خائن».

ضحكت ساخرة: «بهذه البساطة!».

أجاب: «نعم، بهذه البساطة.. في حياتي لم أحب إلا مرة واحدة، وهذا الحب لم يكتمل، لذلك قررت أن أهب حياتي لإرضاء نفسي، سواء حياتي الخاصة أو حياتي العملية. في الظلام أمارس كل نزواتي، وأمام الناس أنا دكتور ماجد المنفلوطي صاحب المستشفيات المعروفة، أطبق النجاح بكافة أشكاله وأنواعه، الأهم أن أشعر بالرضا عن نفسي».

كان يتحدث بثقة وتلقائية تجعلني أشك في مصداقيته، كيف لشخص أن يجرؤ على التحدث عن هذا الجانب في شخصيته بهذه الطريقةّ التفاخرية؟!

قلت: «من الغريب أن تتباهى بنزواتك».

أجاب: «لم أتباهَ لكنني لا أنكرها، في النهاية أنا رجل أحب النساء كما أحب العمل والنجاح، وما دمت لم أقصر في أيٍّ منهم فأنا على ما يرام، الحياة صعبة يا وصال، تحتاج لشخص مُكتفي منها حتى يستطيع مقاومتها، وكوني رجلًا مُكتفيًا تمامًا منها، فأنا أعرف كيف أتعامل معها مهما اشتدت قسوتها».

لم أقتنع بكلامه ولم تأثرني ردوده. أنهيت المناقشة سريعًا، فلقد تأكدت أنه ليس الشخص المناسب للوقوع في غرامه.

بعد نهاية هذا اليوم أغلقت كل الأبواب الموارية في قلبي.. لن أتحمل فكرة البقاء مع شخص يبحث دائمًا عن الأفضل، ولاؤه لنرجسيته ومزاجه الخاص. لن أتحمل أن تُفنى وصال في كيان رجلٍ آخر مهما كان مميزًا ومختلفًا.

بعد هذا اللقاء تغيرت معاملتي معه قليلًا، كان رجلًا ذكيًّا يفهم الأنثى جيدًا، لذلك اقترب أكثر وبدأ يتحدث معي أكثر عن حياته وأهدافه ومشاريعه الجديدة. في الوقت الذي أبعد قلبي عنه خطوة، يفاجئني هو بتصرفات رومانسية تجذبني نحوه ألف خطوة، ثم أتذكر أنني سأعيش معه في كيانه وشخصيته هو. لم أحاول حتى استدراجه نحوي مرة أخرى».

صمتت وصال لثوانٍ وكأنها تستعيد ذكرياتها ثم واصلت: «بدأت الغيرة تسيطر على تصرفاته، كلما حاول أحد زملائي الاقتراب مني حتى يقرر هو نقله لفرعٍ آخر، كانت تصرفاته غريبة، خصوصًا أنه لا يمزج حياته الشخصية بحياته العملية، وبالطبع يعرف أنني لن أسمح بتطور علاقتنا، هذا ما لم تقبل به نرجسيته، وذات يوم دعاني إلى حفل عشاء في ضيافة أحد الأطباء المعروفين. مثل هذه اللقاءات كانت في غاية الأهمية، يحضرها كبار الأطباء وأقرب أقرب مساعديهم، لذلك سعدت بثقته ومكانتي الكبيرة عنده.

ارتديت ملابسًا تليق بهذا الحفل المُهم، وفور أن رآني قبل يدي برومانسية أثارت رغبتي نحوه، ثم قال في هدوءٍ تام: «هذه الليلة فارقة في حياتي».

ابتسمت وأنا أستعد لمساء رومانسي من الدرجة الأولى.

«بتونس بيك وانت معايا
بتونس بيك وبلاقي في قربك دنيايا
بتونس بيك وانت معايا
بتونس بيك وبلاقي في قربك دنيايا
لما تقرب، أنا بتونس بيك
واما بتبعد، أنا بتونس بيك
لما تقرب، أنا بتونس بيك
واما بتبعد، أنا بتونس بيك
وخيالك بيكون وياي، وياي
وان جاه صوتك، صوتك بيونسني

وهواك في البعد، في البعد بيحرسني
وان جاه صوتك، صوتك بيونسني
وهواك في البعد، في البعد بيحرسني
والشوق ينادي لك جوايا وانا، وانا، وانا، وانا، وانا
أنا، أنا، أنا، أنا، أنا، أنا بتونس بيك وانت معايا»

طوال الطريق كنا ندندن أغنية وردة.. يراقصني بالكلمات والنظرات، وأنا كفراشة أتمايل بين الأزهار في فصل الربيع. الحب جزء من حياة الرجل، لكنه حياة للمرأة، كل الحواجز، الأسباب المنطقية، العهود التي تقطعها على نفسها بألا تقع في الحب، كل الأشياء التي تجعل المرأة تكابر وتعاند من أجل ألا تسقط في الحب؛ تسقط كلها دفعة واحدة حين يأثرها الرجل بالأفعال والكلمات اللطيفة، الهواء ينعش صدري ووردة تُبدع وأنا هائمة في أحداث ليلة رومانسية تنتظرني، إنه السقوط الأول والأجمل في الحب.

وصلنا إلى القصر.

وهناك رأيت عالمًا مُختلفًا، عالم الأثرياء والنخبة، نساء يرتدين فساتين سهرة في غاية الجمال، رجال بوقار وهيبة، خدم يساعدون ويرحبون بالضيوف، راقصات يتمايلن على خشبة المسرح، لوهلة تشعر أنك لم تعبر بوابة القصر، بل عبرت بوابة الزمن وعدت لزمن الباشاوية القديمة في مصر. كانت واحدة من أجمل اللحظات التي عشتها في هذا اليوم هي لحظة لقائنا بأصدقاء ماجد، كان يقول: «وصال» مساعدتي الخاصة ومديرة أحد المستشفيات، فأردد في نفسي: «يعرفني كمساعدته بهذه النبرة الجميلة اللطيفة، فكيف حين نتزوج ويقول: وصال.. زوجتي؟»، مر الوقت وأنا في حالة نشوة وسعادة لم أعِشها طوال حياتي.

انتهى العشاء الجميل، ثم فوجئت بأن هناك اجتماعًا ينتظرنا، أخبرني ماجد أن هذا الاجتماع ضروري ولا بُدَّ أن أحضره معه شرط ألا أتحدث أبدًا.

- أي اجتماع في هذه الليلة الرائعة يا ماجد؟

قبّل رأسي ثم قال: «لن نتأخر، سننهي هذا الاجتماع ثم نواصل سهرتنا».

بدأ الاجتماع.

أكثر من عشرة أطباء من كبار القوم في مصر، لكل اسم منهم ثقل ووزن ومكانة عظيمة، حسبما لاحظت فإن أقلية فقط من يحضرون هذا الاجتماع، حتى وجودي بينهم لم يكن مُستحبًا، لولا أن ماجد أكد أنه يثق بي ثقة كاملة.

طوال الاجتماع كان الحديث بينهم أشبه برسائل مُبهمة، أقسم لك رغم إنني كنت حاضرة بينهم إلا أنني لم أفهم كلمة واحدة مما سمعت، يتحدثون بلغتنا العربية، لكن بجمل لا تناسب عملهم.

«نحتاج ثلاثة قروش وعنصر هضمي، وجهاز تحليل للمياه».

«فصيلة دم الشبل الأخير لم تتوافق مع فصيلة دم الجد».

وهكذا من العبارات المُبهمة الغير مفهومة، لا أتذكر أنني شعرت بالغباء مثلما شعرت في هذا الاجتماع.

بعد أن انتهينا، انطلقنا بسيارته، وأثناء الطريق سألني بنبرته الهادئة: «وصال، ألم تسألي يومًا عن سبب الثروة الطائلة التي أتمتع بها؟».

قلت: «أنا أعرف أن والدك كان رجلًا ثريًا، ثم إنني لا أهتم بمثل هذه الأسئلة».

هز رأسه وقال: «صحيح والدي كان أيضًا رجلًا ثريًا، لقد ورثت مهنته وأمواله، لكنني ورثت شيئًا آخر غير الطب والمال».

توقفنا أمام مشرحة الموتى.. نظرت له في تعجب فقال: «تعالي معي، ولا تقومي بأي فعلٍ غير مألوف».

خرجنا من السيارة وصعدنا المبنى في هدوءٍ تام، كانت له سلطة كبيرة، حتى رجال الأمن لم يسألوا عن دخوله، تحركنا بين الممرات المُظلمة، حتى دخلنا لغرفة مدير المشرحة، كان هناك رجل في الخمسينيات ينتظرنا، ملامحه حادة وصوته خشن، لا يبتسم، لا يتحدث كثيرًا، شخص في غاية البرود والقسوة، رحب بنا ثم رمقني بنظرة عدوانية.

موجهًا كلماته لماجد: «ألم أطلب منك من قبل أن تأتي بمفردك يا دكتور؟».

ـ وصال هي من ستأتي فيما بعد إلى هنا.

رمقني الرجل بنظرة ساخرة ثم قال: «في العادة النساء لا يمكنهن تحمل طبيعة عملنا، لكن لنرى! ماذا تحتاج يا دكتور؟».

ـ ثلاثة قروش شباب، وجهاز تحلية مياه.

أخرج الرجل دفترًا ثم دون طلبات ماجد وقال: «اتبعاني».

خرجت معه والقلق يضرب قلبي.. أمسك ماجد بيدي.. وضغط أكثر ليطمئنني.. واتجهنا إلى إحدى الغرف الكبيرة، ثلاجات موتى!

بين الثلاجات كان يتحدث ماجد مع الرجل غريب الأطوار عن أشياء لا أفهمها، أقصد لم يكن ذهني من الأساس حاضرًا معهما، كنت أرتعش من هول المشهد.

وقفنا أمام ثلاجة كبيرة، ثم فتحها الرجل غريب الأطوار وسحب الأدراج.

ثلاث جثث لشباب في منتصف الثلاثينيات، ما إن رأيت ملامحهم الزرقاء الباردة، ثباتهم العميق، كدت أسقط على الأرض.

في هذه اللحظة كان الرجل يختلس نظرات متتابعة وهو يتحدث مع ماجد، بينما كنت أتظاهر بالثبات أمامه.

ـ الثلاثة قروش.

ـ وجهاز تحلية المياه؟

قال: «في العمليات».

اتجهنا للخروج من الغرفة الكبيرة. عدنا إلى المكتب وأنا أتصبب عرقًا، أخرج الرجل الدفتر وسجل:

ثلاثة قروش أعمارهم من ٣٠ لـ ٤٠.

حالة الوفاة: تخدير.

جهاز تحلية المياه.

نظر الرجل لماجد وقال: «حسنًا، حسابك مليون ومئتي ألف يا دكتور».

ضحك الدكتور: «ارتفعت الأسعار، حسنًا ستحصل على المبلغ بجزئين، شيكان مستحقان الدفع.

ـ التسليم؟

أجاب دكتور ماجد: «في المكان المعتاد».

خرجنا من غرفة المكتب، وجسمي أشبه بلوح ثلج، لا أستطيع تحريك قدميّ، لا أستوعب ما حدث من الأساس. كنت في حالة صدمة، ذهول.

انطلقنا بالسيارة. يتحدث في الهاتف وأنا في عالم آخر، الليلة الرومانسية التي انتظرتها طويلًا تحولت فجأة لحفلة تأبين للموتى.

بدأ الصباح في الظهور، ظننت أنني لن أنام طوال حياتي من هول ما رأيت. مكتبه الخاص كان وجهتنا حيث لا بُدَّ أن نتحدث، أقصد أن يبرر أو أفهم ما يحدث بالضبط.

استجمعت شجاعتي ثم قلت: «أهكذا بنى والدك ثروته؟»

ـ وهذا ما ورثته عن أبي.

ـ لن أعمل معك يا دكتور.

ابتسم ماجد وكأنه كان يعرف هذا الرفض: «أنتِ بالفعل تعملين معنا.. أنتِ مُديرة أكبر مُستشفى لعمليات زرع واستخلاص الأعضاء البشرية في مصر».

همهم وقال في هدوء: «كان بإمكاني أن أخفي الأمر عنكِ، صدقيني معرفتك من عدمها لن تغير شيئًا، لكنني لم أرد خداعك يا وصال لأن ما يجمعني بكِ يجبرني على هذا».

رددت والتعب بدأ يتغلب عليّ: «لنِ أواصل العمل معك يا دكتور، المسألة انتهت».

خرجت من المكتب، لكن هذه المرة عُدت إلى منزلي القديم، أمي التي لم أرها منذ وقت طويل، ما إن رأتني حتى ظنت أنني أمنية. الغربة أن تطردك كل الأماكن التي من المفترض أن تشعر بالانتماء لها، هذا الشعور الذي قضيت حياتي أعاني منه في وجود أمي. استقبالها البارد لم يؤثر كثيرًا في روحي المُنهكة التي أصبحت فجأة شريكة في جرائم إنسانية لا تغتفر.

في صباح اليوم التالي.. فوجئت بأمي تتناول الفطور مع دكتور ماجد، لقد حضر بالفعل لإقناعي بالعودة إلى العمل. خرجت لهما ورحبت به، ومن كلمات أمي اتضح أنه لم يخبرها أنني قدمت استقالتي.

خرجنا معًا لنتحدث في مكانٍ أكثر هدوءًا وراحةً، اتجهنا إلى مكتبه الخاص، وهنا دار حديث جديد بيننا، كان يحاول إقناعي بالفكرة، وأنني لن أشارك معهم في أي عملية، ولن يحدث لي أي مكروه، وإن دوري مختصر على كوني مُديرة بالتعيين، والمسؤولية كل المسؤولية تقع على الملاك الأصليين. لم تكن حجته قوية، لكنني لم أعارضها حتى أستمع لما يحمله في جعبته.

- علامَ تشعرين بالذنب والجرم حيال ما نقوم به يا وصال؟ لقد قنن القانون الدولي حق التنازل عن الأعضاء البشرية للمتوفي والتبرع بها لمن يحتاجها، نحن نقوم بما يحق لنا في نص القانون، قبل أن تتم العملية تتم مراضاة أهل المتوفي بما يكفي لتقبل الأمر، أين الخطورة والجرم في عملنا؟

قلت له: «لاحظت أن الشبان الثلاثة ملامحهم خشنة، تظهر عليهم علامات الفقر والجوع وقذارة المشقة والتعب».

أجاب: «وإن كان، هل نضرب أهل المتوفي على أيديهم حتى نختلي بأعضائه وجسده؟ بالطبع لا، قلت لك يتم كل شيء بالتراضي بيننا، ثم أثناء المفاوضات تشعر بأن الأحياء منهم يتمنون لو أنهم مكان المتوفي ليحصدوا الأموال الطائلة التي نعرضها عليهم».

رددت: «لينقذوا ذويهم من الفقر والجوع».

قال: «هذا الأمر يخصهم وحدهم.. لا تقولي إن استغلال احتياجات المرء فعل مُشين، في هذه الدنيا لن يقدم لك الناس خدمة دون مقابل، ونحن لا نبخث في حقهم».

واصل بهدوء تام: «أريد أن تستمر علاقتنا لما هو أبعد مما نحن عليه يا وصال، لذلك أخبرتك بكل شيء».

الحقيقة يا ياسين إنني لم أعرف سبب رفضي للعمل معه، هو الرفض الفطري للعمل المُشين، لكنني لم أجد بداخلي مشاعر الشفقة أو الذنب تجاه أحد. دعك من حقوق الفقراء والمهمشين، كل هذه الكلمات لم أؤمن بها ولم أصدقها، كنت أتمنى أن أكون كذلك، لكنني لست هذه الإنسانة التي تفكر في الناس، لست أنانية، لكنني لم أجد تعاطفًا معهم، على العكس اكتشفت أنني لا أكترث من الأساس لهم، ليمت من يمت، وليغرق من يغرق وينتهي من ينتهي، الأهم أن أحقق ما أريده. بالمناسبة حتى المدافعين الموالين لحقوق الفقراء يتطلعون لمكاسب منهم بكل الطرق الممكنة.

وافقت وبدأت بالعمل معه. عام تلو عام، تزداد ثروتي وعلاقاتي، وحتى إحساس الذنب لم أشعر به ولو لمرة واحدة، أصبحت علاقتي بماجد علاقة عاطفية من الدرجة الأولى، انتهى وقت إخفاء الحب، الولع والدلال، لن أقوم بهذا العمل إلا من أجل رجل أشعر معه بالأمان، رجل يحبني وأحبه ومُستعد للتضحية بكل شيء من أجلي، كل شيء على ما يرام وأنا أعني جيدًا ماذا تعني كل شيء، حان وقت الزواج.

ربما، للأمانة لم يتهرب ماجد يومًا من هذا الموضوع، لكن الوقت كان يعاندنا، طويت هذه الصفحة مؤقتًا حتى تستقر الأمور أكثر، خصوصًا أن أمي لا تتحدث معي عن هذا الموضوع، هي لا تتحدث معي من الأساس، لربما نسيت وجودي في الدنيا.

وسط حالة الحب والسعادة والعمل المتواصل أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، فذات يوم وأثناء وجودي في المستشفى، فوجئت برجال الأمن يقتحمون مبنى المستشفى؛ تلصمت في مكاني وشعرت بالشلل في جسدي، ماذا يحدث؟

وسط حالة ذهول الدكاترة والممرضات، اتصلت بماجد لكنه لم يستجب لمكالماتي، انتهى الأمر.

خرجت بُصحبة رجال الأمن، طوال الطريق في رأسي فكرة واحدة: المصير الملعون الذي ينتظرني.

المرة الثانية التي أدخل فيها قسم شرطة، المرة الأولى كانت حين استخرجت البطاقة الشخصية، أما الثانية فأنا مُتهمة وينتظرني السجن. هناك جلست في إحدى الغرف المعزولة، لم يخبرني أحد عن سبب وجودي هنا أو التهم المنسوبة لي، لكنني في نفسي كنت أعرف أنني ارتكبت ما يجعلني أقضي سنوات طويلة في السجن، ما يجعلني أؤمن أنني لن أرى الشارع إلا بعد فترة طويلة، طويلة جدًّا، الغريب يا ياسين أنني رغم كل ما يحدث لم أشعر بالخوف، كان بداخلي ثبات وصمود لم أعرفهما من قبل».

قاطعتها وسألتها: «وما تفسيرك عن هذا الثبات؟».

أجابت: «من قضى أيام طفولته في الشقاء لن تنهزم تعثرات أيام الشباب، ربما الأثر السيئ العدواني الذي تركته أمي بداخلي هو السبب، ربما المعاملة الجافة القاسية، شعور بأنني دائمًا مُذنبة، كلها أشياء تركت في روحي آثارًا سيئة بُنيت عليها شخصيتي. لم أبكِ يا ياسين، لا أتذكر متى آخر مرة بكيت فيها، حتى في طفولتي كانت تبكي أمنية فتجد أمي تطيب خاطرها وتداويها، أما بكائي

فيثير غضبها ويجعلها تنهال عليّ بالضرب، كان عقاب البكاء في غاية القسوة، والمرء حين يُعاقب على حقوقه، يستسلم تمامًا للحياة، يرفض ممارستها حتى إن حانت الفرصة ليمارس هذه الحقوق تجده منطويًا في ذاته، وفي رأسه كل العقاب الذي ناله من قبل فيأبى أن يعيش كإنسان يحق له التمرد، البكاء، الصراخ أو الانسحاب من العالم. لم أبكِ في طفولتي لأنني كنت أعاقب على البكاء، ومع كل دمعة يشتد العقاب، حتى آمنت أن البكاء نذير شؤم عليّ، فأصبحت أخشى على نفسي منه. بعض التفاصيل الصغيرة في طفولتنا لا يمكن لذاكرتنا نسيانها أو تجاوزها، تبقى عالقة في ذاكرتنا، تتحكم وتسيطر على كل أفعالنا، رغمًا عنا.

بعد ساعة جاء دكتور ماجد مع أحد محاميه، ما إن رأيته حتى ارتميت بين ذراعيه: «ماجد افعل شيئًا، لا تتركني أرجوك!».

طبطب على رأسي: «الأمر بسيط يا وصال، لن أتركك أبدًا».

توقفت وصال عن الحكي، ابتسمت وهي تداعب خصلات شعرها: «سأكون حمقاءً أمامك لكنها الحقيقة، رغم كل ما يحدث كنت مُطمئنة وسعيدة بوجود ماجد، الطمأنينة يا ياسين، أدفع نصف عمري لمن يُطمئن قلبي، والنصف الآخر لمن يعامله بلطف. كان الوضع لا يطاق، لكنني هائمة في كلمات ماجد مع المُحامي، طريقته، وأسلوبه، وإصراره أن ينتهي كل شيء الآن، ربما نسيت لماذا أنا في القسم، نسيت المصير الذي ينتظرني. الحب يا ياسين يهون مأساتنا، يجعلنا نتحمل كل الآلام، ويخفف من وطأتها، يلون حياتنا الرمادية بألوان وردية، وكلما شعرنا بالضيق والتعب، تكفل الحب بطاقة جديدة لنواصل الحياة.

أحببته يا ياسين.. أحببته من كل قلبي، لم يهمني التهم التي قد تنسب لي، كان يؤلمني أكثر أنني قد أحرم منه، قد يبعدني عنه السجن، أقضي أيامي دون أن أراه وأحدثه، أنعم بصوته وجمال كلماته وكل المشاعر الجميلة التي أشعر بها في وجوده، من هذا الهيام حان وقت التحقيق».

توقفت وصال عن الحكي.. وعدنا للسيارة.

ـ لقد تعبت، ربما بإمكاننا أن نواصل غدًا.

هززت رأسي، فلقد تعبت أنا أيضًا من هذا الدور الذي أمثله أمامها: «سأنتظرك».

عُدت إلى المنزل.. أخيرًا انتهى اليوم.. أو هكذا ظننت حتى رن الهاتف.

ـ ألو؟

ـ ياسين.

صمت لثوانٍ، أنا أعرف هذا الصوت جيدًا.

ـ أنا رُقية.

رددت وقلبي بدأ بالخفقان: «رُقية!».

ساد صمت طويل بيننا ثم قالت: «أحتاج للتحدث معك، أنا في كازينو المعادي».

كل الكلمات اختفت، كل المشاعر اهتزت، وكل الأسئلة لم يعد لها أثر، وفجأة لم أستطع الرد عليها إلا بـ: «أنا في الطريق إليكِ».

مشكلة حياتي منذ عودتي إلى مصر، هي سرعة الأحداث وتقلباتها، هذه الوتيرة السريعة التي منعت عني رفاهية الانهيار، وحقيقة الاستيعاب.

لقد رحلت عني فتاة أحلامي بعد سنوات وسنوات من الحب والغرام، غسلت عاري بيدي بعدما قتلت أختي، ثم ماتت أمي أثناء هجرتي بحثًا عن حياة جديدة، وها أنا عُدت إلى مصر مرة أخرى وأنا قاتل مُحترف، سرعة هذه الأحداث أفقدتني الاستيعاب نفسه، والآن وبعد فترة أنا في الطريق لرقُية فتاة أحلامي التي تزوجت وأصبحت لها حياتها الخاصة.

توقفت بالسيارة أمام الكازينو، أشعر بالتوتر، الخوف، والحنين. اشتقت لها، نعم ولماذا أنكر هذا الاشتياق ما دام حبيس صدري؟ وكيف ألا أشتاقِ لامرأة بدأت معها حياتي، وتخطيت معها كل الصعاب، ونهضت من كل التعثرات؟ نحن معشر الفقراء، الحب لا يعني الكلمات الرومانسية، لا يعني اللحظات الحلوة، لا يعني الذكريات السعيدة، نحن معشر الفقراء كل قصصنا ممزوجة بأنين الجوع، بملامح الشقاء والسعي، البطل الحقيقي ليس ذاك الذي يهدي لحبيبته وردة أو خاتم الماس، البطل الحقيقي عندنا الذي يوفر لها مسكنًا ومأمنًا، منزلًا صغيرًا يجمعهما ويلم شملهما. نحن معشر الفقراء الحب عندنا مرتبط بالصبر، المواساة والكفاح والشقاء، هذا ما لم تفهمه دليدا، وهذا ما عاشته وأدركته وهربت منه رقُية.

بخطوات ثابتة اتجهت للداخل، هناك وجدتها تجلس أمام النافذة، جلست أمامها في هدوءٍ تام.

ما زالت جميلة، رقيقة، وملامحها في غاية البراءة، تشعر بالخجل فترمق السماء بنظراتها، ثم تتنهد، ثم تنظر للساعة، ثم تهمهم وتضرب الأرض بقدميها بهدوءٍ تام.

غريبة! ما زلت أحفظ تلك التفاصيل وما زلت...

- كيف حالك يا ياسين؟

سؤالها أعادني من حالة التأمل فيها.

كيف حالي؟ لست على ما يرام يا رقُية، لم أسأل حالي كيف حاله في غيابك، كل الأشياء في غيابك باهتة وناقصة لا قيمة لها، أتألم يا رقُية، أتألم ويجلد الحنين قلبي فيجن جنوني عليكِ، أبحث عنكِ، أفتش بين الرسائل عن رسالة منكِ، أبحث بين العابرين عن شخص يشبهك، أسمع اسمك حولي فأطارد الصوت لعلك في نفس المكان، أبتسم فأتذكر كلماتك حين تقولين: «أحب ابتسامتك يا ياسين»، فرغمًا عني تنكمش ملامحي وتعبث، فأتذكر كل محاولاتك لتجعليني أبتسم من جديد. أضحك فأتذكر ضحكتنا سويًا، أبكي فأتذكر كل المرات التي بكيت فيها، ويدك وهي تمسح دموعي السائلة على خدي، يمر الصيف فأتذكر كم تكرهين هذا الفصل وكم يثير غضبك، ويمر الربيع فأتذكر أنه فصلك المفضل الذي تحبين ارتداء الفساتين والجري واللعب في الحدائق، ثم الخناق الطويل بسبب تصرفاتك وغيرتي الجنونية عليك.

كيف حالي؟

لم أكن ولن أكون على ما يرام في غيابك يا رقُية، أفتقدك، أحن لكِ، أشتاق لكِ، وأتمنى لو كان بإمكاني استعادة ساعة واحدة من الحياة معك.

ابتسمت وأنا أكتم كل هذه الكلمات والأصوات التي سمعتها بداخلي فور سؤالها فأجبت: «أنا على ما يرام، كيف حالك أنتِ؟».

ردت بصوتٍ هادئ: «بخير، حمدًا لله على سلامتك، لم أتوقع عودتك بهذه السرعة».

قلت: «أنا في زيارة مؤقتة لأنهي بعض الأعمال، ثم أرحل من جديد».

ـ بعض الأعمال؟ ماذا تعمل الآن؟

قلت: «دعكِ مني، كيف حال الزواج؟».

ردت: «الزواج! آه نعم نعم، الزواج خطوة ضرورية وأنا سعيدة بها».

استغرابها من السؤال كان غريبًا بالنسبة لي، لكن الأكثر غرابةً كان نظرات العتاب التي رأيتها في عينيها.

قلت ضاحكًا: «قبل عام كنا نمر على رصيف هذا المكان، نتأمل الزبائن من وراء النافذة، نسأل عما يتحدثون ويفكرون، تقولين متى سنجلس هنا؟ وأقول لكِ يحتاج الجلوس هنا العمل طوال الشهر حتى ندفع ثمن فنجان قهوة. كنتِ تضحكين وكنت أعدك أننا سنجتمع هنا يومًا ما، وها نحن اجتمعنا».

ردت: «نحن لسنا نفس الأشخاص، عام واحد كفيل أن يغير كل شيء».

دقائق جديدة من الصمت، يقطعها خطوات الزبائن وهمساتهم مع أم كلثوم من المذياع: «يا ما كنت أتمنى أقابلك بابتسامة، أو بنظرة حب أو كلمة ملامة، بس أنا نسيت الابتسامة زي ما نسيت الآلام، إن كان على الحب القديم، إن كان على الجرح الأليم، ستاير

النسيان بقالها، وإن كان على الحب القديم وقساه، أنا نسيته أنا، يا ريت كمان تنساه، كمان تنساه، تفيد بإيه يا ندم يا ندم؟ وتعمل إيه إيه يا عتاب؟ تفيد بإيه إيه يا ندم؟ وتعمل إيه يا عتاب؟ طالت ليالي الألم، طالت ليالي الألم، واتفرقوا الأحباب...».

سرحت بخيالها مع الكلمات، أعرف ما يتبعه هذا السرحان والاندماج العميق في الأغنية، كانت لعبتنا المُفضلة، تحليل الأغاني والمناقشة حولها.

بالفعل لم تستطع التخلي عن لعبتها المفضل فسألتني: «لماذا تمنت أم كلثوم أن ينسى حبيبها القديم علاقتهما؟».

لم أرد، كنت أنتظر منها الإجابة، فأجابت عن نفسها: «أم كلثوم أصدق كاذبة في التاريخ، لو نسيت أم كلثوم هذا الشخص لما طالبته بنسيان علاقتها، نحن لا نطلب من الطرف الآخر أن ينسى إلا ونحن لا زلنا عالقين في الماضي ولا نستطيع تجاوزه، نسيان الطرف الآخر للعلاقة يقوي محاولاتنا ويدفعنا للنسيان. أم كلثوم لن تنسى، وحبيبها لن ينسى، وكل منهما يطلب من الآخر أن ينسى ويتجاوز. مؤلم الحب، حتى في فراقه تبقى مرتبطًا بالشخص الآخر».

ابتسمت بخيبة أمل ثم قالت: «واتفرقوا الأحباب».

بسخافة متعمدة سألتها: «لماذا طلبت لقائي؟».

قالت وهي تتلعثم: «لا شيء أكثر من إنني احتجت لرؤيتك».

حين تكذب تتلعثم، وحينها ألتزم الصمت لتخبرني الحقيقة فهي لا تتحمل الكذب: «تتذكر حين كنا نمشي في شوارع المعادي؟ كنت أتحدث معك عن روعة المباني والحياة هناك، وكانت أمنيتي أن أعيش في منزل صغير في هذا الحي. كنا نحلم بالثراء، نتسكع

ونحن نتخيل أرصدتنا في البنوك، رغم أننا لا نملك ثمن تذكرة المترو، شحاذين الواقع أثرياء الخيال، هكذا كنا وهكذا تمنينا، تتذكر كنت مُستعدة أن يبقى الخيال «خيالًا» ولأكتفي بجوع وحرمان الواقع فقط لأننا معًا».

تغيرت رقية، الفتاة الفقيرة البسيطة لم تعد كذلك، تغيرت وتغيرت أحوالها، الفتاة التي كانت تتهمني بالسوداوية والتعاسة أصبحت أكثر واقعية، التي ورغم حالة الفقر والجوع تؤمن بازدهار أحلامها وقدرتها على تحقيق أمنياتها، أصبحت أكثر إدراكًا للواقع وللحياة، رقية التي لطالما سخرت من الكتب التي كنت أقرأها، وترى الفلسفة من الجنون، وترى مبالغة في نظرة الناس العميقة للأشياء أصبحت ترى الحياة بمنظور مُختلف، كيف يتغير المرء في عام واحد؟ كيف تتبدل حياته ونظرته ومواقفه؟ وكيف يتحول من شخص فوضوي مُتسرع، متشبث بالأمل، إلى شخصٍ هادئ، مُتزن ويفكر كثيرًا قبل النطق بأبسط الكلمات؟

ردت وكأنها تسمع ما يدور في رأسي: «في الماضي كنت أسخر من الأشياء التي تحدثني عنها، الواقع، الفلسفة، السعي، الركض، العجز، قلة الحيلة، وإدراكك لمعاني حياتك نفسها، حتى الآن ما زلت لم أتفق معك في هذه النظرة، لكنني لم أعد أسخرِ منها، أقصد أدركت أنك كنت مُحقًا في بعض النقاط الهامة، لكنك كنت لم تذكر النقاط الأهم أيضا».

صمتُّ في إشارة مني لمواصلة حديثها: «الناس أحبوا الله بقلوبهم وعرفوه من كتبه السماوية».

- الدروس المُستفادة من التجارب أهم وأفيد من كل الكتب العلمية والروايات التي نقرأها.
- الكُتب والروايات تعطينا فكرة عن الحياة، لكن المواقف تثبتها وتؤكدها.
- في العلم لا يتساوى العالم بالجاهل، لكن في الواقع رجل الشارع البسيط يملك خبرة في التعامل مع الناس قد لا يملكها دكتور في الجامعة.
- لن يشعر بك إلا من مر بنفس الظروف التي واجهتك عدا ذلك كلها كلمات مواساة لطيفة.

تنهدت ثم واصلت: «نسيت أن تخبرني أيضًا أن الحياة مدرسة، أكبر من كل مدارس وجامعات العالم».

رددت: «لم تخبريني عن سبب طلبكِ لرؤيتي؟».

وهي تجمع أشياءها قالت: «أردت أن أطمئن أنني ما زلت في قلبك، أو تلك الفتاة التي أحببتها ما زالت صورتها كما هي في عينيك. اعتنِ بصحتك يا ياسين فلم أعتَد أن أراك بهذه النحافة، ملابسك الجديدة لم تغير ملامحك الشاحبة الحزينة. لا تحاول التواصل معي أو البحث عني، وإياك أن تنسى ما قالته أم كلثوم: وعايزنا نرجع زي زمان، قول للزمان ارجع يا زمان».

ابتسمت. نهضت من مكانها وخرجت.

في خطوات ثابتة ودعتها وودعت قلبي معها على أمل أن نلتقي مرة أخرى. في أمل؟ (إيه في أمل يا فيروز).

في الطريق للعودة كانت فكرة واحد تشغلني: «هل سأستطيع بدء حياتي مع دليدا، ورقية ما زالت تسكن قلبي؟ كيف تقبل دليدا هذا؟ وكيف سيتعين عليّ العيش مع فتاة لا أحبها؟ لم يكن إلا مجرد لقاء عابر لا أكثر حتى احتل الحنين قلبي من جديد، أرادت أن تقول بين كلماتها أنها لا تشعر بالسعادة مع زوجها في حياتها الجديدة، لكنها منعت كل سبل المناقشة حول هذا الموضوع، وكأنها تؤكد أن رغم التعاسة التي تشعر بها لا يمكننا إعادة الوصل، لا يمكن للحنين أن يراود قلوبنا من جديد، أو أن نضع آمالًا جديدة حول عودتنا، نحن افترقنا فراقًا أبديًا، قد نلتقي.. لكننا لن نعود أبدًا.

وصلت المنزل، لم يكن هناك مزيد من الوقت لأفكر في أمر دليدا، غدوت في نوم عميق حتى استيقظت على صوت الهاتف.

كانت وصال تنتظرني بسيارتها حتى يبدأ يوم جديد، انطلقنا بالسيارة حتى وقفنا أمام سجن طرة.

ـ تعال، لا تقلق لن يتم القبض علينا.

اتجهت معها ودخلنا ساحة كبيرة، اليوم هو يوم الزيارة، هذا الأمر ليس معتادًا في غالبية السجون، لكن سجن طرة يعني كبار رجال الدولة، وهذا يكفي لبعض الامتيازات. وجوه الأهالي هنا رغم أناقة ملابسهم إلا أنها شاحبة وقاسية، السجن سجن مهما كان مميزًا ومختلفًا عن بقية السجون.

بعد دقائق ومن وسط السجناء المُنهكين، اقتربت منا سيدة تبدو في منتصف الأربعينيات، ما إن رأت وصال حتى عانقتها بحرارة، ثم جلست معنا. في الخفاء وبعيدًا عن رجال الأمن أشعلت وصال سيجارة لها، ثم سألتها عن الأحوال بالداخل، كان الحوار بينهما

باردًا ومملًا حتى قالت السيدة: «لو أعيد الزمن مرة أخرى لن أوافق على العرض الذي قدمتيه لي، أنا لا أتهم مساعدينك باستغلال حاجتي القاسية للمال، ولا أتهمك بسوء، لقد كنتِ صادقة معي في كل شيء، لقد أنقذتِ عائلتي من التشرد والهوان، وما زلت أثق أنك لن تتخلي عنهم حتى أخرج من هنا».

تنهدت السيدة ثم واصلت: «السجن هنا ليس بهذا السوء الذي كنت أعتقده، الناس هنا صادقون، ولا أعرف هل يجبرنا الوضع على أن نكون صادقين مع أنفسنا، أم لأننا كذبنا كثيرًا خارج أسوار هذا السجن؟ هنا نرتدي جميعًا نفس الملابس الباهتة القبيحة، نستيقظ وننام في ميعاد واحد، نأكل نفس الطعام، وننام في نفس العنبر، لا أحد مميز عن غيره، لا أحد يملك أفضلية عن الآخر. اللص لا يدّعي الأمانة، القاتل لا يدّعي السلام، الخائن لا يتباهى بالوفاء، من يؤذيك يؤكد لك إنه سيؤذيك، ومن ينوي قتلك يتوعد لك بالقتل، ربما لو كانت الحياة في الخارج بهذه المصداقية لما بُنيت السجون من الأساس، على أي حال ما زال لدي طلب آخر كما اتفقنا».

ابتسمت وصال ثم قالت: «لكِ ما تشائين».

أخرجت السيدة من أحد جيوبها صورة لشخص ما، تأملتها لثوانٍ ثم أعطتها لوصال التي صُدمت حين رأت الصورة، فبدأت السيدة بالشرح لوصال: «هذا الرجل الملعون، لقد أفسد كل شيء في حياتي وأفسد حياة الكثير من النساء، التخلص منه يعني شفاء غليل الكثير من الضحايا، ربما أفسد حياتك أيضًا وأنتِ لا تعلمين هذا، سلطته، قوته ونفوذه كلها أشياء تمنع الضحايا من التحدث، حتى الحالة الوحيدة التي امتلكت قلبًا شجاعًا للمواجهة، اختفت

في ظروفٍ غامضة، نهاية هذا الرجل تعني نهاية أقوى الرجال ظلمًا وفجورًا في مصر».

تلعثمت وصال وظهر عليها الارتباك فواصلت السيدة: «هذا طلبي الأخير، ولا أظن أنكِ تملكين حق الرفض، فما زالت عشر سنوات أخرى تنتظرني هنا، ولا أظن أن عشر سنوات ستختلف كثيرًا عن عشرين عامًا».

شعرت وصال بالتهديد، فقالت ونحن نستعد للرّحيل: «في الزيارة القادمة سنلتقي في ظروف أفضل».

خرجنا من السجن بعد أن ودعا بعضهما البعض.. ثم انطلقنا بالسيارة، وهنا بدأت وصال قائلة: «مسكينة، لقد ضحت بحريتها في سبيل أولادها، مثلها مثل مئات السيدات اللائي يقبعن في السجون بسبب عجزهن عن تسديد الديون والالتزامات المادية، لكن أمر هذه السيدة يختلف قليلًا عنهن...».

قاطعتها: «وصال، فك الله كربها، لكنني لست في حاجة لسماع المزيد من القصص الحزينة البائسة، ماذا حدث لك بخصوص القضية؟».

أجابت: «كانت قضية أدوية فاسدة، كنت مسؤولة عن المستشفى، صحيح لم أكن أعلم بوجودها وحيثياتها، لكن أمام القانون أنا المديرة والمسؤولة، وبالطبع أنا المتهمة أمامهم. فور أن علمت بالتهمة المنسوبة لي حتى انفجرت، هددت ماجد بالاعتراف بكل شيء أمام القضاء، وهذا يعني بالطبع الاعتراف بكل الجرائم والأعمال القذرة التي يقوم بها هو وشركاؤه. كان ماجد في غاية الهدوء رغم انفعالي وثورتي: «أنتِ لستِ مخطئة يا وصال ولا علاقة

لكِ بالأمر، لكن طبيعة عملنا خاصة جدًّا، تجبرنا على معرفة قوة تحمل شركائنا، تجبرنا على التضحية من أجل الاستمرارية، الكثير من رجالنا ضحوا بأشياءٍ ثمينة: أولادهم، عائلتهم، أو حريتهم، وها قد حان الدور عليكِ، ربما أنتِ محظوظة لأن قربان التضحية والولاء أقل من كل الذين ضحوا من قبلك، وربما أنتِ أكثر حظًا منهم».

قاطعته بعد كلماته المُستفزة: «لم تكن في حاجة لمعرفة مقدار ولائي، هذا الطريق لم أختَره، ومع ذلك وافقت عليه من أجلك، الآن تشكك في ولائي لك وتريد إثباتًا أكثر لهذا الولاء؟! تريد أن أضيع خمس سنوات من عمري في السجن لأثبت لك مدى ولائي لك؟!».

تنهد ماجد وقتها وبنبرة في غاية الهدوء قال: «ستعيشين أيامًا صعبة، لكنني أضمن لكِ أنها ستكون آخر أيامك الصعبة في حياتك، وأنتِ ما زلتِ في العشرينيات يعني قضاء كل الشقاء والتعب والمعاناة التي قد تمر عليكِ في حياتك المستقبلية، أنا أضمن لك أنها ستنتهي بعد انقضاء الخمس سنوات التي ستقضينها هنا».

كان الأمر أشبه بعقد صفقة مع القدر.. لكن يبقى السؤال الأهم: كيف سيضمن لي حياة مرفهة وهادئة بعد انقضاء سنوات السجن؟

- سنتزوج يا وصال، ستصبحين زوجتي، أنا أعرف كم المعاناة التي تصيتها في حياتك مع أمك، أعرف تفضيلها الدائم لأمنية عنك، وأعرف أنها لا تحمل في قلبها لكِ مثقال ذرة حب أو اهتمام، ولو اختفيتِ عنها سنوات وسنوات لن تسأل عنكِ أو تهتم لأمرك، أعرف كل محاولاتك للهروب من شبح أختك الذي يطاردك طوال الوقت، وأعرف مدى حاجتك للحرية وللهروب منها.

سنتزوج وستبدأين حياة سعيدة جديدة معي. أنا لا أرى في الكون امرأة غيرك، ولا يمكنني الاعتماد على أحد إلا أنتِ، أنا أثق بكِ. مع آخر لحظاتك في السجن ستبدأ أولى لحظاتك في حياتك الوردية الجميلة التي تنتظرك، الجنة التي يعيش بها المرء طوال حياته، يمر بفترات وتعثرات وخيبات، المرض وفقدان الأحبة والفشل والعجز، الجنة التي يتمناها المرء ويدفع عمره ضريبة لها، ستكون بين يديكِ بعد انقضاء مدة السجن، سنتزوج ونهاجر وخلال هذه الفترة سأعمل على نهاية أعمالنا الخطرة، أنا مثلك يا وصال أريد حياة هادئة، الأمر يستحق التضحية».

قاطعتها على الفور وسألتها: «وهل وافقت على هذا العرض؟».

أجابت بسخرية: «منذ طفولتي وأنا أعاني يا ياسين، المعاناة لم تتخلَ يومًا عني، يليق بي أن يلقبني الناس بابنة المعاناة لأن أنفاسي الأولى في الحياة كانت ممزوجة بالمعاناة وذنوب لم أقترفها. لا أخفي عليك خبرًا لم تكن أهدافي مثل كل الفتيات، الزواج، الأبناء والعمل، كلها أشياء لم أفكر فيها مطلقًا، كان كل ما يشغلني ويهمني أن تتوقف الآلام، ينتهي شعور أنني مُذنبة، وأنني لست كافية بالنسبة لأمي. في رأسي كانت كل المخاوف، من اللحظة الحاضرة، القادمة، الساعة الآتية، اليوم المقبل، الشهر والعام، والحياة المستقبلية، مخاوف من كل شمس جديدة وكل يوم يمر على حياتي، هذا الخوف أردت أن يتبدد مهما كلفني الثمن».

ـ حتى لو كان من عمرك؟

أجابت وهي تتغنى: «وأعطي نصف عمري لمن يجعلني أطمئن».

وقد كان يا ياسين وقدمت للقدر خمس سنوات من عمري في السجن حتى أنعم بحياة مطمئنة هادئة. مر الوقت باردًا جدًا، كنت منطوية لا أتخيل كيف وصل بي الحال إلى هنا، وسعيدة بأن الأيام تجري، وأن الطمأنينة والحب يلوحان لي من بعيد. في السجن تغيرت صفاتي، أصبحت أكثر جرأة وعنفًا، في السجن تغيرت صفاتي وأصبحت أكثر قوة وصلابة، في السجن تعلمت كيف أواجه وكيف أتحدى وكيف أقاوم وأصمد، وفي جهة أخرى وبينما كان الجميع يخشى إبداء آرائهم فلقد علمني السجن حرية التعبير، الاعتراض والرفض. كنت بالنسبة لنساء العنبر امرأة حديدية قوية يخشاها مأمور السجن نفسه.

توالت الزيارات من ماجد سنة بعد سنة، وفي السنة الأخيرة لم يزرني ولو مرة واحدة، بدأت أشعر بالقلق والخوف، الاحتمال الوحيد الذي أنهكني أن يكون تم القبض عليه، هذا يعني أن خمس سنوات من عمري ضاعوا هباءً. في الوقت نفسه كنت أفكر كيف سيتحمل شقاء السجن، المعاملة القاسية والأوامر وحكم النفس على النفس، إن صحت ظنوني وألقي القبض عليه بسبب أفعاله الإجرامية كونه تاجر أعضاء بشرية فقد يصبح المؤبد أخف حكم عليه. الظنون كانت تراودني وتفتك برأسي.

الوقت بطيء جدًا حين ننتظر يا ياسين، في الانتظار تصبح الدقيقة ستين ألف ثانية، وتصبح الساعة ستين ألف ساعة، والأسبوع يعني سبع سنوات، والشهر ثلاثين عامًا، أظن إنني كبرت في هذا

العام أكثر من عشرين عامًا. كل الظنون والمخاوف والقلق، أشياء كفيلة أن تهدمك وتحطمك وأنت في قمة ثباتك أمام الناس.

جاء اليوم المنتظر وخرجت من السجن. اللحظة الأولى في الحرية لا تُنسى، أخيرًا هواء نقي لا يشوبه العجز، السيطرة، حكم النفس، الأوامر، وعقارب الانتظار السامة، أخيرًا أنا حُرة، ورغم كل مخاوفي لكن أسمع صوت الأمل يهمس في أذني: «ها قد بدأت حياتك الوردية الجميلة مع دكتور ماجد، زوجك الذي ينتظرك منذ خمس سنوات».

هرولت ناحية المنزل، البهجة كانت تسبقني، وقلبي كان يضرب أعلى من ضجيج شوارع القاهرة، ويركض أسرع من التاكسي.

وقف السائق أمام المنزل، فوجئت بالأنوار المضيئة تزين عمارتنا، نذير جميل أستحقه بكل تأكيد، مدخل العمارة مُزدحم يبدو أن هناك خطبة في عمارتنا، صعدت الطابق الأول، الطابق الثاني، الطابق الثالث..

تباطأت خطواتي قليلًا، ثقلت ضربات قلبي.

لن أكون تعيسة الحظ للحد الذي يجعل أمي تحتفل بعودة أمنية من الخارج في نفس اليوم الذي خرجت فيه من السجن».

ضحكت وصال ساخرة: «باب الشقة مفتوح.. والضيوف يتراقصون ويتغنون.

دخلت كضيفة غريبة عن الجميع، في الصالة كانت أمي تجلس في كامل أناقتها، بجوارها خالي الذي أراه صدفة كل عام، وماجد يضع الخاتم في يد أمنية مع دعوات وأهازيج كل الضيوف بالرفاء والبنين.

ما زلت أتذكر هذه اللحظة جيدًا، لقد شعرت بثقل العالم في قلبي، بينما كانت الحياة تسير بشكل طبيعي. فقدت النظر لثوانٍ فلم أرَ إلا سنوات السجن والشقاء، أيام عمري وهي تمر وتضيع وليالي الانتظار والترقب والخوف، فجأة تداخلت كل الأصوات في رأسي، فأصبحت أسمع كلمات أمي العدوانية تجاهي وأنا في مرحلة الطفولة، كل تنهيدات الحزن والوحدة، الصراخ الذي انتشر مع نبأ وفاة أبي، كلمات ماجد الأولى معي، لحظة القبض علي والكلمات القذرة التي انهالت عليّ من رجال الأمن، صوت القاضي وهو ينطق بالحكم، وكلمات ماجد وامتصاصه لغضبي ووعده بالزواج مني فور انقضاء فترة السجن. فجأة شعرت بشيب في قلبي، فأصبحت أنفاسي ثقيلة جدًا، شعرت وكأنني أسحبها للخارج. كان العالم يقف في حلقي، أطرافي ترتعش حتى إنني شعرت بصقيع قارص وكأنني في موسكو، قدمي لم تكن قادرة على الوقوف والثبات. سندت يدي على الحائط فشعرت بانحنائه من ثقل جسدي وقلبي في هذه اللحظة.

توقف الزمن عند هذه اللحظة، توقفت الأرض عن الدوران، ولم تشرق شمس بعد هذا اليوم، لاحظت أمي مجيئي، فسحبتني لغرفتها، ثم قالت ببرود وكأنني لم أغِب عنها لخمس سنوات: «ما هذه الملابس القذرة التي أتيت بها لحفل كتب كتاب أختك؟».

ترحيب جميل وحار كما توقعت تمامًا.

أعطت لي فستانًا ثم قالت: «استحمي سريعًا في حمام الغرفة، ثم ارتدي هذا الفستان حتى تأتيك مصففة الشعر واخرجي لهم مُبتهجة».

ـ أمي أنا مُتعبة، هي لم ترَني سأبقى هنا.

ردت بحزم: «كفاكِ غيرة وحقدًا على أمنية، لا تتأخري».
ابتسمت ونفذت ما طلبته مني، ثم خرجت لهم.
فور أن رأتني أمنية حتى عانقتني بترحيب حار جدًّا.
للأسف كنت أبرد من أن أبادلها هذا الترحيب، للمرة الأولى أشعر أنني حقًّا أكرهها بالمعنى الحرفي للكلمة.
- اشتقت لكِ يا وصال.
- وأنا أيضًا، دعيني أرحب بعريسك.
نظرت لماجد الذي كان يتصرف بطريقة عادية كادت أن تصيبني بالجنون: «سعيدة برؤيتك يا دكتور».
رد وهو يبتسم: «اكتمل الفرح بوجودك يا وصال».
ابتسمت له في هدوء تام ثم جلست بجوار أمنية، كنت في غاية الهدوء والثبات حتى اقتربت مني إحدى صديقات أمنية ودعتني للرقص، مُنهكة ومرهقة لكن قناعة أمي أنني أحقد وأغير من أختي جعلتني نهضت من مكاني، خلعت الحذاء، ربطت على وسطي الإيشارب.
يموت الناس نائمين أما عني فلقد مُت راقصة، كانت رقصة الموت على ألحان ألف ليلة وليلة.
لم تكذب أم كلثوم، هي ألف وليلة وليلة من الآلام والقسوة.
الهجر والشوق والولع..
التعاسة والحزن والاكتئاب..
ألف ليلة وليلة وليلة..
من الحرمان والخوف والوحدة..
اليأس وفقدان الشغف والرغبة في الانتحار..

القهر وحكم النفس على النفس والإنهاك..
ألف ليلة وليلة وليلة..
من فقدان الشغف، الكسل، والعجز..
قلة الحيلة، الملل، والوجع..
الأمل والانتظار والخيبة..
ألف ليلة وليلة وليلة..
من العالم إلى العالم.

لقد استقلت من كل الوظائف التي شغلتها، كيف لا يمكنني تقديم استقالتي من العالم؟

كنت أرقص، أتمايل، أدندن مع الأغنية، شعرت أن قدمي تغرز الأرض، تعاقبها، تجلدها لأنها تحملني ولا تقوى على إيقاف انهيار قلبي، كنت أرقص وأتمايل، بين وتيرة الحزن والصدمة والخيبة على ثقتي في ماجد، على سذاجتي، تضحياتي وكل السنوات التي ضاعت هباءً، وللمرة الأولى شعرت بالحزن الدفين لأن أمي لم تزُرني طوال هذه الفترة. حزن خبيث وهادئ، لا تشعر بوجوده في روحك، لا تشعر بمخالبه في قلبك، يظل ساكنًا حتى يحدث أشد المواقف التي تشعر فيها بالوحدة، فيثبت وجوده ويفرض سيطرته، ويقول وهو يسلخ جدران قلبك: «ها أنا ذاك الحزن الذي لم تهتم به ولم تشعر بي إلا بعد أن تعرت روحك من الوحدة والتعاسة، ها أنا ذاك الحزن الذي تجاهلته تمامًا، بل لم تحاول الاعتراف بي، ها قد أتيت في أشد لحظات حاجتك للحظة حلوة في حياتك تسندك وتدعمك حتى لا تنهار، ها أنا جئت لأسقط عنك آخر ما تبقى من قوتك وثباتك، فالقشة التي قد تنقذك من الغرق، أنا صاحبتها، جئت لأجعلك تسقط أكثر وأكثر في عمق مأساتك».

تخيل يا ياسين أن تبحث عن طوق نجاة ينقذك من الوحل للقمة، فتجد طوقًا يجعلك تغرق أكثر في القاع، تبحث عن الدواء فتجد السم حلك الوحيد.

واصلت الرقص حتى بدأت في السقوط، ولا يمكنني أن أعرف علام كنت أسقط تحديدًا؟ فكل الأشياء في حياتي كانت كفيلة أن تسقط جبالًا مُشيدة منذ آلالف السنين. فقدت قدرتي على الوقوف، أشعر بثقل قدميّ، وأنا أتجه للأرض من فرط الحزن، ربما الآلام، الخيبة، الوحدة، أو سقطت لأنني في تلك اللحظة تمنيت أن لا أكون أنا.

بعد هذه الليلة وحين استيقظت علمت بأنني قد غدوت في نوبة تعب طويلة، أقصد لقد أصيب قلبي بجلطة دموية كانت كفيلة بإنهاء حياتي.. يا لسوء الحظ بأن هذا لم يحدث!

كانت كلمات الطبيب واضحة: «أي مجهود عصبي وجسدي غير محسوب قد ينهي حياتك».

إذن سأعيش بقلب مُتهالك ومُحطم ومعلق بين الحياة والموت. تدريجيًا استعدت عافيتي وساعدتني على ذلك أمنية التي لم تعش بعد مع زوجها ماجد لانتظارها تجهيز منزلهما الخاص الذي سيشهد على عشهما الزوجي.

معاملتها الحسنة الطيبة لي، جهلها بما حدث بيني وبين ماجد، سذاجتها وبراءتها، السعادة التي رأيتها في عينيها ـ كلها أشياء لم تغفر لها عندي، لم تكن كفيلة أن تزيح عن قلبي ذرة كره واحدة ناحيتها، كانت تشاركني كل تفاصيل علاقتهما، تحدثني عن كلماته، أسلوبه ولباقته وطريقته في التعبير والحب، حتى ابتسامته في الصور معها، كانت نفسها الابتسامة التي يبتسمها معي، الأماكن التي يذهبا

إليها هي نفس الأماكن التي زرناها معًا، الأحلام والأغاني والألوان والبلدان التي يحلمان بزيارتها، حتى أسماء أولادهما في المستقبل. كان يمارس معها كل ما مارسه معي، يحبها بنفس الطريقة التي أحبني بها.

أتذكر ذات يوم قالت وهي تسألني عن رأيي في أحد مستلزمات منزلها الجديد: «لقد أعادني ماجد للحياة، بعد طلاقي جئت له وأخبرته عن نيتي العودة إلى مصر، حينها فعل كل شيء لأعود، وساعدني على طلاقي من زوجي، ثم جاءت الحرية ومعه كل الحب والسلام، لقد أحياني من جديد، يشعرني بأهميتي، كياني ووجودي، وأنني امرأة تستحق الحب والحياة».

الكلمات نفسها التي كان يغازلني ويدعمني بها يا ياسين، لقد أحبها بنفس الطريقة التي أحبني بها».

توقفنا أمام أحدِ المقاهي، جلسنا وطلبنا القهوة، وبعد دقائق من الصمت العميق واصلت وصال: «كانت الغرفة مُظلمة، والمنزل في سكون تام، أمي غارقة في نومها وعواء الكلاب تثبت إن الشارع خال من الناس، لا أحد يكسر حاجز الصوت إلا خطوات قدميّ، ولا ضوء إلا كشاف الهاتف الصغير. على أطراف أناملي خرجت من غرفتي ناحية المطبخ، ضربات قلبي تتزايد، لحسن الحظ إننا وحدنا نسمع بها، لولا هذا لانفضح أمرنا في الحزن، القلق، التوتر، والخوف. من أحد الأدراج أخرجت سكينًا حادًا، ثم إلى غرفة أمنية فتحت الباب، كانت غارقة في نومها، ثبات عميق تستحق أن يكون أبديًا، اقتربت منها ونظرت لها وهي هائمة كالأطفال: «كنت أحبك يا أمنية لكنكِ سرقتِ مني أمي، سرقتِ مني الحب والتقدير والدعم المعنوي والنفسي.

كنت أحبك يا أمنية لكنكِ سرقتِ مني أمي.. سرقتِ مني إحساس بأنني ابنتها، سرقتِ مني كل لحظة نجاح حققته وتباهت بكِ أنتِ.. سرقتِ مني كل مجهودٍ بذلته لإسعادها فشكرتكِ أنتِ.

كنت أحبكِ يا أمنية لكنكِ جعلتِ حياتي كابوسًا. أنتِ السبب في فقدان ثقتي بنفسي، أنتِ السبب في أنني أرى وجهك كلما نظرت لمرآتي، في شعوري بأنني مجرد نسخة مزيفة منكِ.

كنت أحبك يا أمنية، وكنت مُستعدة لتحمل كل هذا، لكنك ودون الجميع قررتِ أن تسرقي الشيء الوحيد الذي اخترته.. قررتِ أن تسرقي حبيبي ذاك المخادع الرخيص الذي ضحيت لأجله بكل شيء».

اقتربت أكثر.. تعمدت أن أحدث ضوضاء بسيطة حتى تستيقظ.

استيقظت بالفعل، نظرت لعينيها.. نهضت وأسندت ظهرها، وقالت بصوتٍ يغلب عليه النعاس: «ماذا حدث؟ هل أنتِ على ما يرام؟».

رددت: «أحبك يا أمنية يا أختي الوحيدة وسندي في الدنيا».

ابتسمت ثم عانقتني.

سمعت ضربت قلبها من شد العناق.

هذا توقيت مثالي لتكون الضربة الأخيرة.

طعنتها من الخلف بكل قسوة عدة طعنات، ولم يبعدها عني إلا تهاوى جسدها تمامًا».

ابتسمت وصال: «كان مجرد حلمًا، لكن في الواقع لم يكن إلا فكرة ظلت بهذا الحلم تراودني طويلًا. بدأت أرى التخلص من أمنية هو الحل الوحيد لإنهاء كل المشاعر السلبية التي أشعر بها، التخلص

منها يعني ولادة حياتي من جديد، فحتى بكاء وعويل أمي لن يعيد أمنية للحياة مرة أخرى، سأصبح بإمكاني التنفس بحرية أخيرًا. جمّل الشيطان هذه الفكرة في رأسي، وقد فشلت في طرد هذا المشهد الدموي الجميل من مخيلتي، مرت الأيام والأفكار والخطط تداعبني ويبدو أنني قد اتخذت قراري بالفعل، في نفس الوقت كنت أشعر أن هذا الانتقام لن يريح قلبي الراحة التي أتمناها، ربما أستحق أن أجد إجابة لسؤالي الوحيد: «ما دام ماجد لم يتزوجني لماذا فعل كل هذا؟».

غدوت كثيرًا في ذكرياتي بحثًا عن إجابة واحدة، بحثًا عن ربط بين كل الأحداث توضح لي الحقيقة لأرى مدى غبائي وسذاجتي، لا شيء أكثر من ذكريات جميلة، صدق ومشاعر نبيلة، لا شيء يوحي بالخداع أو الخيانة، لا شيء يوحي بالغدر أو النية في المغادرة، كل العلامات كانت تؤكد صدقه، كل العلامات تؤكد أنه رجل وفي ومسالم، كل العلامات تؤكد أنني لم أخطئ الاختيار، كانت علاقتنا كلها مليئة بالحب.. الحب فقط.

لا أحد يستحق أن يترك بلا سبب، لا أحد يستحق أن تتخلى عنه بلا سبب، أن تتركه وحده الآلام تأكل قلبه والأفكار تعصر رأسه بحثًا عن سبب واحد لتخليك عنه، لا أحد يستحق أن ينام وهو لا يعرف في أي شيء قد أخطأ، ولا أحد يستحق أن ينام وهو لا يعرف هل هو جاني في العلاقة أم مجني عليه، لا أحد يستحق أن تتركه يسأل ويجلد ذاته بالأسئلة التي لا إجابة لها، فيردد ويتساءل في حيرة: «هل أنا شخص سيئ لهذا الحد الذي يجعل أحبائي يبتعدون عني بلا سبب واضح؟ ربما أخطأت لكن في أي شيءٍ أخطأت؟ هل حبي لم يكن كافيًا له؟ هل أنا لست كافية في حياة من أحبهم؟ لا

أحد يستحق أن تتركه دون أن تخبره بأسباب رحيلك عنه يا ياسين، حتى أسوأ الأشخاص لا يستحقون هذا العقاب القاسي». ربما لو أخبرتهم بمساوئهم أفضل من أن تتركهم بلا سبب، حتى لو أنكروها.

قررت أخيرًا الذهاب إلى ماجد ومقابلته؛ أريد أن يستريح ويهدأ قلبي، وربما عند ماجد سبب يجعلني أتراجع عن قراري الدفين في إنهاء حياة أمنية.

في مكتبه الخاص كان ترحيبًا لطيفًا من الموظفين، أحببت شعور بأنني تركت أثرًا جميلًا في حياتهم، فلم أكن مديرة متسلطة أو عدوانية، على العكس كنت صديقتهم والوحيدة التي تستطيع تخفيف الجزاءات عليهم. من حفاوة الاستقبال خرج ماجد من مكتبه، انضم للمرحبين بي ثم دعاني لشرب فنجان قهوة في التراس..

جلس أمامي كأنه خال الذنب من كل الأخطاء التي ارتكبها في حقي.

- زواج مبارك يا ماجد.. لقد أحسنت الاختيار.

ابتسم بامتنان وبطريقة أثارت غضبي: «أنا مُمتن لنيل شرف النسب منكم».

أكثر ما كان يدهشني هو تعامله التلقائي معي، بطريقة تثير جنوني فقلت: «ألا ترى أنك مُبالغ في التمثيل؟ تتظاهر كأنك لم تدمر حياتي!».

ابتسم وقال: «لا أفهم، كيف دمرت حياتك يا وصال؟».

حاولت تمالك أعصابي، فمثل هذه المواقف ربما القتل هو التصرف الطبيعي والمنطقي لشخص أجاد تدمير حياتي بطريقة لا يمكن لأعتق الخبثاء تخيلها. لوهلةً شعرت أنه بريء بالفعل، وأنه

لم يتعمد إيذائي بأسوأ وألعن الطرق والحيل الممكنة. قطع هذا الصمت صوت غراب عابر في السماء، كلما سمعت هذا الصوت ارتجف جسدي، غامرتني نوبة بكاء قاسية وأشعر حينها أنني في أمس الحاجة للجلوس في غرفتي بعيدًا كل البعد عن أعين الناس، لم أجد تفسيرًا طوال حياتي لهذه الظاهرة الغريبة.

رددت وأنا على وشك الانفجار: «ألا تخشى أن أفضح أمرك يا ماجد؟ سيكون مصيرك السجن».

ضحك بتعجب وتساءل: «السجن؟».

ـ نعم، أنت تعرف ما أقصده بالضبط، وتعلم أنني لن أصمت طويلًا، لست هنا لأتحدث معك عن كل هذا، أريد أن أسألك سؤالًا واحدًا يا ماجد: لماذا لم تفِ بعهدك؟ لماذا قررت أن تؤذيني وتتزوج أمنية؟

أجاب وهو يواصل نظرات الغرابة: «لا أعلم عن أي شيء تتحدثين، ولا أعرف كيف دمرت حياتك، اخترت الزواج من أمنية لأنني أحبها، منذ أيام الجامعة وأنا أحبها، لقد تعاهدنا على الزواج وقد اتخذنا قرارنا بالفعل، قضينا معًا أيامًا وتفاصيلَ هي الأجمل في حياتي، كنت على وشك التقدم لأختك منذ فترة طويلة لكن الظروف لم تسمح وقتها، ولوالدتك كان رأي آخر».

رددت في غضب: «لكنها تزوجت يا ماجد».

أجاب: «وهل نهاية علاقتنا بشخص نحبه يعني التوقف عن حبه؟ ربما المسألة ليست بهذه البساطة والسطحية، كلنا نتمنى أن نعيش الحياة الزوجية مع الشخص الذي اختارته قلوبنا دون الجميع، نتمنى أن نعيش في هذا العش الزوجي مع شخصنا المفضل، نبني

أحلامنا ونصنع واقعنا ونتخيل حياتنا المستقبلية، لكن إن لم تتحقق كل هذه الأشياء، وأصبح النسيان أمرًا حتميًّا واجبًا فهذا لا يعني أنه قد يحدث بالضبط. صحيح تزوجت أمنية، لكنها كانت وظلت فتاة أحلامي، الوحيدة التي تمنيتها زوجة لي، وحين أتيحت الفرصة لم أتردد لثوانٍ».

رددت وأنا غاضبة: «وما دمت تكن لها كل هذا الحب، لماذا اقتربت مني وعاملتني بلطف ومارست معي الحب؟».

ضحك في سخرية: «عاملتك بلطف لأنكِ تشبهينها، هي أجمل قليلًا، لا بل كثيرًا، لكنكِ تحملين نفس الدم، الروح، والنسل. أنا أحب كل من تحبه أمنية، هي أحبتك وحدثتني عنكِ كثيرًا، لذلك حين رأيتك عاملتك بلطف، وأحببت الاقتراب منكِ لأشعر أنني أقترب منها، ربما هذا السبب قاس، وربما أخطأت في تصرفي، لكن الأمر لم يرتقي إلى أكثر من ذلك».

ـ لقد وعدتني بالزواج يا ماجد، لقد أضعت سنوات عمري في السجن حتى أفديك وأترك الحرية لك، ومن ثم نتزوج.

ضحك ماجد ساخرًا: «أنتِ مرهقة جدًّا يا وصال، عليك العودة للمنزل».

لم أستطع السيطرة على نفسي فانفجرت بصوت عالٍ: «لست مُرهقة يا ماجد، أنت مخادع، غشاش، وغد، لن أصمت سأفضح أمرك يا ماجد».

سقطت فجأة على الأرض وبدأ العالم في التهاوي رويدًا رويدًا حتى حل ظلام كامل».

ـ أيمكننا التوقف قليلًا؟

استأذنت من وصال فلم تمانع.. سألتني: «هل قلت شيئًا أزعجك؟».

قلت نافيًا: «لا».

ثم غدوت أفكر في كلمات ماجد، رغم كونه وغدًا ومخادعًا، لكن لكلماته أثر كبير في نفسي، لقد واجهني بالحقيقة.. حقيقة أننا لا نملك رفاهية توقف مشاعرنا تجاه أشخاص أحببناهم وتمنينا الحياة والعيش معهم حتى لو أصبحت فرصة لقائنا بهم مستحيلة، ربما علينا التجاوز، التأقلم، التناسي والاعتيادية. الصحيح أن نقوم بكل هذا، لكن إن لم يحدث فهذا لا يعني أننا مذنبين، لا يعني أننا سيئين، ربما قلوبنا وفية، أوفى من تصرفاتهم.

عدت من أفكاري لوصال التي كانت تبتسم وهي تتأملني: «يبدو أن إحداهن حطمت قلب طبيبي النفسي».

ضحكت وقلت لها: «هذه ليست المرة الأولى، لقد حطمته الحياة مئات المرات».

ضحكت وصال ثم قالت: «نحن متشابهان، أنت حطمتك الحياة، أما عني فلم تنتظر عائلتي حتى أخرج الدنيا وأتحطم، وتكفلوا هم بهذا الأمر».

واصلت وصال: «مرت الأيام والشهور، واقترب موعد حفل الزفاف المنتظر، لقد فشلت في إظهار حقيقة ماجد لعائلتي، مجرد التلميح لأمي كان كفيلًا أن يجعلني في نظرها حقودة وأنانية، لاحظت أمنية أنني أرفض كل مقابلة تجمعني بخطيبها وزوجها الذي لم يدخل عليها، لاحظت أنني لا أشاركها أي تجهيزات الزواج، لاحظت كل شيء، لكنها لم تستطع أن تواجهني بأي شيء.

سألتني مرارًا عن رأيي في ماجد، ولم تجد مني جوابًا واضحًا، فكرت كثيرًا في إخبارها بالحقيقة، في النهاية هي أختي الوحيدة التي رزقت بها، في النهاية الذنب ليس ذنبها والخطأ لا تسأل عنه، وحتى خداع وقذارة ماجد بريئة منه، حتى سوء معاملة أمي والتفريق بيننا لم تكن لها يد في الأمر، على العكس لطالما حاولت أن تلطف الأجواء بيننا. هي أختي التي حمت ودافعت عني كثيرًا، لا تستحق أن تخدع وتخذل من رجل مخادع ودنيء.

كانت هذه مشاعري، لكن سرعان ما تتغير وأرفض إخبارها بالأمر، صحيح هي أختي، لكن بالنسبة لها أنا الأقل منها دائمًا، هي من فازت بود أمي وثقة أبي والتفت العائلة حولها، هي من جنت كل الدعم والود والتحفيز، اختارت بإرادتها حياتها، هي صاحبة الكلمة العليا والرأي الصائب والاختيارات الموفقة، هي البطلة حتى إن لم تفز، والمسكينة حتى في أشد ظلمها وجفائها، هي من حاوطتها أمي من الحياة.

حسنًا يا أمي لندع فتاتك المدللة تتذوق طعم الخيانة والخذلان والخيبة، لندع فتاتك المدللة تكسرها وتحطمها الحياة، لنتركها الآن في الطاحونة تعصرها وتفتك بها، لنستمتع ببكائها وصراخها، ولعل ضربات قلبها وأنينه تذكرها بكل الليالي التي بكيتها وتشفي غليل قلبي.

أصبحت فكرة الانتقام سائدة ورائدة في روحي، لكن لا أريد أن ألطخ يدي بهذه العاهرة النجسة، لا أريد شبهة جنائية، لا أريد العودة إلى السجن».

توقفت فجأة وصال عن الحكي، ثم أخرجت هاتفها وشغّلت أحد مقاطع الفيديو، ثم قالت: «جميل أنني أوثق كل لحظاتي المهمة».

شاركتها مشاهدة الفيديو، كانت هي في إحدى عملياتها الإجرامية. استمر الفيديو لدقائق حتى خرجت للشارع واتجهت إلى السيارة.

- انظر ها أنت يا ياسين. بالطبع تعرف أنك شريك معي في الجريمة السابقة، لكن لا مانع أن أعيد تذكيرك.

لم أرد عليها، فعلمت أنني لا أبالي بتهديدها فواصلت: «حانت لحظة الحفل، كانت الأجواء جميلة تملؤها البهجة والود، الرقص والغناء والمباركات. ارتدت أمنية فستانًا في غاية الروعة، كانت جميلة أكثر مما توقعت وتخيلت وأجمل من أن تصدقها عينيّ، كانت كأنها شاردة، هاربة من الجنة، صورة ملائكية لإنسانة، كانت تبتسم وتضحك وتغني عوضًا عن كل التعب الذي رأته مع زوجها الأولى، أخيرًا وبعد سنوات طويلة من الحب لقد عوضها الله بالحب الذي انتظرته طويلًا».

ردت وكأنها تتحدث إلى نفسها بهدوءٍ وسكينة: «كنت أشعر بسعادتها، كنت أراها وكأنها تعانق الكون وتجلس بين نجوم السماء ملكة متوجة بالسعادة، هذا ما يفعله الحب بنا يا ياسين، يجعلنا نلامس السماء ولا نرى في الكون إلا هو».

تغيرت ملامحها قليلًا، صارت أكثر خشونة وحدة، ثم استطردت: «كان لهذا التتويج أن يتوقف، كان لهذا الحفل أن يتحول لمراسم دفن، كان لا بُدّ أن يتحول الأبيض المُبهج لأسود

حزين وكئيب أو أبيض داكن كالكفن، هذا كان يليق بها، يكفيها كل لحظات السعادة التي عاشتها على حساب مشاعري، يكفيها كل الحب الذي عاشت وتمتعت به، كان لا بُدّ أن يموت أحدنا ليعيش الآخر، وللمرة الأولى كنت أنا صاحبة القرار.

ولم أتردد في قرار بمبلغ بسيط قدمته للطاهية، فوضعت مادة فعالة في طبق أمنية، مادة سامة كفيلة أن تنهي حياتها في الحال، وكما أردت تمامًا مع القطمة الأولى وبعد دقائق صرخت أمنية صرخة مدوية اختلعت بها القلوب. صرخت أمي من هول المشهد والسم يعصر معدة أمنية التي تحول لونها على الفور للأصفر الداكن، الهرج والمرج ولا أحد يفهم ما حدث، وأنا أقف هناك في الزاوية بعيدًا عن الضيوف، أتابع سقوطها والتفاف الناس حولها، وماجد وهو يستنجد بالناس، حتى في لحظاتك الأخيرة يلتفت الناس حولك يا أمنية! صرخاتها كانت لحني المفضل، كلما صرخت استمتعت أنا بألمها وتذكرت كل الآلام التي سلختني في صمت. جاءت سيارة الإسعاف؛ صوتها المزعج الطارئ كان بالنسبة لي أغنية جميلة وجدتني أتمايل وأتراقص عليها.

كنت في غاية السعادة والحزن يا ياسين.

وصلنا للمستشفى، وقفت وراء الزجاج العازل بين المريض وزواره.

أمي تبكي بحرارة، للمرة الأولى رأيتها تبكي بهذه القسوة، لم أقترب منها، ظللت أراها تتألم وأنا أبتسم من بعيد، لولا الخوف من ملاحظة ابتعادي عنها لما اقتربت منها أبدًا، لم أعانقها لكنني اقتربت منها، أنظر لها وأنظر لأمنية وهي تصارع الموت، وماجد المسكين يكاد يجن جنونه من التوتر والقلق.

انتهى الأمر.

ثم بدأت التحقيقات في أسباب الوفاة بعدما اكتشف الطب الشرعي أن أسباب الوفاة سم قاتل في المعدة قد وضع عبر الطعام. في هذه الأثناء أشيرت كل التهم ناحية زوجها دكتور ماجد، بدأت التحقيقات معه، لكن لم تثبت التحقيقات أي إدانة عليه. كنت أسبقهم بخطوة، فجلست مع مساعدة الشيف التي ساعدتني في وضع هذا السم، وبدأت التفاوض معها، لم يتعدَ الأمر عشر دقائق حتى أقنعتها بأن التهم ستندرج تحت بند الإهمال وأن أقصى عقاب قد تحصل عليه هو عشر سنوات، مع عهد مني على تأمين مستقبل أولادها. الفقر يجعلك توافق على قرارت مصيرية لا تتخيلها، لذلك لم تفكر كثيرًا ووافقت على الفور، وبالفعل جرت الأمر كما أردنا، لكن كان لديها طلب آخر لم تطلبه، وعدتها بتنفيذه حين يشاء القدر.

ربما كنت تتوقع أن تبدأ حياتي من جديد بعد وفاة أمنية، لكن الأمر ليس كذلك، لقد حدث ما لم أتوقعه، اجتاحتني رغبة في العزلة، الجلوس في غرفتي طوال اليوم، لا أطيق التحدث مع أحد، لا أتحمل أصوات الناس، همساتهم ونظراتهم وكلماتهم، لا أقوى على النهوض من على سريري، لا أقوى على التحرك حتى بأبسط المهام، رغبة غريبة في الاختفاء عن الناس، التواري عن الأنظار. أتمنى لو أن كل ما حدث لي كان كابوسًا، أتمنى لو أستيقظ على حياة جديدة وهادئة ومستقرة، أتمنى لو كان بإمكاني تغيير كل الأحداث، الكئيبة والحزينة التي حطمت قلبي، أتمنى لو أستيقظ بقلب سليم، روح لم تنتهك، ونفس لا زالت ترغب في الحياة، أتمنى لو أستيقظ على أي شخص إلا أنا!

قضيت فترة في المستشفى النفسية، صدقًا لا أعرف ولا أتذكر لأي سبب كنت هناك، ما أعرفه أنني كنت على وشك الجنون، أنا الفتاة السيئة الجميلة، صاحبة الحظ السيئ في الدنيا، هادئة وساكنة وتستقبل كل الصدمات في صمتٍ وهدوءٍ تام، تعفو، وتغفر وتسامح، وتتنازل سريعًا عن أبسط حقوقها، حتى تظن أنها ضعيفة وانهزامية، لكنها حين تقرر الانتقام، يجلس إبليس ليتعلم منها كيف تنتقم وتؤذي الناس. تستطيع أكل العالم، كل العالم بنيران غضبها، لن يقف أحد أمامها مهما كان. أنا الفتاة السيئة الجميلة، التي لم تعطِ الحياة فرصة لاختيار أي شيء، لكنها عاقبتها على كل شيء، حيث كل الأشياء التي لم تختَرها من الأساس، أنا التي تأقلمت على أوضاع لا تناسبني، وتعايشت معها، ومع ذلك لم تقبلني ورفضتني، فمضيت حياتي لاجئة في وطني، منبوذة في كل الأوطان، أنا الفتاة السيئة الجميلة.

أنا الفتاة السيئة الجميلة، لم يختَرها أحد فاختارت ألا تكون إلا لنفسها، فدللتها وأحببتها ثم جلدتها وشوهتها وجعلتها في غاية السوء، أنا من سُلب منها حق الاختيار فتأقلمت حتى اعتدت، ثم أفسدت حتى أصبحت لا تصلح للحياة الاجتماعية، فقضت أيامها وحيدة ومنكسرة، يمزقها الحزن ويقتلها، وابتلعتها الوحشية فامتلأت الشحوب والتجاعيد ملامحها، فأصبحت عجوزًا في الستين بينما جسدي لا يزال شاردًا في العشرين».

قطع صوت الهاتف حديث وصال عن نفسها، اعتذرت لها ورددت على الاتصال: «ألو».

- ياسين، اشتقت لك، أريد رؤيتك والتحدث معك.

ـ عليا! اشتقت لكِ كثيرًا.

ـ أين أنت؟

رددت وأنا أتلعثم: «سأعاود الاتصال بكِ لاحقًا يا عليا.. وداعًا».

قطعت على وصال فرصة السخرية وسألتها عما حدث فيما بعد، فواصلت وهي تضحك: «صدقًا لا أتذكر ما حدث في فترتي الطويلة في المستشفى، لكن ما أتذكره أنني كنت أعاني الأمرين، بين شعوري بالندم والحزن عما قمت به، وبين صنع كل المبررات والأسباب التي جعلتني بهذا السوء، قد أكون سيئة، لكن ظروفي كانت أسوأ، قد أكون مُتهمة، لكن ظروفي أكثر إدانة مني، قد أكون عدوانية، لكن ظروفي لم تكن رحيمة بي، قد أكون قبيحة، لكن ظروفي كانت أشد قبحًا، قد أكون قاتلة لكن ظروفي كانت فتاكة بي.

مضيت فترة أشعر بهذا الاضطراب حتى فوجئت بالممَرضة تخبرني بأن أحدهم يريد زيارتي.

شخص ما يريد رؤيتي؟

هل تذكرت أمي أخيرًا ابنتها؟ هل شعرت أمي أخيرًا بالندم والشفقة على كل ما قامت به وجاءت لتعتذر؟

خرجت وقلبي يخفق من السعادة والقلق، حتى صدمُت حين رأيت الضيف.

ـ دكتور ماجد! ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ابتسم وقال: «أهذا ترحيب الضيف؟».

كررت سؤالي، فأجاب: «جئت لأعرض عليكِ صفقة».

نظرت له في استغراب فواصل: «الخروج من هنا».

بلهفة قلت: «نعم نعم».

ابتسم وقال: «ستعودين إلى العمل معي، لكن بطريقة مختلفة».

لم أفكر كثيرًا ووافقت على الفور في سبيل الخروج من المستشفى، لكنني لم أكرر أخطائي القديمة، فاشترطت أن نتزوج قبل تنفيذ أي عملية؛ وافق ماجد، لكن زواجًا عرفيًا وبدأنا في العمل. كان العمل مختلفًا، أصبحنا نختار نحن ضحايانا بعناية، ونتولى أمرهم، أصبحت قاتلة مأجورة، أدير الكازينو، وأنفذ العمليات السرية لماجد. لم أشعر بالندم أو الذنب عما حدث، لم أشعر إلا بلذة أنني أخيرًا اخترت ما أردته.

رغم كل هذه الوحشية لكنني لم أصوب رصاصة واحدة تجاه الضحية، لقد استخدمت طريقة القتل التي تسمح لنا بالعمل سريعًا على الجثة، الموت بالاختناق، كانت هذه الطريقة المناسبة، فالجثة تتعفن ببطء كلما كانت طريقة القتل أهون».

- وهل كل جريمة قتل سرقت بعدها الجثة؟.

ردت: «بالطبع لا، بعض العمليات كانت لتسهيل بعض المصالح لدكتور ماجد».

سألتها بخبث: «كل عملياتك كانت في مصر، أليس كذلك؟».

قالت وهي تضحك: «إلا عملية واحدة».

تلهفت في السؤال: «في أوروبا؟».

أدارت محرك السيارة وقالت: «نكتفي بهذا القدر».

قلت لها في غضب: «لا، لن نكتفي».

نظرت إليّ في استغراب، شعرت أنني فقدت أعصابي، وربما تشك في أمري، فاستعدت نفسي وقلت: «حسنًا يا وصال كما تريدين، على أي حال لن نلتقي إلا بعد أسبوع.. أنا مُتعب وأحتاج للراحة».

اتجهنا بسيارتها للمنزل، وخلال الطريق لم ننطق كلمة واحدة. ما إن وقفنا أمام المنزل حتى رأيت عليا تنتظرني أمام المدخل.

ودعت وصال وخرجت من السيارة متجاهلًا عليا، التي وقفت أمامي وقالت في هدوءٍ تام: «أظن أنني وضعت آمالًا كبيرة على شخص لا يستحقها».

وقفت وصال تتابع الموقف الذي لم أسمح له أن يطيل أكثر من اللازم: «أنا مُتعب، يمكننا التحدث غدًا».

صعدت إلى الشقة وجلست على سريري حتى غلبني النوم، وقبل أن أغدو في منامي أرسلت لديفيد رسالة: «الوقت لم يكن كافيًا.. لقد فشلت المهمة».

ثم غدوت في ثبات عميق.



14

نابولي

ترقب وشحن وتهديدات، توعدات للحكومة بالقبض على الحركة السرية التي أثارت كل هذه البلبلة، وملاحقة الثوار المنضمين لهم من الشعب، المافيا نجحت في نصب الفخ لديفيد، وها هو قاب قوسين أو أدنى من الاغتيال، الصحافة تترقب وتنتظر رد الفعل، والشعب يعلن دعمه للحركة السرية، أجواء مرتقبة وملتهبة لكن في البيت الكبير هنا في قصر ديفيد شاهين، أصر الرئيس على إقامة الحفلات المسائية بشكل يومي حتى يخفف الضغط على الأولاد. كل شيء متاح الآن الرقص والاحتفال والترفيه، ففي أي لحظة قد يبدأ تنفيذ الخطة المتفق عليها، ومن هذه اللحظة قد لا يلتقوا مرة أخرى. المشهد رغم بهجته إلا أن ثمة لحظات وداع تكمن في الكلمات البسيطة. في صالة الاحتفالات قد يكون لقاؤهم الأخير ورقصتهم الأخيرة، سيتفرقون ربما للأبد، سواء بالموت أو الهروب أو السجن، الأولاد الذين قضوا فترة طويلة معًا، واجهوا الخطر، واستقبلوا الموت، قضوا لحظات صعبة وعاشوا لحظات المجد والانتصار، ها هم يستعدون للوداع الأخير.

«ربما نلتقي مرة أخرى.. ربما».

في مكتبه كان يجلس ديفيد شاهين يفكر في قراره، الأقوياء وحدهم يستطيعون اتخاذ القرارات المصيرية في الأوقات الصعبة، وديفيد اعتاد على مثل هذه الظروف، لقد فات الوقت ليعيش حياةً سوية، الحياة التي أرادها في شبابه، وتحولت حياته لحرب أُرغم عليها، وحين ترغمك الحياة على طريقٍ قاسٍ لا بُدَّ أن تكون أكثر قوة وقسوة لتتجاوزها وتعبرها حتى تصل لبر الأمان. ربما تكمن المشكلة أن بر الأمان في حياة ديفيد يعني مزيدًا من المخاطر والتهديدات لحياته ولحياة عائلته الجديدة، الآن أصبح خائنًا للمافيا وسيفضح أمرهم، سيكون خليفة خائن المافيا الأشهر «بوشايتا». لقد مل حياة المطاردات مع الحكومة، ومل عقد الصفقات المشبوهة معهم، ولم يعد يتحمل الكره والسخط من الشعب، وكل قطرة دم من الأبرياء أصبحت تطارده في منامه، والهروب أصبح قرارًا حتميًا. سيغادر إيطاليا بذكرياتها وتفاصيلها ومهد شبابه، سيغادر فتاته المدللة الجميلة التي نشأ وتربى بها، الذي ينتمي لها ولشعبها وتفاصيلها وعاداتها، سيغادر من إيطاليا الشعبية العشوائية الفاتنة، إلى جنوب إفريقيا، سيدير العالم من أقصى الجنوب، هذه وجهته القادمة في الهروب.

«سنتجاوز هذا السد ونعبر ونواصل ونبدأ من جديد».

قالها للعجوز ماري التي وفي نفسها ودعت الحياة في إيطاليا، اليقين التام أنها لن تعود إلى هنا مرة أخرى. للمرة الأولى تختلف مع ديفيد في قراره، وتعلن رفضها لهذا القرار، لكن حتى رفضها لن يغير من مسار السفينة التي رفعت شعار الإبحار. تعلم أن بإمكانها أن تتنحى وتترك الأمر، تتخلى عن ديفيد وتعيش ما تبقى من حياتها في هدوءٍ تام، لكنها تعلم أن قلبها لن يطاوعها، لقد تربى

ديفيد بين يديها، عرفته وهو مراهق، وعلمته كيف يسير حياته وهو شاب، شهدت على انكساره من لورين، وكانت أول من تواسي حين اغتصبت وقتلت زوجته وسرق ابنه، لا يمكنها التخلي عن ديفيد فهو ابنها الذي لم تنجبه، طفلها ومدللها المشاغب العدواني الذي كان من الأساس طفلًا هادئًا ومسالمًا، تجلس أمامه وتتعمق في ملامحه، كيف تغير هذا الصبي الجميل؟ وكيف أصبح بهذا الجفاء وهذه الحدة؟ كلها أسئلة تتكفل الدنيا بالإجابة عنها..

تنهدت ماري وردت على ديفيد: «سنبدأ نضالًا جديدًا وننجح كالمعتاد.. أنت لا تعرف الفشل».

في الوقت نفسه، مروان لم يحتفل مع الأولاد، بل ظل في معسكره المغلق مع رجاله، لقد تغير الضابط العربيد الطائش، لقد نجح ديفيد في تغيير شخصيته، استطاع أن يزيل الغبار عن شخصيته القوية المسؤولة، بعدما قضى فترات طويلة في العربدة والسخرية والإهمال. من كان يظن أن هذا قابل للتغيير من الأساس؟ لقد نجح ديفيد في هذا، وجعله رجلًا سويًا وصلبًا يجهز رجاله في انتظار إشارة واحدة من ديفيد لتبدأ المعركة، وما أكثر المعارك في حياة الضابط المفصول، ربما مأساته كانت تكمن في الفشل الذريع الذي يلازمه في كل معركة؛ لقد خسر عمله وخسر حبيبته وخانه صديقه الوحيد، حتى في الزواج العرفي لقد قُتلت ابنته ولم يستطع رد الاعتبار. هذه المرة مروان لا يملك رفاهية الفشل، لكن معركة مروان مختلفة، هو يقاوم انهزاميته واستسلامه ويقاوم أفكاره، فبعدما كان هو من يفرض الأمن ويلقي القبض على من يكسر القانون، أصبح هو من يخالف ويكسر القانون، أصبح قاتلًا ومجرمًا، لكنه وجد الاحترام

الذي افتقده طويلًا، وجد كيانه وديفيد استطاع أن يلمع شخصيته النرجسية ويغذيها بالمشاورة والمسؤولية. كالمعتاد وقبل أي عملية، جلس يلمع سلاحه الخاص وهو يتذكر كل الأشياء التي حدثت معه: «كان بالإمكان أن تكون حياتي أفضل مما أنا عليه الآن، لكن المجتمع أراد عكس ذلك».

في اليونان وبعدما أنهت دليدا بيع كل ممتلكاتها لتالا، جلست تستعد للعرس، العروس التي ينتظرها عريسها في مصر، بعد الليالي الظالمة يأتي الفجر بإشراقته الهادئة الجميلة، ولقد عاشت دليدا ليالٍ في غاية الظلمة والكآبة، تأرجحت بين الكآبة والحزن والخذلان، واستنفدت من الاستغلال والابتزاز والتهديدات والفضيحة، حتى قرار الانضمام لعائلة ديفالو كان رغمًا عنها، كان من أجل ياسين، الرجل الذي تعرف أنه لا يحبها ولا يتمناها أو ينتظرها، لكنها تراهن على ما ستقدمه، تراهن على دفئها وحنانها، تراهن أنها ستتسيد قلبه وتمحي كل آثار الحزن والفقد في روحه، ستعالجه، هي تثق في ذلك، الحب أعمى ورغم قسوة أن تحب شخص لا يحبك، لكن هو الإصرار على التضحية، وإعطاء كل ما تملك من أجل أن يبادلها هذا الحب.

«سأفعل كل شيء لنعيش حياة هادئة».

في صباح اليوم التالي وكما توقع الجميع استيقظ كل الأولاد على اجتماع طارئ.. دون مقدمات بدأ ديفيد شاهين في وضع الخطوط النهائية للخطة: «حسنًا يا أولاد لقد غادرت تالا بالفعل إلى اليونان، ودليدا الآن في طريقها إلى مصر، أوليفيا ستعلن عن البيان بعد تخطي الحدود الدولية، ستغادر إلى يمنى في برلين،

مروان وماري وسراج سترافقوني إلى وجهتي القادمة، عدونا الآن هي المافيا، علينا أن نتكاتف أكثر، سيكون التواصل بيننا عبر وسائل التواصل الاجتماعي، حاولوا الاختفاء قدر المستطاع في الثلاثة أشهر الأولى، تجنبوا التعامل مع الناس، كلما ابتعدتم عن العلاقات كلما كنتم في مأمن أكثر. احترسوا من الجميع ولا تثقوا في أي شخص».

وبصوت هادئ يغلب عليه الحزن واصل: «كنت أتمنى ألا يحدث كل هذا، لقد بنينا عائلة رائعة، وأنتم أشخاص رائعون، لقد أحسنت اختياري لكم، وكنتم على قدر المسؤولية، أنا فخور بكم، عسى أن نلتقي مرة أخرى يا أولاد».

صمت الأولاد وسادت حالة عاطفية بينهم، انتهت بعدما أمرهم ديفيد بالتحرك.

- بدأت الحملات الترويجية للإعلان عن البيان الجديد لعائلة ديڤالو، هذه المرة وعلى غير العادة قرر ديفيد شاهين تسجيل البيان بصوته، دون أن يعرف أحد منهم كلمات الخطاب ومحتواه.

- دقائق ويبدأ التفاعل من الجماهير على مواقع التواصل الاجتماعي، الطليان والعالم ينتظرون بشغف البيان الجديد، وسيل من التوقعات والتكهنات حول الضحية الجديدة.

◆ عاد ديفيد لمكتبه، ثم استعد للبيان، دقائق تفصله عن حياته القديمة لحياة جديدة ستكون أشد قسوة، سيتحول من رجل المافيا القوي المعروف، لرجل المافيا المنقلب عليهم الخائن، وبعدما كان أعداؤه يعدون على أصابع اليد الواحدة، سيتحد رجال المافيا بأعوانهم ضده ويصبح اغتياله مسألة حياة أو موت، قد يدفع لمن يقوم بهذه العملية ملايين الدولارات.

جلس على كرسيه ثم قال: «أعزائي شعب نابولي وأهل الجنوب والشمال، أعزائي الشعب الإيطالي، هذا ليس وقتًا مناسبًا للتعارف، لكن دعوني أقول لكم إنني أحد رجال المافيا، شاركت معهم في أغلب العمليات، وشاهدت ووقّعت معهم على أغلب الاتفاقيات المشبوهة سواء مع الحكومة المحلية أو الغربية، وحتى أصدقاءهم من المافيا في البلدان الأخرى، هذا ليس وقتًا مناسبًا لتبرئة نفسي أيضًا، لكنه وقت مناسب لأقول لكم إنني انتظرت هذه اللحظة طويلًا حتى أفضح هؤلاء بهويتهم وأدق تفاصيلهم، تعاملاتهم القذرة، ما يدور وما يحدث في اجتماعاتهم ونواياهم الخبيثة تجاه المجتمع، وكم الأضرار التي أصابت بلدتنا بأفعالهم الجسيمة. فكرت كثيرًا في تقديم كل الإدانات والمستندات لرجال القانون، لكن كلما اتخذت هذه الخطوة تراجعت لمعرفتي بمدى قذارة بعض السياسيين، ومدى ولائهم للمصالح المشتركة بينهم، لذلك من حق الشعب أن يعرف حقيقة هؤلاء، ويعلنون عن بدء محاكمة شعبية تليق بهؤلاء الذين قررت التخلي والانقلاب عليهم، وقريبًا ستصدر سلسلة اعترافات مسجلة تثبت كل شيء».

انتهى ديفيد من تسجيل البيان، أعطى الأسطوانة إلى أوليفيا واستعد الجميع للرحيل.

الوداع الأخير.

والشارع الإيطالي قد أعلن ثورته على الحكومة والمافيا، ثمة غضب يكمن في نفوس الشعوب الضعيفة لا يحتاجون لإثباتات مادية حتى ينفجر. اتجه كل من الأولاد إلى وجهته، خرج الأولاد تباعًا، خرجت ماري مع مروان وسراج لتجهيز السيارة التي ستصحبهم

للمطار، بينما جلس ديفيد أمام صورة ابنه جوفاني يتأملها، يتخيل لو كان معه في هذه اللحظة. البكاء الصامت، فهو يعلم أنه لن يراه مرة أخرى، زوجته التي اغتصبت وقتلت أمام عينيه، شعوره بالعجز والضعف، وأنه كان أضعف من رد الاعتبار، لقد حاول لكنه في النهاية فشل وخسر كل شيء، مهما حاولت ماري التهوين من هذه الخيبات والهزائم تبقى الهزيمة مريرة وقاسية. الآن هي معركة اللاعودة، اللانجاة، هي معركة استعادة النفس.

خرج ديفيد بخطوات ثقيلة ليلحق بماري ومروان وسراج، يودع أركان القصر، ذكرياته وتفاصيله، شعاع الشمس المرسوم على وجهه يظهر كل تجاعيده، وفي القلب تجاعيد أكثر وأكثر. خرج من الباب الأول حتى صعق حين رآها.

لورين بجمالها الاستثنائي الفريد، تقف وهي ترتعش وتتلعثم: «جورج ينوي الانتقام من الجميع يا ديفيد».

ابتسم الرئيس بوقار، من لهفتها تنسى بعض الأشياء، وهذه المرة لم تلحَظ حقيبة اليد، والقصر الخالي تمامًا من العمال: «سأغادر للأبد يا لورين».

نظرت للحقيبة وقالت في هدوء: «انتهت المعركة إذن؟».

اقترب منها حتى بدأ يسمع ضربات قلبها من على بعد خطوات: «لم تبدأ المعركة بعد يا لوري».

وهي على وشك البكاء: «وجوفاني؟».

- طفل محظوظ، لقد اختار أمه المثالية، لقد اختارك. لم أعد مدينًا له بالاعتذار بعد الآن، يا له من سعيد الحظ، لقد حقق ما لم أستطع تحقيقه، لقد اختار الحياة معكِ».

ردت في هدوء: «ألن نلتقي مرة أخرى؟».

ابتسم ابتسامته الأخيرة لها وقال: «لطالما كانت روما وجهتك المفضلة، ومن ضمن أحلامك الحياة هناك، كنت تقولين حتى ونحن في نابولي إن كل الطرق تؤدي إلى روما، لقد كذبتِ وصدقت أنا، فلقد قلت لكِ مرارًا ما دمنا لسنا معًا فكل الطرق تؤدي إلى التعب، كل الطرق تؤدي إلى الحزن، كل الطرق تؤدي إلى الحسرة، كل الطرق تؤدي إلى الفقدان والندم، كل الطرق تؤدي إلى الحرب. ما دمنا لسنا معًا فكل الطرق لا تؤدي إلى روما يا لوري».

اقتربت لوري، كادت أن تعانقه، لكن تحرك ديفيد وخرج من القصر، العناق الذي انتظره طويلًا الآن لم يعد قيمة له، فابتعد عنها ورحل، وداع بارد لا يليق بكم الأحداث التي جرت بينهما، لكنها الدنيا. أسدل الستار وبدأ الجميع في التوجه إلى وجهته منتظرًا ميعاد الطائرة، وإيطاليا على أتم استعداد للبيان الجديد.

الفصل الأخير

في القاهرة الأمور كانت باردة، ياسين الوحيد الذي لا يفكر فيما ينتظر الأولاد، لقد قرر في روحه أن ينهي علاقته بهم وتصبح العلاقة عملية، فلم يعد يحمل أي مشاعر لأي شخص منهم، ربما دليدا وحدها كانت الاستثناء من هذا القرار، لكن حتى الأمر كان أبسط عنده من أن يتزوجها، لكن للمال سلطة وأحكام، وللعشرة وللود حسابات أخرى، بأي حال من الأحوال ليست من المروءة أن يتخلى عنها، وبالنسبة للفقراء هذه التفاصيل لا يمكن التنازل عنها.

أعد شنطته واستعد ليتجه للمطار منتظرًا عروسته القادمة من اليونان، جمع ملابسه وأوراقه وبدأ في تنظيف الشقة، وفجأة وأسفل الكرسي وجد حقيبة جلدية صغيرة، بدأ باكتشاف محتوياتها، بعض الأوراق الطبية مكتوبة بخط الأطباء الذي لا يفهمه إلا زملاؤهم الأطباء، فتجاهل المكتوب، لكنه لاحظ أن الأوراق باسم أحد الأطباء النفسيين. تجاهل أيضًا أن اسم الطبيب مشطوب بالقلم الجاف، تغاضى عنها، حتى وجد البطاقة الشخصية لوصال، في البداية لم يهتم، فلم يكن فضوليًا لمعرفة المزيد عنها، لكنه صدم حين قرأ الاسم..

صورتها، تاريخ ميلادها، عنوانها، وأمنية!

ـ غريبة هل تشبهها أختها لهذا الحد؟!

جلس يتمعن في البطاقة، شيء ما راود قلبه، شيء ما بدأ يعبث بعقله، وسيل أسئلة انتفض فجأة في رأسه، شعر بالصدمة والخداع.

فكر لثوانٍ، ثم نظر لساعة الحائط، متبقي ثلاث ساعات على طائرة دليدا، واصل التفكير حتى قرر الخروج، معرفة الحقيقة في هذه الأوقات تستحق العناء، محاولًا تذكر الطريق انطلق بسيارته ناحية منزل أمها، بسرعة جنونية وصل إلى هناك، صعد على الفور وظل يطرق الباب؛ لم تستجب العجوز، اللعنة على العجائز! هل انتهى الأمر؟ لا لم ينته يا ياسين، لا بُدَّ أن تعرف الحقيقة، عنوان الطبيب المكتوب على ورقة الاستشارة، على الفور تجاهه. اعتذرت موظفة الاستقبال قبول حالات جديدة.

ـ أنا لست حالة، أريد التحدث مع الدكتور.

اعتذرت موظفة الاستقبال مرة أخرى، غير أن ميعاد الجلسات تبدأ بعد ساعة.

هنا ثار غضب ياسين، لقد توقع هذا فأخرج مسدسه من جيبه، ثم صوبه نحوها صارخًا: «تعالي معي إلى مكتب الدكتور».

صرخت الموظفة الذي أمسك بها من شعرها ناحية المكتب، فتح الباب وبدأت حالة الهياج.

ـ لا تقلق يا دكتور، لست هنا لأؤذيك، أريد التحدث معك وقد منعتني عن هذا.

بهدوءٍ تام قال الدكتور: «حسنًا، أخفض سلاحك واتركها وأعدك سأستمع لك».

بعد ثوانٍ من التفكير أخفض سلاحه وأطلق سراح الموظفة، عاد الدكتور لكرسيه ثم قال للموظفة: «قدمي الليمون للأستاذ».

تنهد ياسين ثم قال: «أعتذر لك عن هذه الطريقة، لقد أرغمتني على هذا، وأنا أحتاج للتحدث معك ومعرفة الحقيقة في مسألة تتعلق بالحياة أو الموت».

ابتسم الدكتور بهدوءٍ تام ثم قال: «أهلًا بك في أي وقت.. بسيد؟».

ـ ياسين.. بشمهندس ياسين.

ـ أهلًا بك يا بشمهندس.

ـ أنا دكتور ماجد.. ماجد المنفلوطي.

صمت ياسين مستوعبًا اسم الطبيب، لكن حتى الوقت لن يسمح سوى بمعرفة الحقيقة.

أخرج ياسين البطاقة الشخصية لأمنية ثم أعطاها لماجد وهو يقول:

من تكون هذه؟

وهو ينظر للبطاقة الشخصية ثم سأله: «ألا ترى أن إفصاح أسرار المرضى يعتبر جريمة في العرف الطبي يا بشمهندس؟».

وضع ياسين مسدسه على المكتب، وقال بنبرة يغلب عليها التهديد: «لكنها ليست أشد جرمًا من قتلك، أريد معرفة الحقيقة».

تنهد الطبيب وقال: «لا يمكنني سرد كل تفاصيل حياتها. يمكنك طرح الأسئلة وسأجيب عنها».

كان حلًا مثاليًا بالنسبة لياسين الذي لم يتردد كثيرًا وسأله: «وصال وأمنية ما علاقتهما ببعضهما البعض؟».

ـ أختان، وصال الأكبر بثلاث سنوات.

ـ هل لهما أخ مات في رحم أمهما؟

- نعم.

واصل سألته:

- وهل كان هذا الموت سببًا في تمييز الأم بين وصال وأمنية؟

تنهد الطبيب الذي شعر بالملل من هذه الأسئلة فقال: «دعني أختصر الأمر لك، لقد عانت أمهما من اضطراب نفسي بعد وفاة جنينها، فلقد انتظرت هذا الولد بفارغ الصبر، الأمر الذي جعلها تتمنى قتل توأمه «أمنية» فداءً لجنينها. لم تستطع الأم العدل بين الأختين، وفضّلت الأخت الأكبر سنًا عن أمنية. هذا أثر كثيرًا في تكوين شخصية أمنية، حتى أصيبت في شبابها بأعراض اضطراب الانفجاري المتقطع، يعني أنها أصبحت أشد قسوة وحدة في أبسط تصرفاتها، إيذاء الآخرين، وإن لم يحدث فتحاول إيذاء نفسها بأشد وأعنف الطرق، كانت تصب غضبها في كل شيء حولها، المؤسف أن ورغم معاناتها من هذه الأضرار إلا أنها كانت متفوقة في دراستها، ويشهد الجميع لها بحسن السير والسلوك. في الوقت نفسه ترى التقليل من شأنها، التهوين والاستخفاف بكل ما تقوم به، حتى في التجمعات العائلة كانت أمنية هي المادة الخام للسخرية والاستهزاء، وهذا يعود لأمها التي تعمدت التقليل منها أمام الجميع. مرت السنون وارتفع معدل تقبل أمنية للاضطرابات النفسية، حتى تزوجت وصال وهاجرت لأمريكا، عندها تغير سلوك أمنية، أصبحت ترتدي ملابس وصال القديمة، تتحدث بطريقتها، تنام في غرفتها، وتقوم بنفس الأفعال التي تقوم بها؛ أملًا في كسب ود أمها بهذه الطريقة، لكن تحطمت آمالها سريعًا بعدما اتهمتها أمها بضعف الشخصية، وأنها مجرد نسخة مزيفة من وصال.

مع تطور الأمر واصلت أمنية تقليد وصال في كل شيء عدا أخلاقها، فقد بدأت تنحرف في تصرفاتها، هنا بدأت متابعتي لها، وشاهدت مسار الانحراف القاسي، لكنني لم أستطع منعها أو إجبارها على التوقف، سرقتني مشاغل الحياة فترة حتى علمت بالنبأ الذي غير مجرى حياتها.

فوجئت أمنية بتواصل زوج أختها معها، بمعنى أوضح اقترب منها أولًا بغرض سد احتياجها الأبوي كونه في مقام أخيها الأكبر، وثانيًا لسد الفراغ الواضح في الأسرة، كانت طريقته شريفة، لكن نيته كان دنيئة. اتفق مع أمنية أن يبقى الأمر بينهما سرًا حتى لا تحدث فجوة جديدة، كان يأتي إلى مصر خصيصًا للقاء أمنية، ثم يعود إلى أختها في أمريكا. تطور الأمر والعلاقة السرية بينهما حتى أدمنت الهيروين، وأصبحت تحمل ابنًا غير شرعيٍّ من زوج أختها. هنا رفض الرجل الاعتراف بابنه، وحسبما تقول أمنية اتفق الرجل مع أمهما على اتهامها بالجنون والتشكيك في سلامة قواها العقلية، وبالطبع قدما رشوة للطب الشرعي الذي نفى علاقة زوج وصال بجنين أمنية.

أصيبت أمنية بصدمة نفسية أودعتها في مصحة نفسية، وهناك كنت أشرف عليها بشكل مباشر. لقد أصيبت بأعلى درجات الانفصام الحاد، في الصباح هي أمنية الهادئة المسالمة، ومع حلول الظلام تتحول لوصال الساقطة فتاة الليل، لقد أصبحت مسخًا، حالة ميؤوس منها، وبالتالي سمحت لها بالخروج.. وهذا كل ما أعرفه عنها».

- وأين أمها الآن؟

أجاب: «اختفت في ظروف غامضة، تم التحقيق مع أمنية، لكن النيابة لم تثبت أي شيء».

كدت أقع بلساني وأخبره أنني أعرف عنوانها، لكن حتى هو لا يعرف طبيعة عمل أمنية، لا يعرف أكثر مما أخبرني به، ولو كان يكذب فأنا أريد أن ينتهي هذا الكابوس.

ـ شكرًا لك يا دكتور.

خرجت من العيادة واتجهت للمنزل، وهناك فوجئت بورقة على عتبة الباب: «لقد كنت تجلس مع القاتل، ويبدو أنه نجح في تضليلك».

اللعنة!

لن أخوض هذه اللعبة، ولن أضيع أيامي في قضية لا تخصني من الأساس. مزقت الورقة ثم دخلت إلى الحمام لأستعد لحفل الزفاف.

أمام مرآته وقف يتأمل ملامحه، عريس الليلة يرتدي بذلته الرمادية التي تمنى أن يرتديها لرقية.

غريبة الدنيا، كيف نرسم ونتخّيل ونحلم بتفاصيل حفل زفافنا من شخص نحبه ثم تفاجئنا الحياة بنفس تفاصيل الحفل لكن مع شخص آخر؟

لو كان المرء يستطيع تحقيق أمنياته وأحلامه لانتهت كل مآسي البشر في الحب، لما عرف البشر الحزن والفقدان ومرارة الاشتياق والحنين، لكن ليست كل الأحلام قابلة للتحقيق، وللقدر حسابات أخرى في تحقيق الأمنيات.

تنهد ياسين وانطلق لساحة المطار، في الطريق راودته كل الأحداث التي مرت على حياته منذ عودته لمصر، عليا ومصيرها المجهول، مواصلة انتقامها من كل الرجال بأعنف الطرق، وإصرارها على الانتقام لتشفي نيران قلبها، ورغم قسوتها ودمويتها، لكن

طفلتها هي نقطة ضعفها، ربما لا تخشى في حياتها إلا طفلتها، حتى أعتق السفاحين يملكون نقاط ضعف يتجنبون مواجهتها، في النهاية عليا أمام القانون هي مُجرمة، سفاحة تستحق الإعدام، كذلك الأمر بالنسبة لأمنية المخادعة الكاذبة، التي وانتقامًا من عائلتها قررت أن تنتقم من العالم ومن نفسها.

يُسأل ويعاقب المرء على تصرفاته، لكن ألا ينبغي أن يسأل ويعاقب المجتمع على التنمر، السخرية، والعنصرية؟ يسأل ويعاقب المرء على تصرفاته؟ لكن ألا ينبغي أن يسأل المجتمع عن الأحلام التي تحطمت، والأهداف التي لم تتحقق، وعن انتشار الرشوة والمحسوبية، وجرة قلم مرتشي من شخص يملك سلطة ونفوذ ليحطم مصير شخص أو عائلة بأكملها؟ يسأل المرء عن تصرفاته، لكن ألا ينبغي أن يسأل بعض رجال الدين المتعصبين أيضًا عن انتشار الجماعات الإرهابية؟ ألا ينبغي أن يُسأل رجال الدين عن كل ظواهر التعب والتشدد والتكفير وإحلال دماء مُخالفي الرأي؟ يُسأل المرء عن تصرفاته لكن الأهل لا يُسألون عن إهمالهم لأطفالهم، لا يُسألون عن طريقتهم في التعامل مع أبنائهم التي قد تخلق منهم مجرمين وقتلى، لا يُسألون عن غياب الدعم النفسي والمعنوي، ولا يُسألون عن السخرية والتقليل من شأنهم وأحلامهم وطموحاتهم، يُسال المرء عن تصرفاته ولا يُسأل المجتمع المُتهالك التافه، لا يُسأل المجتمع الفاسد المرتشي الظالم، لا يُسأل المجتمع المُهمل العدواني المتشدد، يوضع المرء في سجنٍ كبير خلف القضبان، لكن يبقى المجتمع الراجعي هو أكبر سجون العالم.

تنهد ياسين بعدما اقترب من المطار، وقف ينتظر دليدا في ساحة الانتظار، بعد دقائق اصطدمت به فتاة، التف إليها عازمًا معاتبتها.

ـ رقية؟

ابتسمت له: «انتظرت سنوات طويلة حتى أراك مرتديًا هذه البذلة الرمادية».

لم يكن يملك أي كلمات للرد عليها فواصلت رقُية بنبرة في غاية الحزن: «لقد حققت الجزء الأول من الأمنية، فلم يذهب انتظاري هباءً.. لكنني تمنيت وانتظرت أيضًا أن أكون عروستك، ويكون ارتداؤها في حفل زفافنا.. دُنيا!

لن يحبك أحد مثلما أحببتك يا ياسين، لن تجد امرأة تتحمل نوبات غضبك واستفزازك، ولن تجد امرأة تمتص وتغفر قسوتك، لن يحبك أحد مثلما أحببتك يا ياسين، لن تجد امرأة مدت لك يد النهوض وهي تغرق في اليأس، ولن تجد امرأة تنازلت عن حقوقها في الحب والاهتمام، وحتى المشاركة في سبيل بقاء علاقتكما، لن تجد امرأة تغفر لك كل سخافاتك وإهمالك مثلما فعلت معك، لن تجد امرأة كانت تضع لك المبررات حين تُخطئ في حقها، وتلتمس لك العذر قبل أن تقول عذرك عن كل الأشياء التي تؤذيها بها، لن يحبك أحد مثلما أحببتك يا ياسين، لن تجد امرأة كانت مستعدة للوقوف معك أمام العالم حتى تعيش حياة هادئة جميلة تستحقها، ستفتش عني يا ياسين بين النساء، ستبحث في قلب كل امرأة عن شيءٍ ما في قلبها يشبه قلبي ولن تجده، ستفتش عن حناني الذي كان يهون عليك أثقال يومك، ستفتش عن غفراني في كل النساء

ولن تجده، ستفتش عن ثقتي العمياء بك وعن قدرتي على استيعابك واحتوائك في أشد أوقاتك الصعبة، عن رضائي، واكتفائي بك عن العالم لن تجده أبدًا، ستفتش عني في كل مكان ولن تجدني، فلن يفهمك، لن يستوعبك، لن يتقبلك، ولن يرضى بك في كل النساء العالم إلا أنا. ستجد كل النساء لكنك ستظل تشعر بالنقص لأنك لن تجدني أبدًا.

تنهد ياسين واقترب منها: «بإمكاننا العودة، لا تزال الفرصة سانحة».

ضحكت رقية بسخرية: «أنت شخص انهزامي يا ياسين، مع أول ضربة ستلعن وتحطم كل شيء، وستحطمني مثلما فعلت من قبل، سنبقى ذكرى جميلة يا ياسين، مجرد ذكرى جميلة نتذكرها ونبتسم، ثم نواصل حياتنا العادية وكأن شيئًا لم يكن.. ما نحن إلا ذكرى يا ياسين».

اقترب منها أكثر دون أي اعتبار لمن حوله من الناس، لن يتركها ترحل إلا بعد أن يعتذر لها.

يعتذر عن قسوته، إهماله، تحطيمه لها.

يعتذر عن خذلانه لها، عن التقليل منها.

من رصاصة اليأس والرحيل التي أطلقها على قلبها.

ذاك الذي كان يدافع عنها بكل قوة.

«لقد وصلت الطائرة رقم ٩٥٣٤٠ القادمة من اليونان».

صوت المذياع الداخلي للمطار أيقظه من غفلته، أيقظه من خياله.. ولقد صدقت رقية في كل شيء. يا للتعاسة! فحتى في خياله لم يتثنى له العودة لها، بل كانت الفرصة الوحيدة السانحة له هو

أن يعتذر لها، وحتى هذا ما لم ولن يحدث أبدًا، فلقد أصبح كل ما يجمعه بها.. مجرد ذكرى عابرة.. طريقان لن يلتقيا أبدًا.

وصلت دليدا المطار، استقبلها ياسين بهدوء، ما أن رأته حتى عانقته: «لولا أن قدميّ على الأرض وأرى الناس حولي لأقسمت أن كل هذا مجرد حلم».

ابتسم ياسين وقال لها: «يمكن للأحلام أن تتحقق».

أمسكت يده بكل قوة وسعادة، بينما كان يمسك يدها بكل برود وجفاء.

بعد إنهاء الإجراءات في المطار انطلقا إلى إحدى البواخر في حفل بسيط أعده ديفيد شاهين لهما هدية زفافهما.

كانت دليدا في غاية السعادة، بينما كان ياسين في غاية الهدوء، لاحظ ياسين أن سيارة ما تتبعه.

«وهم يا ياسين، خيالك يصنع لك هذه الأشياء كما صنع لك رقية قبل لحظات».

وصل العروسان إلى الباخرة الثابتة على ضفاف النيل، التي كانت على أتم استعداد للحفل.

كانت لحظات ساحرة، ياسين ببذلته الرمادية، ودليدا بفستانها الفاتن وملامحها الجميلة، لحظة لم تخطر على بال ياسين أبدًا، ولحظة انتظرتها دليدا طويلًا.

دعته للرقص: «هيّا يا ياسين.. لقد تخيلت هذه اللحظة منذ زمن».

لم يحرجها، ولم يرضَ أن يحطم قلبها.

عانقته وظلت تتمايل بهدوء على الألحان الرومانسية الهادئة.

«أخيرًا يا ياسين سأنام وأنا مطمئنة، أخيرًا سأغدو في منامي وأنا لا أفكر في خطط الغد، لا أفكر فيما سيحدث ولا أتألم بما حدث، أنت عوض الدنيا ورزقي من السماء يا ياسين، أنت أمنيتي التي تحققت وأحلامي التي تحققت، أنت حاضري الآن ومستقبلي الجميل الذي ينتظرني، أنت كل حياتي».

ابتسم ياسين محاولًا إظهار السعادة أمامها.

واصلت بهدوء: «ربما علينا أن نفكر في الابتعاد عن العالم، كل العالم بما فيهم العائلة، عالم الإجرام لا يليق بنا، عاهدني أن نفكر في الأمر يا ياسين».

وضع الرجل يده بحنانٍ على شفتيها: «هذا ليس الوقت المناسب للحديث عن هذا الأمر».

قبّلتها وابتسمت:

- أحبك يا ياسين، أحبك ولن أفكر إلا في إسعادك وتعويضك عن كل الأشياء التي حطمت قلبك وهزمته، لن أسعى إلا لنيل رضائك».

واصل الرقص.

ختام مثالي لشخصين أذاقتهما الحياة مرارة الخيبة، الغدر والفقدان، وأجبرتهما على سلب طرق لا تشبههما، وعلى حياة لا تليق بهما، لكن ربما زواجهما هو فرصة وبداية جديدة لصنع واقع أفضل، لصنع حياة جديدة بعد تلك التي حطمت تمامًا، ربما زواجهما هو فرصة جديدة من الحياة لهما ليبدآ معًا طريقًا مفروشًا بالحب والود والتفاهم، بالوردي المبهج الجميل بدلًا من الأحمر الدموي القاتل، ربما هذه هي الفرصة ليمحي القدر كل خطاياهما، ويعيشا كالدراويش في زهدٍ وحبٍ وسلام.

أغمضت دليدا عينيها وواصلت الرقص.

يبتعدان ويقتربان والهواء النقي ينعش صدريهما الممتلئين بالخوف والآلام ووحشية الوحدة والظلام.

فجأة سمعت دليدا صوتًا اخترق أذنيها.

التفتت بهدوءٍ تام.

ياسين..

لقد ارتطم بالأرض..

جثة هامدة..

غارق في دمائه على الفور.

ياسين..

لا يتحرك..

لا يتنفس..

والدماء تواصل الخروج من قلبه..

ياسين.

فجأة المهندس الحالم الذي ظلمته وقست عليه الحياة أصبح جثة هامدة لا قيمة لها.

جثت على ركبتيها.

تبكي؟

تصرخ؟

تستنجد بالعالم؟!

السواد حل على عينيها، هي لا ترى، عقلها لا يدرك، لا يستوعب الصدمة.

قلبها يخفق يكاد يخرج من مكانه.

جثت على ركبتيها بعدما احتشد الناس حولها: «ياسين استيقظ.

ياسين انظر إلي أنت لم تمت.

كف عن هذه الألعاب السخيفة!

ياسين انهض.

لن تتركني في هذا العالم وحدي.

لن ينتهي كل شيء بهذه البساطة!

ياسين انهض.. أتوسل إليك يا ياسين.

أنت عالمي وحياتي».

ظلت تضرب الأرض بيديها، تلطم على وجهها وتصرخ حتى فقدت الوعي تمامًا.

وبينما طلب الناس الإسعاف لإنقاذ العروسين، وقفت امرأة من بعيد تشرب سيجارتها، تتأمل المشهد، وتضحك بسخرية.

تتأمل قتل ياسين وتغني.

رمقته النظرة الأخيرة، ثم استدارت وابتعدت أكثر وهي تقول: «ألم أقل لك يا ياسين أن الرجال لا يستحقون الحياة؟ يومها سخرت وقلت: يا عليا ليس كل الرجال بهذا السوء، كنت على وشك تصديقك، لكنك فعلت ما يجعلني أؤمن بنظرتي عن كل الرجال، وقد حان دوري لأثبت لك أن الرجال لا يستحقون العيش والحياة بما فيهم أنت يا ياسين».

انتهت قصة ياسين، وإن صح التعبير انتهت حياة رجلٍ لم تبدأ من الأساس، حياة كانت كلها محاولات للحياة، لقد أفنىَ سنواته المعدودة في محاولات تحقيق أهدافه، لم يبدُ قاسيًا على الحياة،

لكنها قررت أن تقسو عليه منذ نعومة أظافره، ما بين الفقر والجوع حتى الاحتياج والذل والمحسوبية التي في لحظة ضربت بعرض الحائط كل السنوات التي قضاها في التعليم بكل ضغوطاته. انتهت حياة شاب لم يحيا من الأساس، بل كان يحاول، يحاول النجاة من مخالبها القاسية الحادة لكن دون جدوى، ربما الموت هو المحطة الوحيدة في حياته التي وصل لها، عدا ذلك كانت كل حياته محاولات للوصول إلى نقطة ثابتة. انتهت حياة المهندس الجدع الذي نال منه الفقر والحرمان، انتهكه في حرمة منزله، وسرق الاحتياج واليأس حبيبته الوحيدة. ظل يحاول ويحاول ويحاول.. حتى استقر به في نقطة اللاعودة.

النقطة الوحيدة التي وصل لها.

لتسقط كل كلمات التنمية البشرية التي أخبرتنا أن السعي يعني حتمية الوصول، فإن كان الموت هو الوصول الوحيد الذي استقر به ياسين فما قيمة كل محاولاته للسعي؟

أسدل الستار على ياسين لتفقد عائلة ديڤالو فردًا من رجالها، وتفقد رقية حبيبها القديم، وفقدت دليدا عالمها الوحيد.

جنوب إفريقيا

وصل ديفيد وماري وسراج إلى عاصمة الجنوب الإفريقيّة، حان وقت الاستراحة والتفكير والاستعداد لمعركة جديدة ومختلفة وأشد قسوة.

انطلقت المجموعة إلى مقر الإقامة، كل منهم دخل مباشرة إلى غرفته لا يعلمون مصير أصدقائهم، لكن متابعة الأجواء في إيطاليا في هذا التوقيت هو الحدث الأهم الآن.

دخل ديفيد إلى غرفته، خلع معطفه، ثم تحرك في أركان الغرفة ليكتشفها.

كل شيءٍ مُنظم بطريقة مثالية.

لاحظ ورقةً منطوية موضوعة على السرير، أمسك بها: «من الغباء أن تهرب من سماء وأجواء إيطاليا الدافئة إلى شمس إفريقيا الحارقة، لأنك بالطبع لا تحاول الهروب مني.. أليس كذلك؟

كان من الأفضل أن تستمر معركتنا في أوروبا، لكن على أي حالٍ لك ما تريد، أهلًا بك في جنوب إفريقيا يا ديفيد.

صديقك جورج زوج لورين والأب الوفي لجوماني».



الخاتمة

ما دمت لا تعرف أصل الأشياء، فأنت لم تصل للنهاية بعد، الآن وبعدما قرأنا معًا الجزء الأول والثاني من الرواية يمكننا تحديد التغييرات النفسية والشخصية التي طرأت على أبطال العمل ويمكنك أنت أيضًا كتابة مدى التغييرات التي حلت بشخصيتك خلال الفترة الوجيزة بين الجزئين، سرعة الأحداث اليومية التي نمر بها كفيلة أن تغير المرء في ليلة وضحاها، أنت جزء من هذه العائلة وهم جزء أصيل منك..

إلى اللقاء في الجزء الثالث من عائلة ديڤالو..

وللحديث بقية.